جامعة أم درمان الإسلامية

كلية الدراسات العليا

كلية اللغة العربية

قسم الدراسات الأدبية والنقدية

ابنُ سِنان الخفَاجيُّ
وجهودُه البلاغيةُ والنقديةُ
من خلال كتابه (سرِّ الفصاحة)
(٤٢٣هـ ــــ ٤٦٦هـ)

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في البلاغة

إعداد

الطالبة: درية ياسين عبدالرحمن أحمد

إشراف

الدكتور/ محمد الحسن علي الأمين

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد

فإن أي مهتم بدراسة تراث الأمة الإسلامية، لا تخفى عليه تلك الجهود العلمية الكبيرة والعظيمة التي بذلت بهدف تبيين تعاليم الإسلام، وترسيخ مبادئه، والدفاع عنه، واتخذت هذه الجهود اتجاهات شتى، وتخصصات مختلفة، يجمعها الهدف المشار إليه سابقاً، فمن باحث ومدقق في القرآن الكريم وكل ما يتعلق بمسائله كالقراءات، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وغيرها، ومن راوٍ لحديث رسول الله ﷺ، وفاحصٍ وناقدٍ لأسانيده، ومقعِّدٍ لقواعده وفقهه، وكل المسائل المتعلقة به، وفريق ثالث يبحث في مسائل العقيدة والتوحيد، موضحاً البراهين والدلالات، ودافعاً الشبهات والضلالات، إلى غير ذلك من صنوف المعرفة والعلم.

ومما اجتهد العلماء فيه جهوداً عظيمة، وقضوا في بحثه ودرسه أعماراً مديدة، علوم اللغة العربية – زادها الله عزاً وتشريفاً – كيف ومن البدهيات أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال إدراك مرامي القرآن الكريم، والسنة المشرفة، إلا بإتقان اللسان العربي، بناءً على ذلك فقد برز في علوم العربية علماء أفذاذ، وعباقرة كبار، خدموا لغة الضاد خدمة جليلة، وجلوا عن حسنها وإبداعها، في كل فنٍ من فنونها، ومن هؤلاء العلماء ابن سنان الخفاجي موضوع هذه الدراسة.

سبب اختيار الموضوع وأهميته:

بعد البحث والتنقيب في موضوعات الدرس البلاغي، واستشارة أهل العلم والتخصص، رأت الباحثة أن يكون ابن سنان الخفاجي وجهوده البلاغية والنقدية موضوعَ رسالتها في الدكتوراه، فإنه – رحمه الله – لم يحظ – فيما وقفت عليه الباحثة من دراسات معاصرة – بالقدر العلمي والبحثي الذي يتناسب مع ما قدمه لعلوم العربية بعامة، والبلاغة والنقد بصورة خاصة، ويتبين لنا هذا الأمر بجلاء ووضوح إذا ألقينا نظرة فاحصة على الدراسات التي كُتبت حول عصريِّه عبد القاهر

الجرجاني، فإن الباحث لا يعوزه أن يجد العشرات من الأبحاث حول الجرجاني، وإن كان الدارسون قد احتفوا به لأنه واضعُ نظرية النظم، فإن الخفاجي لا يقل عنه قدراً وذلك بجهوده العظيمة في نظرية اللفظة المفردة، كما أن سبقه في اكتشافه للون البلاغي المعروف بـ " حسن التعليل " وتجلية مباحثه تشكل رصيداً معرفياً وبلاغياً يحسب لابن سنان الخفاجي رحمه الله رحمة واسعة، بل الناظر في أدبه ومباحثه يجده قد سبق أيضاً في وضعه لألفاظ ومصطلحات لازالت جارية على ألسنة العلماء والباحثين، ومن ذلك وضعه لمصطلح " الفواصل القرآنية " تنزيهاً للقرآن الكريم بأنه مسجوع، من هذا كله استقر الرأي على دراسة الجهود العلمية لهذا الإمام، والله الموفق.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة الموضوع أن يكون تقسيمه إلى مقدمة، وبابين، وفصول، ومباحث، ومطالب، وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة:

الباب الأول

ابن سنان الخفاجي وجهوده البلاغية

الفصل الأول : ابن سنان الخفاجي وكتابه سر الفصاحة

المبحث الأول : التعريف بابن سنان الخفاجي.

المطلب الأول : اسمه، ميلاده، نسبه.

المطلب الثاني : طلبه العلم، وشيوخه، وأثر كتابه في العلماء المتأخرين.

المطلب الثالث : آثاره العلمية وفاته.

المبحث الثاني : التعريف بكتاب سر الفصاحة.

المطلب الأول : عرض الكتاب والغرض من تأليفه.

المطلب الثاني : منهج الكتاب.

الفصل الثاني : الجهود البلاغية عند ابن سنان الخفاجي.

المبحث الأول : أثر علم البلاغة على العلوم الأدبية والشرعية عند ابن سنان.

المبحث الثاني : معنى الفصاحة والبلاغة عند ابن سنان.

الفصل الثالث : شروط الفصاحة عند ابن سنان في اللفظة المفردة والمنظومة.

المطلب الأول : الشرط الأول.

الباب الأول

ابن سنان الخفاجي وجهوده البلاغية

المبحث الأول

التعريف بابن سنـــان

المطلب الأول: اسمه وميلاده ونسبه

اسمـه:

ابن سنان هو الأمير العالم الشاعر الأديب أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن يحي بن الحسين بن محمود بن الربيع بن سنان الخفاجي[١].

ميلاده:

نظم ابن سنان قصيدة سنة (٤٤٣هـ) واستطاع العلماء معرفة ميلاده من خلال أبيات تلك القصيدة إذ أنه لم يكن في كتب المؤرخين ما يشير إلى تاريخ ميلاده، وفي هذين البيتين يقول:

وقورٌ إذا طرقتني الخطوبُ ... وحلَ من الخوفِ عِقدَ النُهي
بعشرينَ انفقتُها في الصُدودِ ... وجُدتُ بها في زمانِ النوىَ[٢]

---

(١) فوات الوفيات، محمد شاكر بن أحمد الكتبي، ت(٧٦٤هـ)، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله وعادل أحمد عبدالمحمود، دار الكتب العلميّة، بيروت – ٢٠٠٠م، الطبعة الأولى ٥٧٢/١.
زبدة الحلب من تاريخ حلب، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم، تحقيق: سامي الدهان، دار سعد الدين، ١٤٢٧هـ–٢٠٠٦م، ٥٣/١–٥٩.
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار الكتب العلميّة، بيروت– ١٤١٣هـ–١٩٩٢م، ٩٨٨/٢.

(٢) ديوان ابن سنان الخفاجي، تحقيق: الدكتور عبد الرازق حسين، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ–١٩٨٨م، ص٥٢٥.

يقول ابن سنان: إنني أضعت من عمري عشرين عامًا، وأنا أصارع فيها الخطوب والأيام المظلمة، وقد آثرت فراق الآباء والأجداد، فعمره في عام (٤٤٣هـ) كان عشرين عامًا، وعلى هذا يكون مولده حوالي عام (٤٢٣هـ)، ومما يدعم هذا الاستنباط التاريخي ويؤيده ما كتبه (ابن بطلان[(١)]) إلى صديق له عام (٤٤٠هـ) يصف له فيها حلب من رسالة طويلة قال فيها: (إن فيها شابًا حدثًا يعرف بأبي محمد بن سنان الخفاجي قد ناهز العشرين، وعلا في الشعر طبقة المحنكين)[(٢)].

كذلك ما يقوي هذا الاستنتاج قول ابن سنان في قصيدة كتبها عام (٤٤٠هـ) يقول:

سبقتُ وما بلَّغتُ عشرًا كوامِلاً   فكيفَ وقد جاوزتُها بثَمانِ[(٣)]

وعلى ذلك يكون عمره عام ٤٤٠هـ ثمانية عشر عامًا فيكون مولده عام 422هـ وهو قريب من التاريخ السابق[(٤)].

---

(١) ابن بطلان هو الحسن بن بطلان المتطبب، كان طبيبًا شديد التعلق بما ثقفه من أصول الطب اليوناني والمعارف اليونانية جملة، فلذا أفرغ في مقامه كثيرًا من الآراء الطبيّة والأقوال الحكيمة، له كتاب " دعوة الأطبّاء "، و" تقويم " الصِّحة في الطب، ت(٢٢٣هـ) معجم البلدان، ابن عبد الله أبو عبد الله ياقوت الحموي، دار الفكر، بيروت ٢/٢٨٤.
انظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار الكتب العلمية – بيروت–١٤١٣هـ–١٩٩٢م، ١/٤٦٩.
انظر ملامح يونانية في الأدب العربي، إحسان عبّاس، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر، بيروت– ١٩٧٧م– ١/١٦٧، ١٧١.

(٢) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ٢/٢٨٤.

(٣) ديوان ابن سنان الخفاجي، ص٢١٩.

(٤) بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي، محمد عبد المنعم خفاجي، المطبعة الفاروقية الحديثة، ١٣٦٩هـ– ١٩٥٠م، الطبعة الأولى، ص١٣.

أما مكان مولده فيمكننا أن نستنتجه من أشعاره أيضًا فنرى في شعره مظاهر البداوة على عادة شعراء البادية فيذكر الكثيب والرمل، واعتزازه بقبيلته وأمجادها وذلك شأن العرب، مما يدل على مكان مولده وهو طرف من أطراف مدينة حلب التي تعيش على التقاليد العربية آنذاك.

ذكر صاحب الأنساب أنه "كان يسكن حلب وشعره مما يدخل الأذن بغير إذن"(١).

نسبه:

نسبه في بني خفاجة الذين كانوا ينزلون حول حلب، وهي خفاجة بن عمرو بطن من بني عُقيل بن كعب من قيس بن عيلان، انتشرت بعد الإسلام فيما بين الجزيرة والشام، وأسسوا دولة في بادية العراق(٢).

والقول الثاني أيضًا الخفاجي نسبه إلى خفاجة، اسم امرأة ولد لها أولاد كثر وهم يسكنون نواحي الكوفة وينسب إليهم الشاعر ابن سنان الخفاجي(٣).

يقول ابن سنان:

وبالشهباء من حَزْنِ ابنِ عمرو ... بُيُوت ما رُفِعنَ على لئيمِ(٤)

وحزن بن عمرو هم أجداده الخفاجيين الذين كثيرًا ما تغنى بهم قال:

بنو حزن طلبنا لك العلا ... فلم آخذ تكفاك في طلب الفقر(٥)

---

(١) الأنساب، أبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، ت(٥٦٢هـ)، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، دار الفكر، بيروت-١٩٨٨م، الطبعة الأولى ٢٩٢/٤.

(٢) انظر الاشتقاق، أبي بكر محمد بن الحسن بن دُريد، ت(٣٢١هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ص٢٩٩.

(٣) اللباب في تهذيب الأنساب، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجزري، دار صادر- بيروت- ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ٤٥٤/١.

(٤) ديوان ابن سنان، ص٢٥.

(٥) ديوانه، ص٣٦.

وقال أيضًا:

وهل علمتْ بنو حزنِ بن عمروٍ إبـاي علـى مشـاورةِ الخطـوبِ[١]

كما تغنى بمجد جده (سنان) الخفاجي العقيلي العامري الذي كان له شرفه ومجده في قومه ورفعة والده.

وقال:

مهـــلاً فإنـــك لا تعُـــدُ مُباركًـــا خـــالاً ولا تـــدعو ســـنانا والـــدا
بيـتُ لـه النسـبُ الجلِـيُ وغيـرُهُ دعـوى تُريـدُ أدلـةً وشـواهدا[٢]

وقال:

بلغْ خفاجةَ عني إن مررتَ بها ونادِها لا إجابتْ دعوةَ الداعي[٣]

المطلب الثاني: طلبه العلم، وشيوخه، وأثر كتابه في العلماءالمتأخرين:

طلبه العلم:

أخذ ابن سنان الأدب والشعر وهذا ما ورثه من قبيلته وما تعلق به من أقوال القدماء، ومدارسته للشعراء الفحول، فقد تعلّم على عادة ذلك الزمان في أطراف حلب، وذكر أنه أخذ عن شيخه أبي العلاء المعري[٤]، فأعجب بآرائه وأخذ بطريقته في النظم ولعلّه تأثر به أقوى تأثر، نظم منذ صباه في الفخر، ونوب الليالي واحتقار الدهر، فنظر إلى المتنبي في حكمه، وفتن بالبحتري في شعره ومدحه.

---

(١) ديوانه، ص٤٨.

(٢) ديوانه، ص٧٠.

(٣) ديوانه، ص١٤٢.

(٤) هو أحمد بن عبد الله بن سليمان... المعري، يكنى أبا العلاء، أصيب بالجدري في الرابعة من عمره فعمي بسبب ذلك، وأطلق على نفسه " رهين المحبسين " البيت والعمى، كان قنوعًا متعففًا وبقي خمسًا وأربعين سنة لا يأكل اللحم =

كان ابن سنان يسكن مع قبيلته أطراف المعرة، فكان يتردد على أبي العلاء المعري، ويتتلمذ عليه، ويعرض عليه ما نظمه من شعر حيث صار شعره إلى حلب نفسها، فراح ينظم الشعر في أعلامها، ونجد أن ابن سنان يجول خلال حلب، ويلوذ بعلمائها وأدبائها، ويأخذ عن شيوخها وأساطينها، ممن درج على هذه البقعة الخالدة، كابن جني، وابن خالوية والفارابي، وابن سينا، والمتنبي، والسلامي وأبي فراس. وأراد أن يملأ صدره بالعلم والمعرفة، وقرأ الشعر وحفظ منه، وفي تلك الحقبة شرع في تأليف كتابه (سر الفصاحة) الذي يعد دراسة في النقد الأدبي، يعدها النقّاد من طلائع الكتب الرصينة في هذا الباب، حيث كان واسع الاضطلاع يعرض لآراء الفحول من النقاد، ويورد شواهده من الشعر والنثر ما يدل على رسوخ قدمه وقوة بيانه "[1].

تزهدًا فلسفيًا، وقد اختلف الناس في أمره، فبعضهم يعده زنديقًا، وبعض يعده تقيًا، كان في غاية الذكاء والحفظ، ت(٤٤٩هـ).

شذرات الذهب في أخبار من ذهب، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط، دار بن كثير –دمشق–١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى ٢٨٠/٣.

تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: دكتور عمر عبد السلام ترمدي، دار الكتاب العربي، لبنان– بيروت– ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م، الطبعة الأولى ١٣٤/٤٣.

بغية الطلب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرارة، تحقيق: دكتور سهيل زكّار، دار الفكر ٦٦/٢.

(١) بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي، عبد المنعم خفاجة، ص١٤.

شيوخـه:

ابرز شيوخ الخفاجي هو أبو العلاء المعري المتوفى سنة (٤٤٩هـ)، وهذا ما كان واضحًا في كتاب (سر الفصاحة) فقد ذكره في عشرين موضعًا، وكان تارة يصرح باسم شيخه وأخرى يلمح باسمه، وفي تصريحه نجده يقول: (وجري بين أصحابنا في بعض الأيام ذكر شيخنا أبي العلاء بن سليمان فوصفه واصف من الجماعة بالفصاحة، واستدل على ذلك بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الأدباء، فعجبنا من دليله، وإن كنا لا نخالفه في هذا المذهب)[١].

ويقول: (كنت حاضرًا عند شيخنا أبي العلاء)[٢]، وهذا ممّا يوضح ويدل على ملازمة ابن سنان لشيخه أبي العلاء المعري ولم يكن ابن سنان وحده تلميذ أبي العلاء المعري بل يظهر من حديثه أنه كان معه تلاميذ آخرون يقول: وقال أبو العلاء المعري فيما (قرأنا عليه)[٣].

وقد أخذ الخفاجي من طائفة من العلماء غير المعري يمكن ايراد بعضهم في الآتي:

فمـن النحـاة :الخليل بن أحمد الفراهيدي ت(١٧٥هـ)، وسيبويه، ت(١٨٠هـ) وابن جني ت(٣٩٢هـ)، وأبو العباس أحمد بن يحي ت(٢٩١هـ)، والأخفش ت(٢١٥هـ).

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ص١٣٢.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٠٢.

ومن علماء البلاغة والنقد: ابن المعتز ت(٢٩٦هـ)، وقدامة ابن جعفر ت(٣٣٧هـ)، وأبو بكر الصولي ت(٣٣٥هـ)، وعلي بن عيسى الرماني ت(٣٨٦هـ) والقاضي عبد الجبار ت(٤١٥هـ)، وجاء ذكره في ثنايا كتابه حيث أورد بعض القضايا التي كان كتابه المغني أصلا لها[١] ونجد أيضًا إعجابه وتأثره بالآمدي ت(٣٨١هـ) صاحب كتاب الموازنة وذكره بصحة فكره وسلامة نظره وصفاء ذهنه "[٢].

أثر الكتاب في العلماء المتأخرين:

لم يذكر المترجمون لابن سنان شيئًا عن التفاف التلاميذ من حوله، ويبدو أن حياته السياسية التي أودت بحياته في ريعان شبابه لم تمكنه من ذلك، ولكن من خلال الاستقراء في كتب البلاغة والنقد يمكن أن ندرك مدى تأثر بعض العلماء اللاحقين بابن سنان وأبرزهم.

ضياء الدين بن الأثير المتوفى عام (٦٣٧هـ)، حيث أشار في مقدمة كتابه "المثل السائر" إلى أنه قرأ فيما قرأ كتاب سر الفصاحة لأبي محمد عبد الله بن سنان الخفاجي وقال: " ما من تأليف إلا تصفحت شينهُ وسينهُ وعلمت غثه وسمينه فلم أجد ما ينتفع به في ذلك إلا الموازنة لأبي القاسم الحسن الآمدي وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي"[٣].

حازم القرطاجني المتوفى سنة (٦٨٤هـ) صاحب كتاب " منهاج البلغاء وسراج الأدباء" فقد ذكر لابن سنان أقوالاً في المقابلة، وترك التناقض، ووضع الألفاظ موضعها.

---

(١) انظر: المغني في أبواب التوحيد والعدل، القاضي أبي الحسن عبد الجبار، ت(٤١٥هـ): قوم نصّه، إبراهيم الأبياري بإشراف الدكتور طه حسين، وزارة الثقافة والإرشاد، ٧/١٠-١٦.

(٢) انظر: سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٧٤.

(٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن محمد بن عبدالكريم المعروف بابن الأثير، ت(٦٣٧هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت – ١٩٩٥م، ١/٢٣.

كما أننا نجد أثر سر الفصاحة واضحًا عند جلال الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني المتوفى عام (٧٣٩هـ) صاحب كتاب " تلخيص المفتاح " وكتاب الإيضاح في علوم البلاغة ".

أما العلوي صاحب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة المتوفى (٧٤٩هـ) فقد طرح قضية استكراه بعض الحروف وهذا ما جاء به سر الفصاحة.

وأما بهاء الدين السبكي المتوفى عام (٧٧٣هـ) صاحب كتاب عروس الأفراح فنجد كتاب سر الفصاحة في طليعة الكتب التي انتفع بها انتفاعًا عظيمًا.

وهكذا نرى أن ابن سنان وإن لم ينقل لنا التاريخ التفاف التلاميذ حوله، فقد التفوا حول كتابه وانتفعوا به وتأثروابه تأثرًا واضحًا، فيما كتبوه وقدموه لإثراء البلاغة العربية.

المطلب الثالث: آثاره العلميّة ووفاته:

آثاره العلميّة:

انحصرت آثار ابن سنان الخفاجي في مؤلفاته الآتية:

١-كتاب " سر الفصاحة " وقد طبع بالقاهرة:

الأولى: بتحقيق السيد الأستاذ علي فوده سنة ١٩٣٢م، النشر مكتبة الخانجي.

الثانية: بتحقيق الأستاذ عبد المتعال الصعيدي سنة ١٩٥٣م، دار مكتبة صبيح.

الثالثة: بتحقيق الدكتور عبد الواحد شعلان سنة ٢٠٠٣م، دار قبا للنشر.

٢-كتاب " الصرفة ": وقد بين فيه قضية إعجاز القرآن، ومذهب الصرفة وقد أشار صاحب كتاب معجم الأدباء إلى هذا الكتاب قائلاً: " قرأت بخط عبد الله بن محمد ابن سعيد ابن سنان الخفاجي الشاعر في كتاب له أَلَّفه في الصرفة "[١].

٣-ديوان محقق. حقّقه وطبعه الدكتور عبد الرازق حسين، دار المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

٤-وقد ذكر صاحب الوافي بالوفيات أن له من التصانيف كتاب الحكم بين النظم والنثر.

٥-وكتاب عبارة المتكلمين في أصول الدين.

٦-كتاب في رؤية الهلال.

٧-كتاب حكم منشورة.

٨-كتاب العروض "[٢].

وفاته:

وُلّي الخفاجي على قلعة عزار وهي من أعمال حلب فعصي بالقلعة، وعندما خرج من عزار قاصدًا حلب توفي مسمومًا سنة ست وستين وأربعمائة وحمل إلى قلعة حلب"[٣].

---

(١) معجم الأدباء، أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، ت(٦٢٦هـ)، دار الكتب العلميّة- بيروت- ١٤١١هـ-١٩٩١م، الطبعة الأولى ٤١٥/١.

(٢) الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، ت(٧٩٤هـ)، أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث- بيروت- ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ٢٧٢/١٧.

(٣) الوافي بالوفيات، بن أيبك الصفدي، ٢٧٢/١٧.

المبحث الثاني

التعريف بكتاب سر الفصاحة

المطلب الأول: عرض الكتاب والغرض من تأليفه:

أورد ابن سنان في صدر كتابه الغرض من تأليفه وذلك في قوله: "اعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفةحقيقة الفصاحة والعلم بسرها،فمن الواجب أن نبين ثمرة ذلك وفائدته.." أيضًا نجد الكتاب بحثًا مفصلاً في أوصاف الفصاحة والبلاغة في اللفظ والنظم والمعنى.

ولكن قبل أن يتحدث الكاتب عن الفصاحة مهد لذلك بجملة من الموضوعات تشكل مقدمات ضرورية للإحاطة بالفصاحة، وذلك عندما تعرض في وصف دقيق وتعريف مستفيض للأصوات، والحروف، والكلام، واللغة، فبيّن حقيقة الأصوات وتقطعها، وأحوال حروفها، ومخارجها وأثرها في فصاحة الكلمة، وحدد خصائص الأصوات، وبين أن الصوت يخرج مستطيلاً ساذجًا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده فيسمى المقطع أينما وجد حرفًا واستعرض دلالة الصوت على أنه ليس بجسم، وأن الأصوات تدرك بحاسة السمع في مجالها ولا تحتاج إلى انتقال محالها. ثم انتقل إلى الحديث عن الحروف وأوضح لماذا سميت حروفًا وبين كيف تختلف الحروف باختلاف مقاطع الصوت، وأشار إلى طرف من أحوالها في مخارجها، وذكر أن هناك حروفًا بعضها يحسن استعماله في الفصيح من الكلام وبعضها لا يحسن. وبين المجهور منها والمهموس ثم حدّد معنى الكلام وأنه ما انتظم من حرفين فصاعدًا من الحروف المعقولة إذا وقع ممن تصح منه الإفادة، ذاهبًا إلى أنه يشمل المفيد وغيره، وذكر أن المفيد منه حقيقة ومجاز وأنه يرجع إلى معنى الخبر كما أبان أن المتكلم من وقع منه الكلام قصدًا، وأن الحكاية هي المحكي عند قوم فالتالي للقرآن يسمع منه كلام الله على الحقيقة وهي غير المحكي عند قوم آخرين وإن كانت مثله وانتصر لهذا الرأي.

ثم ذكر اللغة ومعناها وأصلها وناقش أمواضعة هي أم توقيف، وانتصر للرأي القائل أن أساس اللغة مواضعة واصطلاح، وتحدث عن فضل اللغة العربية ومميزاتها وخصائصها، وذكر أقسام تأليف الحروف المتباعدة مخرجًا وهو الأحسن، ومنه ما هو تأليف من الحروف المتقاربة وهو قليل منبوذ.

ثم بدأ ابن سنان حديثه عن الفصاحة التي هي موضوع الكتاب والغاية من تأليفه، ثم بين ماهية الفصاحة وبين أنها مقصورة على وصف الألفاظ بعكس البلاغة فهي وصف للألفاظ مع المعاني، وأبان عن شرف الفصاحة وأنها نعت للألفاظ متى ما استكملت شروطاً عدة، وأنه متى تكاملت الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم، وذكر أن تلك العناصر والشروط قسمان:

١-ما يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها.

٢-وما يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض.

فأما ما يجب أن يوجد في اللفظة المفردة فثمانية عناصر:

١-أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج.

٢-أن يكون لتأليفها في السمع حسن ومزية على غيرها وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة.

٣-أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية.

٤-أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية.

٥-أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح غير شاذة.

٦-أن لا تكون قد عبّر بها عن أمر آخر يكره ذكره.

٧-أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف.

٨-أن تكون الكلمة مصغرة في موضع عبّر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل.

أما عناصر الفصاحة في الألفاظ المؤلفة:

أ- فمنها ما تشترك فيه مع الألفاظ المفردة وهي:

١- اجتناب تكرار الحروف المتقاربة في تأليف الكلام، ويرى أن التأليف على ضربين فقط: متلائم ومتنافر.

٢- أن يكون التأليف جاريًا على العرف العربي الصحيح.

٣- أن لا يكون التأليف قد عبّر به عن أمر آخر يكره ذلك.

ب- ومنها ما يختص به التأليف مما يرجع إلى الألفاظ بانفراد أو اشتراكها مع المعاني.

وتحدث عن حسن التأليف وذلك في ثمان نقاط وهي:

أ- وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازًا:

١- وبأن لا يكون في الكلام تأخير أو تقديم يفسد المعنى أو الإعراب.

٢- بأن لا يكون الكلام مقلوبًا فيفسد المعنى.

٣- ومن وضع الألفاظ موضعها حسن الاستعارة، ويعرف الاستعارة ويذكر خصائصها ويتحدث عن الفرق بينها وبين التشبيه ثم يذكر أثر الاستعارة في الفصاحة، وأقسامها.

٤- ومن وضع الألفاظ موضعها أن لا تكون الكلمة حشوًا، ويتحدث عن الحشو والغرض منه وما عيب منه وما استحسن.

٥- ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يكون فيها معاظلة وتحدث عن المعاظلة وبين الفرق بينهما وبين مشاكلة النظم بعضه لبعض ودلالة البيت على قافيته ويسمى تسهيمًا أو توشيحًا.

٦- ومن وضع الألفاظ موضعها أن لا يعبر عن المدح بألفاظ الذم ولا العكس.

٧- ومن حسن الكناية في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح.

٨- عدم استعمال الألفاظ العلمية والاصطلاحية.

ب- وذكر شروط الفصاحة: ومنها: المناسَبَةُ بين الألفاظ وقد جعلها من طريقين:

أولاً: من طريق الصيغة ثانياً: من طريق المعنى، أما من طريق الصيغة فأثرها في الفصاحة ظاهر، ومن هذه المناسبة:

١- السجع والازدواج ثم بين معنى السجع وأقسامه وتحدّث عن منهج القرآن في أسلوبه وأشار بأنه لم يكن كله مسجوعًا لأن ذلك من أمارت التكلف والاستكراه، كما أنه لم يخل من السجع لأن السجع من صفات الفصاحة.

٢- ذكر القوافي في الشعر وتحدث عن شروط حسن القافية وتحدّث عن كثير من عيوبها.

٣- التصريع.

٤- الترصيع وبيّن أنه تكون الجمل التي يشمل عليها البيت أو الفصل المنشور مسجوعة.

٥- اللّف والنشر المرتب.

٦- عدم كثرة الزحاف في الشعر، وتساوي الفصول أو أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول دون العكس في النثر.

٧- التجانس وحدّد ابن سنان معناه وذكر أقسامه واستحسن القليل الغير المتكلف منه.

وأما المناسبة بين الألفاظ عن طريق المعنى فجعلها على وجهين:

١- تقارب معنى اللفظين.

٢- تضاد معنييهما أو تقارب المعنى من التضاد، ثم ذكر أقسام الطباق وحقيقته وما يستحسن منه ممثلاً لجيده ورديئه ويجعل التقديم والتأخير في الأسلوب مما يجري مجرى الطباق.

ج-ومن شروط الفصاحة والبلاغة: الإيجاز، وذكر في ذلك: مقام الإيجاز، ومقام الإطناب، وبين أنه يشترط في الإيجاز وضوح المعنى وعدم خفائه، وإلا كان قبيحًا مذمومًا، كما شرح كلاً من المساواة، والتذييل، والإشارة.

د- وذكر أيضاً من الشروط: الوضوح في الأسلوب شعرًا أو نثرًا.

هـ-ومما ذكره أيضاً: الكناية، والتمثيل.

وأما أسباب الفصاحة التي تستعمل في صناعة تأليف الكلام فهي:

١-صحة التقسيم.

٢-تجنب الاستحالة والتناقض.

٣-ألا يضع الجائز موضع الممتنع.

٤-صحة التشبيه.

٥-صحة الأوصاف في الأغراض.

٦-صحة المقابلة في المعاني.

٧-صحة النسق والنظم وحسن التخلص.

٨-صحة التفسير.

٩-المبالغة والغلو في المعنى.

١٠- الاستدلال بالتمثيل.

١١- الاستدلال بالتعليل.

ثم تحدّث ابن سنان عن الآراء الفاسدة في نقد الشعر ،وفي نقد الكلام وذلك عندما خطَّأ من يفضل أشعار المتقدمين على شعر المحدثين، وناقش ذلك مفصلاً للآراء مبيناً مناهج ومذاهب النقّاد في نقد الشعر.

وتحدّث في نهاية كتابه عن الفرق بين المنظوم والمنثور وما يقال في تفضيل أحدهما على الآخر وما يحتاج مؤلف الكلام إلى المعرفة به، وذلك في ثمان نقاط هي:

أولاً: اللغة التي هي لغة العرب.

ثانيًا: يحتاج من علم النحو إلى معرفة إعراب ما يقع له في التأليف.

ثالثًا: يحتاج الشاعر خاصة إلى معرفة الخمسة عشر بحرًا.

رابعًا: يفتقر أيضًا من العلم بالقوافي إلى معرفة الحروف والحركات التي يلزم إعادتها، وما يصح أن يكون رويًّا أو ردفًا مما لا يصح.

خامسًا: ويحتاج أيضًا إلى معرفة المشهور من أخبار العرب وأحاديثها وأنسابها وأمثالها، ومنازلها وسِيرِهَا وصفة الحروب التي كانت لها، وما له قصةٌ مشهورةٌ أو حديث مأثور.

سادسًا: ويختص بما يفتقر إليه من معرفة المخاطبات، وفنون المكاتبات والتوقيعات، ورسوم التقليدات مع الاطلاع على كتاب الله تعالى وشريعته، وحديث رسول الله ﷺ وسنته.

سابعًا: وبالجملة إن مؤلف الكلام لو عرف حقيقة كل علم، واطلع على كل صناعة، لأثر ذلك في تأليفه ومعانيه وألفاظه، لأنه يدفع إلى أشياء يصفها، فإذا خَبَرَ كل شيء وتحققه كان وصفُهُ له أسهل ، إلا أن المقصود في هذا الموضع بيانُ ما لا يسعه جَهلهُ دون ما إذا عَلِمه أثَّر عنده علمه فإن ذلك لا يقف على غاية.

ثامنًا: ترك التكلف والاسترسال مع الطبع، وفرط التحرز، وسوء الظن بالنفس، ومشاورة أهل المعرفة، وبغض الإكثار والإطالة، وتجنّبُ الإسهاب في فن واحد من فنون الصناعة ثمّ اختتم ابن سنان كتابه بحمد الله.

المطلب الثاني: منهج الكتاب:

سار ابن سنان في كتابه " سر الفصاحة " على المنهج الوصفي التحليلي، ومن خلاله برزت شخصية البلاغي البارع والأديب الناقد، حيث كان لروحه الأدبية أثرها الكبير في ثنايا جهوده المبذولة في كتابه، من ذلك أنه عني بإيراد النصوص الأدبية والأمثلة الشعرية فأكثر منها وقد أفصح عن ذلك بقوله: " ثم نبين بعد هذا كله وأشباهه ماهية الفصاحة، ولا نخلي ذلك الفصل من شعر فصيح، وكلام غريب بليغ يتدرب بتأمله على فهم مرادنا، فإن الأمثلة توضح وتكشف وتخرج من اللبس إلى البيان ومن جانب الإبهام إلى الإفصاح "[١].

وقد أكد على هذا المنهج في نهاية كتابه قائلاً: " إنا قد وفينا بجميع ما شرطناه في أوله، وقد كنا عزمنا على أن نصله بقطعة مختارة من النظم والنثر يتدرب بالوقوف عليها على فهم ما ذكرناه من أحكام البلاغة، وكشفناه من أسرار الفصاحة، لكنا فرقنا من الإطالة والتثقيل على الناظر فيه بالملل والسآمة فعدلنا إلى وضع ذلك في كتاب مفرد "[٢].

ويمكن تحديد منهجه في النقاط الآتية:

١-عقد الموازنات الأدبية وذلك من قوله: " وقد كنت مثلث في بعض المواضع الاستعارة المحمودة والمذمومة ببيتين أحدهما قول أبي نصر بن نباته[٣]:

---

(١) سر الفصاحة، محمد عبد الله ابن سعيد بن عبد الله بن سنان الخفاجي، ت (٤٤٦)هـ،تحقيق: الدكتور النبوي عبد الو احد شعلان، دار قبا للطباعة والنشر٢٠٠٣،ص٦

(٢) المصدر نفسه، ص٤٣١.

(٣) نصر بن نباته، هو عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نابته السعدي أبو نصر من شعراء سيف الدولة بن حمدان، طاف البلاد ومدح الملوك واتصل بابن العميد في الري ومدحه، قال أبو حيّان: شاعر الوقت حسن الحذو على مثال سكان البادية لطيف الإئتمام بهم خفي المغاص في واديهم هذا مع شعبة من الجنون وطائف من الوسواس قال ابن خلكان: معظم شعره جيد توفى ببغداد (٤٠٥هـ).
تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي ت (٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ٤٦٦/١٠.
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العبّاس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان ت(٣٥٤هـ)، تحقيق: إحسان عبّاس، دار الثقافة- لبنان، ٧٧٤/٣.

=

حتى إذا بُهَرُ[١] الأباطحِ[٢] والرُبا نَظَرتْ إليكَ بأعيُنِ النُوَّارِ[٣]

فنظرُ أعين النوار من أشبه الاستعارات وأليقها، لأن النوار يُشَبَّه بالعيون، وإذا كان مقابلاً للمجتاز به، ويمرُ به كان كأنه ناظر إليه، وهذه الاستعارة الصحيحة الواضحة التشبيه[٤].

والبيت الثاني قول أبي تمّام[٥].

قَرَّتْ بِقُرَّانَ عينُ الدينِ وانْشَتَرَتْ بالأشتَرَيْنِ عُيُونُ الشِّركِ فاصْطُلِمَا[٦]

وقُرةُ عين الدين وانتشار عيون الشرك من أقبح الاستعارات، لعدم الوجه الذي لأجله جعل للدين والشرك عيونا، ومع تأمل هذين البيتين يُفهم معنى الاستعارة، لأن النوار والشِرك لا عيون لهما على الحقيقة، وقد قَبُحَتِ استعارةُ العيون لأحدهما وحَسُنَتْ للآخر والعلّة فيه أن النوار يُشبه العيون، والدِّين والشرك ليس فيهما ما يشبهها ولا يقاربُها، وهذه طريقةٌ متى سُلكت ظهر المحمودُ في هذا الباب من المذموم "[٧].

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي ت(٨٧٤هـ)، دار الثقافة والإرشاد القومي، مصر ٢٨٤/٤.

(١) البهر: ما اتسع من الأرض، وبهرة الوادي سرارته وخيره وبهرة كل شيء وسطه انظر لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي، دار صادر– بيروت، الطبعة الأولى ٨١/٤.

(٢) الأباطح: جمع الأبطح وهو الوادي وهو البطحاء وهو التراب السهل في بطونها ممّا قد جرت عليه السيول انظر لسان العرب، بن منظور الأفريقي ٤١٣/٢.

(٣) لم يوجد البيت في ديوان ابن نباته السعدي كما أنه ورد في سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٣١.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٧٦.

(٥) هو حبيب بن أوس الطائي، ولد بجاسم من أعمال دمشق، ونشأ بمصر، وقيل أنه كان يسقي الناس في مسجد عمرو بن العاص، وهو صاحب صنعة ومذهب، وهو شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعاني مات بالموصل عام (٢٣١هـ)، انظر الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ت(٣٥٦هـ)، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر– لبنان ٤١٤/١٦، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٢٤٨/٨.

(٦) ديوان أبي تمّام الطائي فسّر ألفاظه اللغوية، محي الدِّين الخيّاط، دار المعارف، ص٣٠٢.

(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٧٦.

ومن ذلك أيضًا قول أبي القاسم المطرز البغدادي[(١)]:

وَرَدتُ وقــد حــلَ لــي مــاؤُهُ　　　فلمّــا بكيــتُ عليــهِ حَــرُمْ[(٢)]

وقول مهيار بن مرزويه[(٣)]:

بكيتُ على الوادي فَحَرَّمتُ ماؤَهُ　　　وكيف يَحِلُ الماءُ أكثَرُهُ دمُ[(٤)]

فبيتُ مهيارٍ وإن قاربت ألفاظُه عدد ألفاظ بيت المطرِّز فقد تضمن من إيضاح المعنى ما لم يتضمنه بيت المطرز، لأن قائلاً لو قال: لم حَرُم الماء لما بكى عليه ؟ لوجب في حق تفسير المعنى وإيضاحه أن يقال: لأن دموعَه كانت دمًا غلبَ على هذا الماء، والدم حرام، فقد أتى مهيارٌ بهذا التفسير في متن البيت "[(٥)].

٢-التأمل والتفكر واستعراض الدواوين كاملة، بحثًا عن هذه الأمثلة، ولا يفت في عضده قلة المادة العلميّة المتوفرة عنده يقول: " وكنت افتقر إلى تأمل الديوان الكامل حتى اظفر منه بالكلمات اليسيرة فأوردها مثالاً "[(٦)].

---

(١) هو عبد الواحد – أو عبد الرحمن – بن محمد بن يحيى بن أيوب، يكنى أبا القاسم ويعرف بالمطرز كثير الشعر، سائر القول في المديح، والهجاء والغزل، وغير ذلك، ت(٤٣٩هـ).
تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ١٦/١١- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردى ٤٤/٥.

(٢) ورد البيت في سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٢١.

(٣) هو مهيار بن مرزويه الفارسي الديلمي، يكنّى أبا الحسن، وفي وفيات الأعيان أبو الحسنين – كان كاتبًا شاعرًا وكان مجوسيًا فأسلم، ويقال إنه أسلم على يد الشريف الرضي، وعليه تخرج في نظم الشعر وقد أوذن كثيرًا من قصائده، وكان جزل القول مقدم على أهل وقته، رقيق الحاشية طويل النفس في قصائده توفى عام (٤٢٨هـ).
تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٢٧٦/١٣، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان ٣٥٩/٥ سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرناؤوط محمد نعيم العرقسوسي، دار مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤١٣هـ الطبعة التاسعة ٤٧٢/١٧.

(٤) ديوان مهيار الديلمي، شرح وضبط، أحمد سالم، مؤسسة الأعلمي بيروت- لبنان الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، ص٣٥٧.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٢٢.

(٦) المصدر نفسه، ص٩٦.

٣-إخضاع المختارات والأمثلة لمعيار دقيق في الاختيار، فإنه مثلاً يأبى أشعار المحدَثين، ويبين أن هذا إنما بناه لأسباب منطقية قويّة حسب ما يراه يقول: " ولو تأملت قصيدة واحدة من شعر من يدعي القريض في هذا العصر وجدت فيها عدة أمثلة لكل ما أكره وأنكره، إلاّ أني أعتمد على التمثيل بأشعار هؤلاء الفحول المتقدمين في هذه الصناعة، لأمور:

أولها: صيانة هذا الكتاب عن تهجينه بذكر غيرهم.

ثانيها: أن اللفظة التي تكره في نظم هؤلاء الحذّاق تقع فريدة وحيدة يظهر مباينتها لكلامهم، فالعلم بها واضح وكشفها جلي ...).

ثالثهما: إيثاري أن أعلمك أن مقدمي الفصاحة سامحوا نفوسهم وأصبحوا في طاعة أهوائهم ليتحقق أن الزلل في طباع البشر موجود والعصمة على أكثرهم بائنة "[١].

٤-الحياد الأدبي والعلمي بين القديم والحديث:

قال: " وكما يُلتمس من المتأخر الحسنُ الصحيح كذلك يُلتمس من المتقدم... وما أحسب أن أحدًا ممن ينسبُ إلى العلم، ويتميزُ بصحة الفهم، يحتاج في اختيار الاستعارة إلى معرفة صاحبها وزمانه، حتى يكون حُكمُه على من تقدم مولدُه يخالف حُكمَه على من قَرُب عهده "[٢].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٩٦.

(٢) المصدر نفسه، ص١٨٦.

رغم ما أشار ابن سنان إليه في النقطة السابقة إلاّ أنه بيَّن في موضع آخر، أن هذا المنهج ليس تعصبًا للقديم على الحديث من ناحية الزمن المجرد، وإنما لسبب آخر خارج عن نطاق الزمن يقول: " إنما العربُ الأَوَلُ لما كثُرَ الإسلام، واتصلت الدعوة وانتشرت، حضر أكثرهم، وسكنوا الأرياف، وفارقوا البدو، وخالطهم الباقي، فامتزج كلامهُم بمن جاوروه من الأنباط وعاشروه من العجم، وعُدم منهم الطبعُ السليمُ الذي كانوا عليه قبل هذه المخالطة، فهم الآن لا يُحتج بكلامهم لهذه العلة لا لأن التقدّم والتأخر سببان في الصواب والخطأ "[١].

٥-وجدير بالإشارة هنا إلى أن من منهج ابن سنان الإكثار من الشواهد الشعرية دون النثرية، وأيضًا يعلل لهذا المنهج، يقول: " فأمّا اقتصاري في أكثر ما أمثل به على المنظوم دون المنثور مع أن كلامي عليهما واحد، فإنما أقصد من ذلك لكثرة المنظوم واشتهاره، ورغبتي في أن يسهل الوزن عليك حفظ ما أذكره فإنه داعٍ قوي وسبب وكيد "[٢].

٦-بين ابن سنان أن منهجيته تنطلق من الحرية في البحث، والحرية في النقد فهو لا يقلد، بل يغلب الحق ولا يتبع الهوى فيما يذهب إليه يقول الآمدي في بيت امرئ القيس[٣].

فقلتُ له لما تمطى بصُلبِهِ وأردفَ أعجازًا وناءَ بكلكلِ[١]

---

(١) المصدر نفسه، ص١٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٦.

(٣) امرؤ القيس بن حجر الكندي، شاعر جاهلي، أشهر شعراء العرب على الإطلاق يماني الأصل، ولد بنجد، كان أبوه ملك أسد وغطفان، وأمه أخت المهلهل الشاعر دار بنو أسد على أبيه فقتلوه، فبلغه ذلك وهو جالس يشرب الخمر فقال: رحم الله أبي ضيعني صغيرًا وحملني دمه كبيرًا، اليوم خمر وغدًا أمر، وثار من بني أسد لأبيه، قتل مسمومًا ودفن في أنقرة، ٥٤٤م.

الأغاني أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر ١٠٥/٩.

طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمعي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار مدني- جدّة ٥٢/١.

خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر البغدادي ت(١٠٩٣هـ)، تحقيق: محمد نبيل طريفي أميل بديع يعقوب، دار الكتب العلميّة - بيروت ١٩٩٨م، الطبعة الأولى ٣٢١/١.

إن هذه الاستعارة في غاية الحسن والجودة والصحة...)[٢].

علّق ابن سنان مناقشًا: هذا الذي قاله أبو القاسم لا أرضي به غاية الرضى ولو كنت اسكن إلى تقليد أحد من العلماء بهذه الصناعة، أو أجنح إلى اتباع مذهبه من غير نظر وتأمل لم أعدل عمّا يقوله أبو القاسم لصحة فكره، وسلامة نظره، وصفاء ذهنه، وسعة علمه لكنني أغلب الحق عليه ولا اتبع الهوى فيما يذهب إليه، وبيت امرئ القيس عندي ليس من جيد الاستعارة ولا رديئها بل هو من الوسط بينهما "[٣].

وممّا يؤكد ما ذهبنا إليه تكرار ابن سنان لهذا القول أو المنهج في مكان آخر من كتابه يقول: " ومعاذ الله أن يُخرجنا بغضُ التقليد وحبّ النظر من الطرف المذموم في الاتبّاع والانقياد إلى الجانب الآخر في التسرع إلى نقص الفضلاء، والتفنيد لما لعله أشتبه على بعض العلماء، والرغبة في الخلاف لهم، وإيثار الطعن عليهم، بل نتوسط إن شاء الله بين هاتين المنزلتين، فننظر في أقوالهم ونتأمل المأثور عنهم، ونسلط عليه صافي الذهن، ونرهف له ما ضنَى الفكر، فما وجدناه موافقًا للبرهان، وسليمًا على السَّبْرِ اعترفنا بفضيلة السبق فيه، وأقرْنا لهم بحسن النهج لسبيله، وما خالف ذلك وبَايَنَه اجتهدنا في تأويله، وإقامة المعاذير فيه، وحملناه على أحسنِ وجوهه وأجمل سُبُله، إيجابًا لحقهم الذي لا ينكر، وإذعانًا لفضلهم الذي لا يُجحد، وعلمًا أنهم لم يُؤتوا من ضلالة ولا كلال ذهن وفطنة "[٤].

---

(١) ديوان امرئ القيس، دار صادر – بيروت، ص٤٨.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٧٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٧٤.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٠.

٧-ومن منهجه الأمانة العلميّة، فنجده لا ينقل رأيًا لغيره إلاّ ونسبه إلى صاحبه أو إلى مصدره، وكان في أغلب الأحيان يشيد بفضل الآخرين وجهودهم ويثني عليهم، وهذا هو منهج الصدق والأمانة في البحث العلمي ومن ذلك قوله: " وقد ذهب قدامة بن جعفر الكاتب إلى أن المعاني في صناعة تعلم الكلام موضوع لها، وذكر ذلك في كتابه الموسوم " بنقد الشعر "، وقال في كتابه " الخراج وصناعة الكتابة " عند كلامه عن البلاغة أن اللغة تجري مجرى الموضوع لصناعة البلاغة "(١).

ونراه أيضًا يذكر المصدر العلمي الذي أفاد منه ويسنده إلى صاحبه وفي ذلك يقول: " ومن وضع الألفاظ في موضعها " حسن الاستعارة " وقد حدها أبو الحسن علي ابن عيسى الرماني فقال: " هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة "(٢).

ولحرصه الشديد على الأمانة العلميّة فإنّه لم يجد غضاضة في أن ينسب إلى نفسه النسيان أو السهو بل كان ذلك أفضل من أن يميل القول إلى مصدر من المصادر دون تأكيد ويقين يقول: " وقفت في بعض المواضع على الكلام في هذه الصناعة لا أعلم صاحبه قدامة أو غيره لأني قد نسيت الكتاب الذي وجدته فيه يدل على أن الألفاظ موضوع "(٣).

---

(١) المصدر نفسه، ص١٦٧.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٧.
(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٢٨.

٨-تحديده الدقيق لإطار البحث، وعدم خروجه عنه، وعليه نجده كثيرًا ما يحيل في مبحث من المباحث إلى كتاب أو كتب متخصصة فيه، ولا يشغل نفسه ولا القارئ بالاستطراد في ذكر موضوعات ليست هي من أهداف كتابه يقول: " فأني لو رمت إيضاح ذلك بجملته وإيراده بجميع أدلته خرجت عن المقصود في هذا الكتاب وأخذت في تفضيل العرب على أمم وهو يحتاج إلى جزء مميز وكتاب منفرد "(١).

ويقول في موضع آخر: " ولهذه الجملة تفصيل طويل إذا ذكرناه عدلنا عن الغرض المقصود بهذا الكتاب، وشرعنا في صريح النحو، ومحض الإعراب، ولذلك كتب موضوعة له ومقصورة عليه، يغني الناظر فيها عمّا تذكره في كتابنا هذا "(٢).

ويقول أيضًا: " وتفصيل هذه الجملة يوجد في كتب النحو، ولا يليق كتابنا هذا بذكره، لأنه علمٌ مفرد، وصناعةٌ متميزة "(٣).

ويقول أيضًا: " وقد صنّف العلماء في باب القوافي كتبًا بينوا فيها ما تجب إعادته من الحروف والحركات، وما لا تجب إعادته، ووضعوا لتلك الحروف والحركات أسماء لا حاجة لنا إلى ذكر شيء من ذلك لأنه هنالك مستوفي مستقصي وليس مما نحن بسبيله "(٤) وقال في فصل " الكلام عن المعاني المفردة ": " أمّا حصر المعاني بقوانين تستوعب أقسامها وفنونها على حسب ما ذكرناه في الألفاظ فعسير متعب لا يليق بهذا الكتاب تكلفة لأنه ثمرة علم المنطق، ونتيجة صناعة الكلام، ولسنا بذاهبين في هذا الكتاب إلى تلك الأغراض والمطالب "(٥).

---

(١) المصدر نفسه، ص٥٧.
(٢) المصدر نفسه، ص١٤٨.
(٣) المصدر نفسه، ص١٥١.
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٦٣.
(٥) المصدر نفسه، ص٣٤٩.

الباب الثاني
الجهود النقدية عند ابن سنان

المبحث الأول

أثر علم البلاغة على العلوم الأدبية والشرعية عند ابن سنان

عُني ابن سنان بالبلاغة والفصاحة وما يُطوَى فيها من الصور البيانية والبديعية، وله جهود بلاغية ونقدية عظيمة، وآثار بيانية نفيسة في أصول العربية وفقه لغتها، و بذل جهدًا كبيرًا في دراسة الأدب ونقده، يقول في سبب تأليفه " لمّا رأيتُ الناس مختلفين في الفصاحة وحقيقتها وعلم الفصاحة له تأثير كبير في العلوم الأدبية، لأن الزبدة منها نظم الكلام على اختلاف تأليفه ونقده ومعرفة ما يختار منه، وكلا الأمرين متعلق بالفصاحة، بل هو مقصور على المعرفة بها، فلا غنى لمن ينتحل الأدب عند دراسة الفصاحة على النحو الذي اهتدى إليه في سر الفصاحة، وكذلك العلوم الشرعية، لأن المعجز الدال على نبوة سيدنا محمد ﷺ هو القرآن، والخلاف الظاهر فيما كان به معجزًا على قولين:

أحدهما أنه خرق العادة بفصاحته وجرى ذلك مجرى قلب العصا حيّة، وليس للذاهب إلى هذا المذهب مندوحة عن بيان ما الفصاحة التي وقع التزايد فيها موقعًا خرج عن مقدور البشر.

والقول الثاني: أن وجه الإعجاز في القرآن صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت في مقدورهم لولا الصرف القائل بهذا يجري مجرى الأول في الحاجة التي تحقق الفصاحة ما هي ليقطع بأنها كانت في مقدورهم ومن جنس فصاحتهم، ونعلم أن مسيلمة وغيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة لأن الكلام الذي أورده خالي من الفصاحة التي وقع التحدي بها في الأسلوب المخصوص "[١].

وقد ذهب ابن سنان في تأثير المعرفة بالبلاغة وفنونها والفصاحة وأصولها وتأثير ذلك على الدراية التامة بمعرفة إعجاز القرآن الكريم، ذهب في ذلك مذهب العسكري، يقول: " وقد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علم البلاغة، وأخل بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف، وبراعة التركيب، وما شحنه به من الإيجاز البديع، والاختصار اللطيف، وضمنه من الحلاوة، وجلّله من رونق الطلاوة مع سهولة كلمه وجزالتها، وعذوبتها وسلاستها، إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلق عنها، وتحيرت عقولهم فيها "[٢].

---

(١) سر الفصاحة، محمد عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجي، ت(٤٦٦هـ)، تحقيق: الدكتور النبوي عبدالواحد شعلان، دار قبا للطباعة والنشر ٢٠٠٣م، ص٦.

(٢) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، ت(٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار النشر: المكتبة العصرية – بيروت ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ١/١.

المبحث الثاني

معنى الفصاحة والبلاغة عند ابن سنان

تناول العلماء أسرار البلاغة والفصاحة، ووقفوا على موقع هذا العلم من الفضل ومكانه من الشرف والنبل حيث الحاجة إليه ماسة كما قال العسكري: " إن أحق العلوم بالتعلم وأولاها بالتحفظ، بعد المعرفة بالله جلّ ثناؤه علم البلاغة ومعرفة الفصاحة "[١] وكما قال ابن سنان نفسه: " أن الدواعي إلى معرفة هذا العلم قوية، وأن الحاجة إليه ماسة تسديده "[٢].

تحديد ابن سنان لمعنى الفصاحة: لقد كان تحديده لمعنى الفصاحة تحديدًا دقيقًا حيث قال في كتابه: " واعلم أن الغرض بهذا الكتاب معرفة حقيقة الفصاحة والعلم بسرها..."، وهي الظهور والبيان، وهي مقصورة على وصف الألفاظ، وهي عبارة عن حسن التأليف في الموضوع المختار، ويحتاج إلى معرفتها إلى درجة ومخالطة ومناشدة، وتأمل الأشعار الكثيرة، والكلام المؤلف على طول الوقت وتراضي الأزمنة "[٣].

كما عرف الفرق بينها وبين البلاغة قائلاً: " والفرق بين الفصاحة والبلاغة، أن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفًا للألفاظ مع المعاني، لا يقال في كلمة واحدة لا تدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة، وكل كلام بليغ فصيحٌ، وليس لكل فصيح بليغًا كالذي يقع فيه الإسهاب في غير موضعه"[٤].

---

(١) المصدر نفسه ١/١.
(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٥.
(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٦.
(٤) المصدر نفسه، ص٦.

وقد تداول البلاغيون عبارة ابن سنان السابقة: " كل كلام بليغ فصيحٌ وليس كل فصيح بليغًا " وأثبتوها في مصنفاتهم[١] إشارة إلى سبقه إلى هذا الفهم، يقول الدكتور شوقي ضيف: " وهو فرق اصطلاحي ظل شائعًا بعده عند كثير من البلاغيين، وربما كان أول من اصطلح عليه "[٢].

وقد أورد ابن سنان آراء الناس وأقوالهم في تحديد معنى البلاغة، ويبدو أنه لم يرتض هذه التعريفات، والحدود، حيث قال: " وقد حد الناس البلاغة بحدود إذا حققت كانت كالرسوم والعلائم وليست بالحدود الصحيحة "[٣] والأقوال هي:

القول الأول:

قال ثعلب: " البلاغة لمحة دالة " واللمحة الدالة " ما وصفته العرب من الإيجاز والاختصار وفضلته فقالوا لمحة دالة "[٤].

قال ابن سنان: " هذا وصف من صفاتها فأما أن يكون حاضرًا لها وحدًا يحيط بها فليس ذلك بممكن لدخول الإشارة من غير كلام يتلفظ به تحت هذا الحد "[٥].

---

(١) انظر هذه العبارة في الإيضاح في علوم البلاغة، محمد بن عبد الرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين الخطيب القزويني، ت(٧٣٩هـ)، تحقيق عماد بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الثالثة ١٩٩٨م، ص١٥ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد المعروف بابن الأثير، ٢٦/١.
التعريفات، علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، الطبعة الأولى، ص٦٦. نصرة الثائر على المثل السائر: صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي، ت(٧٦٤هـ)، تحقيق: محمد علي سلطاني، مجمع اللغة العربية، دمشق، ص٧٧.

(٢) البلاغة تطور وتاريخ، دكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الحادية عشر، القاهرة، ص١٥٣.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٦٧.

(٤) قواعد الشعر، أبو العبّاس أحمد بن يحيى ثعلب، ت(٢٩١هـ)، تحقيق: رمضان عبد التواب، دار مكتبة الخانجي – القاهرة – ١٩٩٥م، ٧٢/١.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٦٧.

القول الثاني:

البلاغة معرفة الفصل من الوصل، قال أبو العبّاس السفّاح(١) لكاتبه: " من حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل والوصل "(٢).

قال ابن سنان: " لأن الإنسان قد يكون عارفًا بالفصل والوصل عالمًا بتمييز مختار الكلام من مطرحه، وليس بينه وبين البلاغة سبب ولا نسب ولا يمكنه أن يؤلف ما يختاره من تأليف غيره، والحدود لا يحسن فيها التأول وإقامة المعاذير وغرابة الألفاظ لا تدل على المقصود لأنها مبنية على الكشف الواضح موضوعة للبيان الظاهر، والغرض بها السلامة من الغامض، فكيف يتوقع في غامض بمثله "(٣).

القول الثالث: " البلاغة أن تصيب فلا تخطئ وتسرع فلا تبطئ "(٤).

---

(١) أبو العبّاس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله العبّاس الملقب بالسفّاح، وهو أول خلفاء بني العبّاس، أخذ البيعة ليلة الجمعة لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر من سنة ثنتين وثلاثين ومائة وكان عمره إذ ذاك ستًا وعشرين سنة، توفي في ذي الحجة بالأنبار. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، أبو القاسم علي بن الحسن بن عبدالله الشافعي، تحقيق: محي الدين أبي سعيد العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م، ٢٩٠/٣٢ – البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، ت(٧٤٤هـ)، مكتبة المعارف – بيروت ١٧٠/٢–٣٩/١٠ – العبر في خبر من غبر، شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي ت(٧٤٦هـ)، تحقيق: دكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت – ١٩٨٤م، الطبعة الثانية ١٧٤/١.

(٢) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ١/ص٤٣٨.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٦٨.

(٤) القائل هو صحار بن صخر العبدي، وهو الذي يقال له صحار بن عيّاش، من بني مرة ابن ظفر ابن الديل، ويكنى أبا عبد الرحمن، وكان في وفد عبد القيس، وكان بليغًا لسنًا مطبوع البلاغة مشهورًا بذلك، سكن البصرة ومات بها. الثقات؛ محمد بن حبّان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، ت(٣٥٤هـ)، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر– ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م – الطبعة الأولى ١٩٤/٣، طبقات ابن سعد الكبرى: محمد ابن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري، ت(٢٣٠هـ)، دار صادر ٠ بيروت ٥٦٢/٥.
الاستيعاب في معرفة الأصحاب: يونس بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت – ١٤١٢، ٧٣٦/٢.

ونجد معنى ذلك كما أورده صاحب تحرير التحبير، وهو إيضاح المعنى بأقرب الطرق أسهلها "[١].

قال ابن سنان: " لأن هذا يصلح لكل الصنائع وليس بمقصور على صناعة البلاغة وحدها، ثم إنما سئل عن بيان الصواب في هذه الصناعة من الخطأ فجعل جواب السائل نفس سؤاله – وبهذا يفسد قول من ادعى أن حدها الإيجاز من غير عجز والإطناب من غير خطل، وقول من قال البلاغة اختيار الكلام وتصحيح الأقسام، لأن هذين إنما سئلا عن حد يبين الكلام المرفوض من المختار والخطأ من الصواب، ويوضح كيف يكون الإيجاز مختارًا ومتى يقع الإطناب مرضيًا محمودًا فأحال على ما السؤال فيه باق وعدم العلم معه موجود حاصل "[٢].

القول الرابع: لقد استحسنه ابن سنان وهو قول إبراهيم الإمام قال: " وما أحسن ما قال إبراهيم بن محمد[٣] المعروف بالإمام: يكفي من حظ البلاغة أن لا يؤتي السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتي الناطق من سوء فهم السامع، وقال: " وهذا كلام مختارٌ في تفضيل البلاغة.

---

(١) انظر تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الأصبع المصري، ت(٦٥٤هـ)، تقديم الدكتور حفني محمد شرف، طبعة القاهرة ١٣٨٣هـ، ص٤٦٧.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٦٨.

(٣) إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن العبّاس، يكنى أبا اسحق، كان بالحميمة من البلغاء.
تاريخ الطبري: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ٤/٣١٥–
سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، ت(٧٤٨هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت – ١٤١٣هـ، الطبعة التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط. ٥/٣٧٩.

وقال سهل ابن هارون الكاتب[١]: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم " وقال: وأولى من هذا بالحجة قولُ النبي ﷺ للعبّاس وقد سأله فيم الجمال ؟ فقال: " في اللسان "[٢].

سلك ابن سنان في بيان فكرته منهجًا علميًا دقيقًا فقد انطلق من البسيط إلى المركب ومن الجزء إلى الكل، وتكلم في الفصاحة، ولم يخل ذلك من شعر فصيح، وكلام غريب بليغ، يتدرب بتأمله على فهم مراده، فإن الأمثلة توضع وتكشف، وتخرج من اللبس إلى البيان، ومن جانب الإبهام إلى الإفصاح.

---

(١) سهل بن هارون بن راهيون الدستميساني، يكنى أبا عمرو، اتصل بخدمة المأمون وتولى خزانة الحكمة له، كان فصيحًا حكيمًا شاعرًا، وكان نهاية في البخل وقد ألف رسالة في تحسين البخل وهو شعوي المذهب، شديد التعصب على العرب، ت(٢١٥هـ). له كتاب الحكمة. فوات الوفيات: محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي، ٤٦٦/١.
الفهرست: محمد بن اسحق أبو الفرج النديم، دار المعرفة – بيروت – ١٩٧٨م، ١٧٤/١.

(٢) الحديث، عن أبي جعفر محمد بن علي ابن الحسين عن أبيه قال: أقبل العبّاس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ وعليه حلة وله ضفيرتان وهو أبيض فلما رآه رسول الله ﷺ تبسم فقال العبّاس يا رسول الله ما أضحكك أضحك الله سنك فقال أعجبني جمال عم النبي ﷺ فقال العبّاس ما الجمال في الرجال قال: اللسان.
المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، ت(٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان، ١٤١١هـ-١٩٩٠م، الطبعة الأولى ٣٧٣/١. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٧٠.

المبحث الأول

شروطها في اللفظة المفردة

فطن الخفاجي إلى أن تحقيق قضية الفصاحة والبلاغة في الكلمة والأساليب هي دراسة الحرف الذي هو أساس الكلمات ولذلك قسّم تأليف الحروف إلى ثلاثة أقسام **الأول:** تأليف الحروف المتباعدة وهو الأحسن المختار، **والثاني:** تضعيف هذا الحرف نفسه، وهو يلي هذا القسم في الحسن، **والثالث:** تأليف الحروف المتجاورة وهو إما قليل في كلامهم أو منبوذ رأسًا "[١].

واستفاد ابن سنان هذا التقسيم من ابن جني الذي عرض لقضية أحوال الحروف ومخارجها وتحصل على أن الحروف في التأليف على ثلاثة أضرب "[٢] حيث تناولها ابن سنان ومن ذلك أنّه وضع شروطًا لفصاحة تلك الألفاظ وقال: " إن الفصاحة نعتٌ للألفاظ إذا وجدت على شروطٍ عدة، ومتى تكاملت تلك الشروط فلا مزيد على فصاحة تلك الألفاظ، وبحسب الموجود منها تأخذ القسط من الوصف، وبوجود أضدادها تستحق الاطراح والذم"[٣].

وتلك الشروط قسمها إلى قسمين:

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٦٥.

(٢) سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار النشر، دار القلم- دمشق - ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، الطبعة الأولى ٢/٨١٦.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٧٣.

فالأول منها ما يوجد في اللفظة الواحدة على انفرادها من غير أن ينضم إليها شيء من الألفاظ وتؤلف معه.

والقسم الثاني يوجد في الألفاظ المنظومة بعضها البعض "[١].

(١) المصدر نفسه، ص٧٣.

القسم الأول: ما يوجد في اللفظة الواحدة

المطلب الأول: الشرط الأول: التأليف من الحروف المتباعدة المخارج:

قال ابن سنان: " وعلّة هذا واضحة وهي أن الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ولهذا كان البياض مع السواد أحسن منه مع الصفرة، لقرب ما بينه وبين الأصفر، وبعد ما بينه وبين الأسود، وإذا كان هذا موجودًا على هذه الصفة لا يحسن النزاع فيه، كانت العلة في حسن اللفظة المؤلفة من الحروف المتباعدة هي العلة في حسن النقوش إذا مزجت من الألوان المتباعدة "(١).

وقد قال الشاعر(٢) في هذا المعنى:

فالوجهُ مثلُ الصبحِ مُبيَضُ والفرعُ مِثلُ الليلِ مسودٌّ(٣)

ضدَّانِ لمّا استجمَعَا حُسناً والضّدُ يُظهِرُ حُسنَه الضّدُ

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٧٤.

(٢) الشاعر أحمد بن الحسين المنبجي المعروف بدوقله بن العبد شاعر مجيد من أهل منبج وإليه تنسب القصيدة اليتيمة التي أولها – هل بالطول لسائل رد – أم هل لها بتكلم عهد.
انظر: بغية الطلب في تاريخ حلب، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، ت(٦٦٦هـ)، تحقيق: دكتور سهيل زكّار، دار الفكر ٦٩٨/٢.

(٣) ورد البيتان في حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء، أبو محمد عبد الله بن محمد العبد لكاني الزوزني، ت(٤٣١هـ)، تحقيق: محمد جبار المجيد، منشورات وزارة الإعلام، العراق، ٨٥/٢.
في هامش المنصف للسارق والمسروق منه، ابن وكيع التنسي، وذكر المحقق " البيت من القصيدة المنسوبة لروقلة المنبجي".
المنصف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقان أبي الطيب المتنبي، أبي محمد الحسن بن الحسن بن علي بن وكيع، ت(٣٩٣هـ)، تحقيق: الدكتور محمد يوسف نجم، الجامعة الأميركية – بيروت، ١٩٨٤م، ١٠٥/١.

ولكن رأي ابن سنان هذا وجد رفضًا من ابن الأثير الذي أبان بدوره قضية تباعد المخارج وقال: " أما تباعد المخارج فإن معظم اللغة العربية دائر عليه، لأن الواضع قَسَّمَهَا في وضعه ثلاثة أقسام، ثلاثيًا، ورباعيًا، وخماسيًا والثلاثي من الألفاظ هو الأكثر، ولا يوجد ما يكره استعماله إلا الشاذ النادر، وأما الرباعي فإنه وسط بين الثلاثي والخماسي في الكثرة عددًا واستعمالاً، وأما الخماسي فإنه الأقل ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر، وعلى هذا التقدير فإن أكثر اللغة مستعمل على غير مكروه، ولا تقتضي حكمة هذه اللغة الشريفة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك، ولهذا اسقط الواضع حروفًا كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استثقال واستكراه، فلم يؤلف بين الجيم والقاف، ولا بين اللام والراء، ولا بين الزاي والسين وكل هذا دليل على عنايته بتأليف المتباعد المخارج"(١).

أما عن تأليف الحروف المتقاربة فقال ابن سنان: " لا يكاد يجئ في كلام العرب ثلاثة أحرف من جنس واحد في كلمة واحدة، لحزونة ذلك على ألسنتهم وثقله، وقال: " أن الخليل ابن أحمد الفراهيدي قال: سمعنا كلمة شنعاء وهي " الهعخع "(٢) وأنكرنا تأليفها.

وقيل إنَّ أعرابيًا سئل عن ناقته فقال: تركتها ترعى " الهعخع " فلما كشف عن ذلك سئل الثقات من العلماء عنه أنكروه ودفعوه وقالوا: نعرف " الخعخع " وهذا أقرب إلى تأليفهم"(١).

---

(١) المثل السائر، ضياء الدين ابن الأثير ١/١٦٠.

(٢) هذه الكلمة وردت في كتاب العين، للخليل ابن أحمد الفراهيدي، ت(١٧٥هـ)، تحقيق: دكتور مهدي المخزومي، دكتور إبراهيم السامراي، دار مكتبة الهلال ١/٥٤، ٥٥، ونقل كلامه ابن دريد في جمهرة اللغة، أبي بكر محمد ابن الحسن ابن دريد اللغوي، ت(٣٢١هـ)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٨٧م، الطبعة الأولى ١/٤٨.

والسيوطي في المزهر في علوم اللغة والأدب، جلال الدين السيوطي، ت(٩١١هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت –١٤١٨هـ– ١٩٩٨م، ١/١٥٣ وشرحها القلقشندي، في صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، ت(٨٢١هـ)، تحقيق: عبدالقادر زكّار، دار وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨١م، ٢/٢٧٥، وقال: " الهعخع " بالهاء المعجمة والعين المهملة وهو نبت أسود.

قال ابن سنان عن حروف الحلق: " ولحروف الحلق مزيةٌ في القبح إذا كان التأليف منها فقط، وأنت تدرك هذا وتستقبحه كما يقبح عندك بعضُ الأمزجة من الألوان وبعض النغم من الأصوات"(٢). ويرى الجرجاني: " أن تلاؤم الحروف وجه للفضيلة، ودخل في عداد المفاضلة على الجملة، فإذا كان أمر المخالف على ذلك لم يكن لهذا الخلاف ضرر علينا، لأنه ليس بأكثر من أن يعمد إلى الفصاحة فيخرجها من حيز البلاغة والبيان، وأن تكون نظيرة لهما، وفي عداد ما هو مُشبّه من البراعة والجزالة، وأشباه ذلك مما ينبئ عن شرف النظم ويجعلها اسمًا مشتركًا يقع تارة لما تقع له تلك الكلمة، وأخرى لما يرجع إلى سلامة اللفظ، مما يثقلُ على اللسان وليس واحد من الأمرين يقادح فيما نحن بصدده "(٣).

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٥.

(٣) دلائل الإعجاز، أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، ت(٤٧٤هـ)، تحقيق: دكتور التنجبي، دار الكتاب العربي، بيروت –١٤١٥هـ-١٩٩٥م، الطبعة الأولى ٦٢/١.

المطلب الثاني: الشرط الثاني:

أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حسنًا ومزية على غيرها وإن تساويا في التأليف من الحروف المتباعدة.

قال ابن سنان: " إنك تجد لبعض النغم والألوان حسنًا يتصور في النفس، ويُدرك بالبصر والسمع دون غيره مما هو من جنسه، كل ذلك لوجه يقع التأليف عليه، ومثاله في الحروف تأليف " ع ذ ب " فإن السامع يجد لقولهم " العُذَيْب " اسم موضع " وعُذيبة " اسم امرأة، " وعذبٌ " و " عِذابٌ " و " عَذَب " و " عذاباتٌ " ما لا يجده فيما يقارب هذه الألفاظ في التأليف، وليس سبب ذلك بُعدَ الحروف في المخارج فقط، ولكنه تأليفٌ مخصوصٌ مع البعد، ولو قدمت الذال أو الباء لم تجد الحسن على الصفة الأولى في تقديم العين على الذال لضرب من التأليف في النغم نفسه التقديم والتأخير "(١).

وقال:" وليس يخفى على أحد السامعين أن تسمية الغُصن غصنًا أو فننًا أحسن من تسميته عُسلوجًا، وأن أغصان البان أحسنُ من عساليج الشوحظ في السمع. ويقال لمن عساه ينازعنا في ذلك: لو حضرك مغنيان وثوبان منقوشان مختلفان في المزاج هل كان يجوز عليك الطربُ على أحد المغنيين دون صاحبه، وتفضيلُ أحد الثوبين في حُسن المزاج على الآخر ؟ فإن قال: لا يصح أن يقع لي ذلك خرج عن جملة العقلاء، وأخبر عن نفسه بخلاف ما يجد، وإن اعترف بما ذكرناه قيل له: فخبرنا ما السبب الذي أوجب عليه ذلك ؟ فإنه لا يجد أمرًا يشير إليه إلاّ ما قلناه في تفضيل إحدى اللفظتين على الأخرى "(٢).

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٧٥.

وبذا يشير الخفاجي إلى عنصر " الذوق " حتى يجعله مقياسًا من مقاييس الفصاحة وهذا ما تناوله بعض العلماء وخاصة القزويني فقال في فصاحة المفرد: "هي خلوصه من ذكر الكراهة في السمع بأن تمج الكلمة ويتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة، فإن اللفظ من قبيل الأصوات، والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعها ومنها ما تكره سماعه "(١).

ونجد أن ابن الأثير قد أيد هذا القول حيث قال: " وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل لأحدهم إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة أنكر ذلك وقال كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنًا ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العسلوج، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسفنط، وبين لفظة السيف ولفظة الخنشليل، وبين لفظة الأسد ولفظة الفدوكس، فلا ينبغي أن يخاطب بخطاب ولا يجاوب بجواب بل يترك وشأنه، كما قيل اتركوا الجاهل بجهله، ولو ألقى الجعر في رحله، وما مثاله في هذا المقام إلا كمن يسوي بين صورة زنجية سوداء، مظلمة السواد، شوهاء الخلق ذات عين محمرة وشفة غليظة كأنها كلوة وشعر قطط كأنه زبيبة، وبين صورة رومية بيضاء مشربة بحمرة ذات خد أسيل وطرف كحيل ومبسم كأنها نظم من أقاح وطرة، كأنها ليل على صباح، فإذا كان بإنسان من سقم النظر أن يسوي بين هذه الصورة وهذه فلا يبعد أن يكون به من سقم الفكر أن يسوي بين هذه الألفاظ "(٢).

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة: محمد بن عبدالرحمن بن عمر أبو المعالي جلال الدين الخطيب القزويني، ت(٧٣٩هـ)، تحقيق: الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت –١٤١٩هـ–١٩٩٨م. الطبعة الرابعة ٨/١.

(٢) المثل السائر، ابن الأثير ١٥٦/١.

وابن سنان يرى أن هناك ما يعتمد على الذوق الأدبي ويحتكم فيما يذهب إليه كما قال: " والذوق يشهد بما قالوه ويقضي بصحته "[١] ولكنّ هناك نوعًا من الحسن لا يدركه الذوق ويصعب بيان وجه حسنه وجماله يقول " وقد يكون أن هذا التأليف المختار في اللفظة على جهة الاشتقاق فيحسن أيضًا كل ذلك لما قدمته من وقوعه على صفة يسبق العلم بقبحها أو حسنها من غير المعرفة بعلتها أو بسببها، ومثال ذلك قولُ أبي القاسم الحسين بن علي المغربي[٢] في بعض رسائله: " ورَغوا هشيمًا تأنفت روضُه "، فإنها " تأنفت " كلمة لإخفاء بحسنها، لوقوعها الموقع الذي ذكرته[٣].

وكذلك قول أبي الطيب المتنبي[٤]:

إذا سارتِ الأحداجُ[٥] فوقَ نباتِهِ … تفاوحَ مِسكُ الغانياتِ وَرَنْدُهُ[٦]

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان، ص٧٦.

(٢) الحسين بن علي المغربي هو الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن باذام بن ساعان بن يزدجرد ملك فارس، يكنى أبا القاسم، ويعرف بالوزير المغربي، كان من الدهاة، وتسبب في فتن كثيرة، كان سريع البديهة في النظم والنشر، ويشهد بفضله أبو العلاء المعري، ت(٤١٨هـ)، معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ص ١٦٢/١.
وفيات الأعيان، أبي بكر بن خلكان ١٧٢/١.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان، ص٧٦.

(٤) هو أحمد بن الحسين الجعفي الكندي الكوفي، يكنى أبا الطيب، ويعرف بالمتنبي، اشتغل بالأدب، ومهر فيه، وقد انقطع سنوات لمدح سيف الدولة، ثم هاجر إلى مصر، وسجن فيها وهرب من سجن كافور إلى فارس، فمدح عضد الدولة البيهقي، وفي أثناء عودته قتله فاتك الأسدي سنة ٣٥٤هـ. تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، ت(٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت ١٢٠/٤، وفيات الأعيان، ابن خلكان ١٢٠/١.

(٥) الأحداج: جمع حدوج وهو مركب من مراكب النساء. الرند: شجر طيب الريح يقال أنه الأسمى معنى البيت: مراكب هذه النسوة سارت فوق نبات الوادي وهو رند وقد استعملت المسك وتطين به واختلطت رائحة المسك برائحة الرند وذلك هو التفاوح " معجز أحمد، أبو العلاء المعري، ضمن ٣٨ سلسلة زخائر العرب ١٩٨٤م، ٣٨١/١.
شرح ديوان المتنبي، الشيخ ناصيف اليازجي، تقديم الدكتور ياسين الأيوبي، دار مكتبة الهلال ٢٥٨/٢.

(٦) ديوان المتنبي: ٢٥٨/٢.

فإنَّ "تفاوح" كلمةٌ في الغاية من الحسن وقد قيل إن أبا الطيب أولُ من نطق بها على هذا المثال، وإن وزير كافور الإخشيدي[١] سمع شاعرًا نظمها بعد أبي الطيب: فقال أخذتموها !

أما مثال ما يكره السمع فقولُ أبي الطيب:

مُباركُ الاسمِ أغرُ اللَّقب ْ كريمُ الجِرِشِيِّ[٢] شريفُ النسبْ[٣]

فإنك تجد في " الجِرِشِيِّ " تأليفًا يكرهه السمع وينبو عنه. ومثل ذلك قولُ زهير بن أبي سلمى"[٤].

نقــيٌ تقــيٌ لــم يُكثِــر غنيمــةً بنكهـةِ ذي قربـىَ ولا بِحَقلَّـدِ[٥]

" فالحَقَلَّد " كلمة توفى على قُبح الجرشي وتزيد عليها[٦].

---

(١) أبو المسك كافور بن عبد الله الإخشيدي كان عبدًا لبعض أهل مصر، كان يرغب في أهل الخير وكان أسود اللون اشتراه الإخشيد بثمانية عشر دينارًا، امتدحه المتنبي بأحسن المدائح، توفى سنة ست وخمسين وثلاثمائة بمصر وحمل إلى بيت المقدس ودفن بداره بمصر. وكتب على قبره يدوس قبرك أفناء الرجال وقد – كانت أسود الثرى تخشاك في الكتب.

انظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان ١٠٠/٤ وتاريخ مدينة دمشق، أبي القاسم علي بن هبة الله الشافعي، تحقيق: محي الدين العمري، دار الفكر، بيروت –١٩٩٥م، ٥٠/٦.

(٢) الجرشي: النفس، انظر: معجم مقاييس اللغة، أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت(٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت – لبنان – ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م، الطبعة الثانية ٤٤٣/١.

(٣) ديوان المتنبي ٢٣٥/٢.

(٤) هو زهير بن أبي سلمى، اسم أبي سلمى ربيعة بن رباح المزني، كان جاهليًا ولم يدرك الإسلام، وقد أدركه أبناءه فأسلمنا، وهو من فحول الشعراء نعته عمر بن الخطّاب بأنه أشعر الشعراء لأنه كان لا يعاظل في الكلام ويتجنب الوحشى، انظر: معاهدة التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم ابن أحمد العبّاس، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب ٣٠٧/٢.

(٥) ديوان زهير، دار صادر، بيروت، ص٢٤.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٧٧.

ونجد من العلماء من ذهب مذهب ابن سنان في قول زهير كما قال صاحب كتاب صبح الأعشى: " وقد أخذ الرواة على زهير في لفظة " الحلقد " فاستبشعوها، وقالوا: ليس في لفظ زهير أنكر منها وكذلك لفظ " الجرشي " في قول أبي الطيب في مدح سيف الدولة "(١).

" والجرشي: النفس وهو مبارك الاسم، لأنه اسمه على والعلو محبوب مبارك، وأغر اللقب: أي مشهور اللقب، لأنه إذا قيل سيف الدولة عرف في الآفاق، وهو كريم النفس، لأنه من العرب وآباؤه الأمراء "(٢).

---

(١) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القلقشندي أحمد بن علي بن أحمد الفزاري، ت(٨٢١هـ)، تحقيق: عبد القادر زكّار، دار النشر، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨١م، ٢/٢٣٨.

(٢) معجز أحمد، أبو العلاء أحمد بن سلمان المعري، ت(٤٤٩هـ)، ضمن سلسلة زخائر العرب ١٩٨٤م، ١/٣٦٧.

المطلب الثالث: الشرط الثالث:

أن تكون الكلمة غير متوعرة وحشية:

وذلك كقول أبي تمام(١):

لقد طَلَعَتْ فـي وجـهِ مصرَ بوجِهـهِ   بلا طائرٍ سعدٍ ولا طائرٍ كهلِ(٢)

فقال الخفاجي: فإن " كهلا " هاهنا من غريب اللغة وقد روى أن الأصمعي(٣) لم يعرف هذه الكلمة، وليست موجودة إلا في شعر بعض الهذليين، وهو قوله(٤):

فلـو كـان سلمىَ جـارَهُ أو أجَـارهُ   ريــاحُ بــنُ ســعدٍ ردهُ طـائرٌ كهـلُ(٥)

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائي، ولد بجاسم من أعمال دمشق، ونشأ بمصر، وقيل إنه كان يسقي الناس في مسجد عمرو بن العاص، وهو صاحب صنعة ومذهب، وهو شاعر مطبوع لطيف الفطنة دقيق المعاني، مات بالموصل عام ٢٣١هـ.
الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ت(٣٥٦هـ)، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر – لبنان ٤١٤/١٦. تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، ت(٤٦٣هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت ٢٤٨/٨.

(٢) ديوان أبي تمام ٢١٤/١.

(٣) هو عبد الله بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع يكنى أبا سعيد، ويعرف بالأصمعي نسبة إلى جده الأعلى، كان حجة في الأدب ولسان العرب، كما كان صاحب النحو واللغة، والغريب والأخبار، ت(٢١٥هـ). انظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ٤١٠/١٠، سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ١٧٥/١٠.

(٤) هو أبو خراش الهذلي هو خويلد بن مرة أبو خراش الهذلي شاعر مجيد من شعراء هذيل أدرك الجاهلية والإسلام فأسلم وعاش بعد رسول الله ﷺ حتى مات في خلافة عمر نهشته أفعى فمات. انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي أبو الفرج، دار صادر بيروت – ١٣٠٨هـ، الطبعة الأولى – ٢٩٩/٤– تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، شمس الدين الذهبي، ت(٧٤٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان – بيروت – ١٩٨٧م، الطبعة الأولى ٢٩٩/٣.

(٥) ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ–١٩٦٥م، ص١٦٥.

قيل: إن الكهل: الضخم، و " كهل " لفظة ليست بقبيحة التأليف، لكنها وحشية غريبة لا يعرفها مثل الأصمعي "(١).

قال ابن سنان: " ومن ذلك أيضًا ما يُروى عن أبي علقمة النحوي(٢) من قوله: ما لكم تتكأكئون عليَّ تكأكؤكُمْ على ذي جِنة افرنقعوا عني، لأن " تتكأكئون " و " افرنقعوا " وحشيٌ، وقد جمع لعمري العلتين مع قبح التأليف الذي يمجه السمع، والتوعر "(٣).

ونجد ما يؤكد صحة شروط ابن سنان التي اشترطها وملائمتها مع حذاق الشعراء.

قوله: " ولهذا كله اعتمد الحذاق من الشعراء على اختيار أسماء المنازل والنساء في الغزل، وتجنبوا ما لا يحسن لفظه للشروط التي ذكرناها وعابوا قول ابن عطية "(٤).

وتقولُ بوزَعُ قد دببتَ على العَصَا ... هلا هَزِئْتِ بغيرِنا يا بوزعُ

وذكروا أن الوليد ابن عبد الملك(٥) قال له: أفسدت شعرك ببوزع "(٦).

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان، ص٧٨.

(٢) أبو علقمة ذكره ياقوت في معجم الأدباء وقال: أبو علقمة النحوي النميري وأراه من أهل واسط. كان لا يدع الإغراب في كلامه.
معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٢٤/١-٥٣٠.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٧٨.

(٤) ابن عطية، هو جرير بن عطية بن حذيفة، يكنى أبا حزرة، وهو من بني كلب بن يربوع كان أكثر فنون شعر، وأسهل ألفاظًا، وأقل تكلفًا، وأقل نسيبًا من الفرزدق والأخطل وكان دينًا عفيفًا كان من فحول الشعراء في الإسلام، ت(١١٠هـ).
وفيات الأعيان، ابن خلكان، ٣٢١/١، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ٥/٨.

(٥) هو أبو العباس الوليد بن عبد الملك، وهو السادس من ملوك بني أمية، بويع بالخلافة بعد وفات والده، تزوج من أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان، بنى جامع بني أمية، توفي قبل وفاة الحجاج بن يوسف بتسعة أشهر وكانت وفاته بدمشق سنة ست وتسعين وقد بلغ من العمر ثمانيًا وأربعين سنة.
انظر الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٥/٢، صبح الأعشى، القلقشندي بن أحمد الفزاري ٦٣/٢، المعارف، ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، تحقيق: دكتور ثروت عكاشة، دار المعارف، ٨٢١.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان، ص٨١.

وهجَّنوا اتِّباع الخليل[١] بن أحمد له في هذا الاسم حين قال:

امُ البنـــــــينَ وأســـــــماءُ   والرَّبـــــــابُ وَيَــــــــوزعُ

ومن هذا عابوا أيضًا قول العجاج[٢]:

وَفاحِمًا وَمَرسِنًا مُسرَجا

وذلـك لخفـاء دلالـة لفظـة " مسـرج " وقـال ابـن سـنان: " فـإن " المرسِـن " الأنـف، و" المسَّـرج " لا يعـرف حتـى خُـرِّج لـه أنـه أراد بالمسـرج المحـدِد مـن قـولهم للسـيوف: "السريجيات" منسوبة إلى قين يُعرف بسريج، وهذا القصد على ما تراه وحش غريب"[٣].

فسـر ابـن سـنان مـراد الشـعراء فـي الإتيـان بـالغريـب الوحشـي فـي إشـعارهم بـأنهم أرادوا الإغراب حتى يتساوى في الجهل بكلامهم العامةُ وأكثرُ الخاصة ولكن هذا من أقبح ما وقع لهم.

وقال: " وقد رأيتُ أنا جماعةً يتعمدون هذا فقلت لهم: إن سُررتم بمعرفتكم وحشيِّ اللغة فيجب أن تغتموا بسوء حظكم من البلاغة وجرى بين أصحابنا في بعض الأيام ذكر شيخنا أبي العلاء ابن سليمان فوصفه واصف من الجماعة بالفصاحة.

---

(١) الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، يكنى أبا عبد الرحمن، كان رأسًا في لسان العرب دينًا ورعًا، قانعًا، متواضعًا، كبير الشأن، وكان ذكيًا فطنًا، استنبط من العروض ومن قواعد النحو ما لم يسبقه إليه أحد، ت(١٧٠هـ).
الفهرست، محمد بن إسحاق أبو الفرج بن النديم، دار المعرفة –بيروت – ١٣٩٨هـ–١٩٧٨م، ٦٦/١.
معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٣٠١/٣. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بن خلكان، ٢٤٤/٢.
سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي، ٤٢٩/٧.

(٢) هو عبد الله بن رؤبة بن لبيد بن بني مالك بن سعد بن زيد مناة بن تميم، يكنى أبا الشعثاء ولقب العجاج ببيت قاله، وهو أول من رفع الرجز، وشبهه بالقصيد، وجعل له أوائل ووصف الديار وهو من مخضرمي الدولتين مدح بني أمية وبني العبّاس ومات في أيام المنصور. الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ٣٥٩/٢٠ – معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ٣٢١/٣. طبقات فحول الشعراء، الطبقة التاسعة، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني ٧٣٨/٢.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٨٦.

واستدل على ذلك بأن كلامه غير مفهوم لكثير من الأدباء فعجبنا من دليله وإن كنا لم نخالفه في المذهب، وقلت له إن كانت الفصاحة عندك بالألفاظ التي يتعذر فهمها فقد عدلت عن الأصل المقصود أولاً بالفصاحة، التي هي البيان والظهور، ووجب عندك أن يكون الأخرس أفصح من المتكلم، لأن الفهم من إشاراته بعيد عسير، وأنت تقول كلما كان أغمض وأخفى كان أبلغ وأفصح.

وعارضه أبو العلاء[١] صاعد بن عيسى الكاتب وقال: " صدقت إننا لا نفهم عنه كثيرًا مما يقول إلا أنه على قياس قولك يجب أن يكون ميمون الزنجي الذي نعرفه أفصح من أبي العلاء لأنه يقول ما لا نفهمه نحن ولا أبو العلاء فأمسك "[٢] ومما يؤيد ما ذهب إليه الخفاجي ما قاله ابن رشيق، الذي نادى باستقباحه للوحشي الذي ينفر منه السمع " قال إبراهيم[٣] بن المهدي لعبد الله[٤] بن صاعد كاتبه: إياك وتتبع الوحشي من الكلام طمعًا في نيل البلاغة، فإن ذلك هي العي الأكبر، عليك بما سهل مع تجنبك ألفاظ السُفَّل "[٥].

---

(١) هو أبو العلاء صاعد بن عيسى بن سمان النصراني، كان كاتبًا من بلاد الروم وكان نصرانيًا كان كاتب الأمير محمود بن نصر بن صالح بن مرداس أمير حلب.
زبدة الحلب في تاريخ حلب، ابن العديم ٨/١، ٥٠، بغية الطلب في تاريخ حلب، أحمد بن جرادة ١٠١٨/٢.

(٢) سر الفصاحة بن سنان الخفاجي، ص٨٧.

(٣) إبراهيم بن المهدي بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس بن عبد المطلب أول نابغ نبغ من بني العبّاس ثم من أولاد الخلفاء له ترسل وشعر وصنف كتبًا، وأمه ثكلة أصلها من طبرسان وقيل إنها ابنة ملك طبرسان، وكان أسود حلك السواد، لم ير في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه ولا أشعر منه وله من الكتب كتاب أدب إبراهيم، كتاب الطب، كتاب الغنا، ت(٢٢٤هـ).
الفهرست، محمد بن اسحق أبو الفرج بن النديم، ١٦٨/١.
تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، أحمد بن عثمان الذهبي، ١٥/١٦.

(٤) عبد الله بن صاعد بن محمد مولى أبي جعفر المنصور وهو عم يحيى بن محمد بن صاعد وكاتب إبراهيم بن المهدي، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٣٠٨/٤.

(٥) العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، الإمام أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، ت(٤٦٣هـ)، تحقيق: الدكتور عفيف نايف حاطوم، دار صادر بيروت – الطبعة الأولى – ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، ٥١٨/٢.

ونجد صاحب الصناعتين قد أدلى بدلوه في غرابة المعنى ووحشي الكلام فقال: "وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد ويستفصحونه إذا وجدوا ألفاظه كذة غليظة وجاسية غريبة ويستحقدون الكلام إذا رآوه سلسًا عذبًا وسهلاً حلوًا، ولم يعلموا أن السهل أمنع جانبًا وأعز مطلبًا وهو أحسن موقعًا وأعذب مستمعًا، ولهذا قيل أجود الكلام السهل الممتنع "[١].

ومما يلحقه الخفاجي بالغريب الوحشي أيضًا أن يذكر بعض الأسماء المستقبحة في الشعر حيث قال: " ولا أحبُ أيضًا تسمية أبي تمّام صاحبه " عُلاثة " ونداءه بالترخيم في قوله:

قِفْ بالطُّلُولِ الدارساتِ عُلاَثا   أضحَتْ جبالُ قَطِينْهِنَّ رِثَاثَا[٢]

وإن كان الروىَ قاده إلى ذلك، فليت شعري من حظر عليه القوافي واقتصر به على الثاء دون غيرها من الحروف، وليس يؤثر منه إلا الشعرُ الحسن على أقرب الوجوه وأسهل السبل دون ما يتكلف المشقة في نظمه، والعناء في تأليفه، وليس يُغفر للشاعر لأجل ما يُلزم به نفسه ذنبٌ، ولا يُغفل له عن خطاءٍ إذ كان حظر المباح، وحرّم الحلال، واعتمد تكلف النَصَب طوعًا واختيارًا وهوىً وقصدًا، لكنه – لعمري – إن أتانا بالسليم من الزلل، البعيد من التكلف والخطل، وكان كذلك في مأخذ صعب، ومسلك وعرٍ حمدناه الحمدَ الكامل ووصفناه الوصف التام[٣].

---

(١) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري ٦٠/١.
(٢) ديوان أبي تمّام ٢٢٠/١.
(٣) سر الفصاحة بن سنان الخفاجي، ص٨٨.

ورأى الخفاجي أن البدويُ صاحب الطبع في هذا الفن أعذر من القروي المتكلف، لأنه هذا لا يعرف هذه الألفاظ إلا بعد البحث والطلب وتجشم العناء في التصفح، وعلى قدر ذلك يجب لومُه والإنكار عليه "[١] ولعلماء البلاغة أيضًا أقوال في الغريب الوحشي ومنهم ابن الأثير قال: " إن الوحشي قد خفي على جماعة من المنتمين إلى صناعة النظم والنثر وظنوه المستقبح من الألفاظ وليس كذلك، بل الوحشي ينقسم قسمين أحدهما: غريب حسن، والآخر: غريب قبيح ... وإن الغريب الحسن يختلف باختلاف النسب والإضافات، وأما القسم الآخر من الوحشي الذي هو قبيح فإن الناس في استقباحه سواء ولا يختلف فيه عربي بادٍ ولا قروي متحضر "[٢].

أما صاحب نقد الشعر فقال: " وهذا الباب مجوز للقدماء ليس من أجل أنه حسن، ولكن لأن شعراءهم من كان أعرابيًا قد غلبت عليه العجرفية، وللحاجة أيضًا إلى الاستشهاد بأشعارهم في الغريب، ولأن من كان يأتي منهم بالوحشي لم يكن يأتي به على جهة التطلب له، والتكلف لما يستعمله منه، لكن لعادته وعلى سجية لفظه، فأما أصحاب التكلف لذلك، فهم يأتون منه بما ينافر الطبع وينبو عنه السمع "[٣].

قال القرطاجني: " ونجد الواجب على الشاعر أن يتجنب من هذا ما توغل في الوحشية والغرابة ما استطاع، حتى تكون دلالته على المعاني واضحة، وعبارته مستعذبة، ومتى لذَّه إلى شيء من ذلك اضطرار وأمكنه أن يقرن باللفظة ما يهتدي به إلى معناها من غير أن يكون ذلك حشوًا كان الأمر في ذلك أشبه "[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص٩٠.

(٢) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير ١٦١/١.

(٣) نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد، ت(٣٣٧هـ)، ٣١/١.

(٤) منهاج البلغاء وسراج الأدباء، أبو الحسن حازم بن محمد القرطاجني، ت(٦٨٤هـ)، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٨٥/١.

ومن الألفاظ العامية قول زهير بن أبي سلمى[١] في قصيدته المختارة:

فأقسمتُ جَهداً بالمنازلِ من منىً ... وما سُحِفَتْ فيهِ المَقَادِمُ والقَمِلُ[٢]

فإن القمل من الألفاظ التي تجرى هذا المجرى.

وقول أبي تمّام[٣]:

قد قُلتُ لما لجَّ في صدِّهِ ... إعطِفْ على عَبدِكَ يا قابِري[٤]

وقال: قابري في غاية السخافة لأنها من ألفاظ عوام النساء وأشباههن[٥].

ونرى أن ابن سنان لا يجد العذر لمن يأتي بالألفاظ المبتذلة القبيحة يقول: "وليس لأحد أن يتخيل أن العذر في إيراد هذه الألفاظ وأمثالها تعذر ما يقع موقعها في النظم، كما يظن بعض المتخلفين في هذه الصناعة، وذلك أنه ليس يجب على الإنسان أن يكون شاعرًا ولا كاتبًا، ولا صاحب كلام يؤثر ولفظ يروى، ولا يجب عليه، لو وجب هذا أن ينظم ذلك القصيدة التي وردت فيها هذه اللفظة ولا البيت من القصيدة فكيف نعذره إذا أورد لفظة قبيحة جارية مجرى ما ذكرناه وهو قادر على حذف البيت كله وإطراح ذكر جميعه إن لم يكن قادرًا على تبديل كلمة منه "[٦].

---

(١) زهير بن أبي سلمى سبق ترجمته ص ٤٠

(٢) ديوان زهير، دار صادر بيروت، ص٥٨.

(٣) سبق ترجمته ص ١٧

(٤) ديوان أبي تمّام ٥٣٥/١.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٩٤.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٩٤.

المطلب الرابع: الشرط الرابع:

أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية[(١)]:

قال ابن سنان: " والرابع أن تكون الكلمة غير ساقطة عامية كما قال[(٢)] أبو عثمان الجاحظ". ومثال ذلك قول أبي تمّام[(٣)]:

جلَّيتَ والموتُ مُبْدٍ حُرَّ صفحتِهِ   وقد تفرعنَ في أفعالِهِ الأجلُ[(٤)]

فإن " تفرعن " مشتقٌ من اسم فرعون، وهو من ألفاظ العامة، وعادتهم أن يقولوا: تفرعَنَ فلان، إذا وصفوه بالجبريَّة "[(٥)].

وما قاله ابن سنان قال به من قبل الآمدي ناقدًا لأبي تمّام حيث قال: " وقد تفرعن في أفعاله الأجل " معنى في غاية الركاكة والسخافة وهو من ألفاظ العامة "[(٦)].

ونجد ضياء الدين ابن الأثير قد اشترط هذا الشرط أيضًا لفصاحة اللفظة المفردة، فرأى أنه من أوصاف الكلمة ألا تكون مبتذلة بين العامة وذلك ينقسم إلى قسمين:

الأول: ما كان من الألفاظ دالاً على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته العامة، وجعلته دالاً على معنى آخر وهو ضربان: الأول ما يكره ذكره كقول أبي الطيب "[(٧)].

أذاق الغواني حسنُه ما أذاقني   وعفَّ فجازاهن عني بالصَّرمِ[(٨)]

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٩٠.

(٢) البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ ١/١٣٧، ١٤٤.

(٣) سبق ترجمته ص ١٧

(٤) ديوان أبي تمّام ١/٦.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٩١.

(٦) الموازنة بين شعر أبي تمّام والبحتري، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، ت(٣٧٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله حمد محارب، دار مكتبة الخانجي، القاهرة، جـ٣، القسم الأول، الطبعة الأولى - ١٤١٠هـ-١٩٩٠م، ٣/٧٩.

(٧) سبق ترجمته ص٣٩

(٨) ديوان أبي الطيب المتنبي ١/٦٨.

فإن لفظة الصرم في وضع اللغة هو القطع يقال: صرمه إذا قطعه فغيرتها العامة وجعلتها دالة على المحل المخصوص من الحيوان دون غيره فأبدلوا السين صادًا، ومن أجل ذلك كُرِه استعمال هذه اللفظة وما جرى مجراها، لكن المكروه منها ما يستعمل على صيغة الأسمية كما جاءت في هذا البيت، وأما إذا استعملت على صيغة الفعل كقولنا: صرمة، وصرمته، وتصرمه، فإنها لا تكون كريهة لأن استعمال العامة لا يدخل في ذلك وهذا الضرب المشار إليه لا يعاب البدوي على استعماله كما يعاب المتحضر، لأن البدوي لم تتغير الألفاظ في زمنه ولا تصرفت العامة فيها كما تصرفت في زمن المتحضرة من الشعراء فمن أجل ذلك عيب استعمال لفظة الصرم، وما جرى مجراها على الشاعر المتحضر ولم يعب على الشاعر المبتدئ ألا ترى إلى قول أبي صخر الهذلي[(١)]:

قد كان صرمٌ في المماتِ لنا ... فعجِلتَ قبلَ الموتِ بالصُرمِ[(٢)]

فإن هذا لا يعاب على صخر كما عيب على المتنبي قوله.

---

(١) الشاعر هو عبد الله بن سلمة السهمي، من بني هذيل بن مدركة، كان مواليًا للأمويين، شديد العصبية لهم، وله في عبد الملك بن مروان، وأخيه عبد العزيز مدائح كثيرة، وقضى في حبس عبد الله بن الزبير عامًا، وأطلقه بشفاعة رجال قريش، وكان له ابن يدّعى "داود" فمات فجزع عليه جزعًا شديدًا، ت(٨٠هـ)، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ٩٨/٢٤، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي، ت(١٠٩٣هـ)، تحقيق: محمد نبيل طريفي، أميل بديع اليعقوب، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٨م، الطبعة الأولى ٢٤٥/٣.

(٢) ديوان أبي صخر الهذلي، تأليف الدكتور عبد الجواد الطيب، منشورات جامعة الفاتح، ١٩٨١م، ص٧٨.

شرح البيت: فقال يعتب عليها: قد كان لنا في الموت قطيعة وافتراق،' ولكنك لم تصبري وقوعه، ولم تنتظري نزوله، فتعجلت الصرم قبل الموت.

انظر: شرح الديوان، لأبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي، ت(٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة ٣٧٩/١.

أما الضرب الثاني: وهو أنه وضع في أصل اللغة لمعنى فجعلته العامة دالاً على غيره إلا أنه ليس بمستقبح ولا مستكره وذلك كتسميتهم الإنسان ظريفًا إذا كان دمث الأخلاق حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا سبيله، والظرف في أصل اللغات مختص بالنطق فقط، والقسم الثاني: مما ابتذله العامة وهو الذي لم تغيره عن وصفه وإنما أُنكر استعماله لأنه مبتذل بينهم لا لأنه متقبح، ولا لأنه مخالف لما وضع له، وفي هذا القسم نظر عندي لأنه إن كان عبارة عمّا يكثر تداوله بين العامة فإن من الكثير المتداول بينهم ألفاظًا فصيحة كالسماء، والأرض، والنار، والماء، والحجر وأشباه ذلك، وقد نطق بها القرآن الكريم في مواضع كثيرة منه وجاءت في كلام الفصحاء نظمًا ونثرًا والذي ترجح في نظري أن المراد بالمبتذل من هذا القسم إنما هو الألفاظ السخيفة الضعيفة سواء تداولها العامة أو الخاصة "[١].

المطلب الخامس: الشرط الخامس:

أن تكون الكلمةُ جاريةً على العرف العربي الصحيح غير شاذة:

في هذا الشرط وضع ابن سنان من المقاييس اللغوية والنحوية وقال:" أن في هذا القسم يدخل كل ما ينكره أهلُ اللغة، ويرده علماءُ النحو من التصرف الفاسد في الكلمة.

١/ قد يكون ذلك لأجل أن اللفظة بعينها غير عربية، كما أنكروا على أبي الشيص[٢] قوله:

وَجَنَاحِ مقصُوصٍ تَحيَّفَ ريشَهُ ... ريبُ الزمانِ تحَيُّفَ المِقرَاضِ[١]

---

(١) المثل السائر، ابن الأثير ١٨٤/١.

(٢) الشاعر محمد بن عبد الله بن رزين، يكنى أبا جعفر، ولقبه أبو الشيص، واشتهر به، وهو عم دعبل بن الخزاعي، وكان متوسط المحل بين شعراء عصره، لوقوعه بين مسلم بن الوليد وأبي نواس، وقد انقطع لمدح أمير الرقة عقبة بن جعفر، فمدحه بأكثر شعره، ت(١٩٦هـ)، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ٤٠١/٥ الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ٤٣٢/١٦، معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العبّاس. تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار عالم الكتب – بيروت ١٣٦٧هـ-١٩٤٧م ١٩٠/٢.

وقالوا: ليس " المقراض " من كلام العرب.

وتبعه أبو عبادة[٢] فقال:

وأبَتْ تركِيَ الغُدَيَّاتُ والآصالُ حتى خَضَبْتُ بالمِقْراضِ[٣]

فعابوه عليهما معًا.

٢/ وقد تكون الكلمة عربيّةً إلا أنها قد عُبر بها عن غير ما وضعت له في عرف اللغة كما قال أبو تمام[٤]:

حَلتْ مَحَلَ البكرِ من مُعْطًى وقد زُفَّتْ من المُعطي زِفافَ الأيِمِ[٥]

وقال أبو عبادة:

تشقُ عليه الريحُ كُلَ عشيةٍ جُيُوبَ الغَمامِ بين بكرٍ وأيمِ[٦]

(١) البيت ضمن قصيدة طويلة لأبي الشيص.

والمقراض: من قرض: قرضتُ الشيء قرضًا من باب ضرب، قطعته بالمقراضين والمعراض بكسر الميم والجمع مقاريض ولا يقال إذا جمعت بينها مقراضٌ كما تقول العامة وإنما يقال عند اجتماعهما قرضته بالمقراضين. انظر المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد ابن علي المقري الفيومي الرافعي، دار المكتبة العلمية، بيروت ٤٩٧/٢.

(٢) هو الوليد بن عبيد أبو عبادة الطائي البحتري من أهل منبج ولد بها سنة ست ومأتين ونشأ بها وتأدب وخرج منها إلى العراق فمدح جعفر المتوكل على الله وخلقًا كثيرًا من الأكابر والرؤساء، أقام ببغداد طويلاً ثم عاد إلى بلده فمات بحلب في أول سنة خمس وثمانين ومأتين – انظر تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٢٨٠/٣.

(٣) ديوان البحتري ٧٦/١.

(٤) أبو تمام سبق ترجمته ص ١٨

(٥) ديوان أبو تمّام ٢٧١/١.

(٦) ديوان البحتري ١٩٤٥/٣.

فوضعا " الأيم " مكان الثيب، وليس الأمر كذلك، ليس الأيم الثيب في كلام العرب، إنما الأيم التي لا زوج لها، بكرًا كانت أو ثيبًا "[١].

وقال الآمدي: " هذا غلط، لأنه ظن أن الأيم هي الثَّيب، كما غلط في مثله أبو تمام، والأيم هي التي لا زوج لها بكرًا كانت أو ثيبًا "[٢].

ورأى ابن الأثير أن جريان اللفظة على العرف العربي ليس مما يوجب لها حسنًا ولا قُبْحاً وإنما يقدح في معرفة مستعملها بما ينقله من الألفاظ، فكيف يعد ذلك من جملة الأوصاف الحسنة[٣].

وأيضًا عاب صاحب الموازنة على البحتري عندما قال:

شَرْطِيَ الإنصَافُ إن قِيلَ اشتَرِط   وصـدِيقي مَـنْ إذا صـافى قَسَـطْ[٤]

وكان يجب أن يقول " أقسط " أي أعدل، وقسط – بغير ألف – معناه جار، قال الله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً** ﴾[٥] وقال: ﴿ **إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾[٦].

وذلك ما نقله الخفاجي. وقال في ذلك: وأراد بقسط عدل لأن الأمر عليه وليس الأمر كذلك وإنما يقال أقسط إذا "عَدَل" و " قسط " إذا " جار "[٧].

وذهب إلى أنه قد يكون ما ذكره على جهة الحذف من الكلمة كما قال رؤبة[١].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٩٨.

(٢) الموازنة، أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي، ت(٣٧٠هـ)، تحقيق الدكتور عبد الله حمد محارب، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٦٤/٣.

(٣) المثل السائر، ابن الأثير ١٦٠/١.

(٤) ديوان البحتري، دار صادر بيروت ٣٧٨/٢.

(٥) سورة الجن، الآية (١٥).

(٦) سورة المائدة، الآية (٤٢).

انظر الموازنة، الآمدي ٨٢/١.

(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٠٠.

قواطنـا مكـةَ مـن وُرْقِ الحَمـا

يريد الحمام

وقول خفاف بن ندية[٢]:

كنـواحِ ريـشِ حمامـةٍ نجديـةٍ   وَمَسَحْتَ باللثَتَين عصفَ الإثْمِدِ

يريد كنواحي[٣].

قد يكون على وجه الزيادة في الكلمة، مثل أن تُشبع الحركة بها فتصير حرفًا: كما قال الشاعر[٤]:

---

(١) البيت للعجاج وليس لرؤبة وذلك في كل من تهذيب اللغة، تأليف: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت – ٢٠٠١م، الطبعة الأولى ٣٨٤/١٥.
الكتاب سيبويه، ت(١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة، مكتبة المدني ١٩٨٨م، ٢٦/١. الأمالي في لغة العرب، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، ت(٣٥٦هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، ٢٠٢/٢.
والعجاج هو عبد الله بن رؤبة بن لبيد من بني مالك بن سعد بن مناة بن تميم، يكنى أبا الشعثاء، ولقب بالعجاج ببيت قاله، وهو أول من رفع الرجز، وشبهه بالقصيد، وجعل له أوائل، وذكر الديار ووصف ما فيها، وبكى على الشباب، كما صنعت الشعراء في القصيد.
انظر طبقات بن سلام، ابن سلام الجمحي ٧٣٨/٢.

(٢) هو خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمي، يكنى أبا خراشة، وأمه " ندبة " بفتح النون وضمها سوداء، وإليها ينسب، وهو من أغربة العرب، وهو ابن عم الخنساء، وهو شاعر من شعراء الجاهلية، وفارس من فرسانهم، أسلم وعاش إلى زمن عمر بن الخطَّاب.
الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ٣٢٢/٢، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبدالبر، ت(٤٦٣هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل – بيروت- ١٤١٤هـ- الطبعة الأولى ٤٥٠/٢.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٠١.

(٤) الشاعر إبراهيم بن علي بن سلمة بن عامر بن هرمة الكناني القرشي يكنى أبا اسحاق، عاش في الدولتين الأموية والعباسية، انقطع إلى الطالبين، وله فيهم أشعار كثيرة، وكان غذلاً ومولعًا بالشراب، وقد جلده صاحب شرطة المدينة لذلك ت(١٧٦هـ).

=

وأنتَ على الغَوايةِ حينَ تُرْمَى   وعَنْ عيبِ الرجالِ بِمُنتَزَاحِ

أي بمنتزح.

٣/إيراد الكلمةُ على الوجه الشاذ القليل: قد استقبحه الخفاجي قائلاً: وهو أردأُ اللغات فيها لشذوذه، والكثير أبدًا خفيف، كما يقول النحويون في خفة الأسماء لكثرتها، ومن هذا قول البحتري[١]:

متحيرينَ فباهِتٌ مُتَعَجِبٌ   مما يرى أو ناظِرٌ متأملُ[٢]

فقوله: " باهت " لغة رديئة شاذة، والعربيُّ المستعملُ بُهت الرجلُ يُبهت فهو مبهوت[٣].

ومنه قول المتنبي[٤]:

وإذا الفتى طرحَ الكلامَ معرضًا   في مجلسٍ أخذَ الكلامَ اللذ عَنَا[٥]

فقوله اللذ في الذي لغة شاذة قليلة[٦].

٤/قد يكون بخلاف الصيغة في الجمع أو غيره: كما قال الطرماح[١]:

الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ٣٦١/٤، تاريخ بغداد، أبو بكر الخطيب البغدادي ١٢٨/٦. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي، ت(٨٧٤هـ)، دار وزارة الثقافة والإرشاد القومي – مصر ٨٤/٢.

(١) أبو عبادة البحتري سبق ترجمته، ص52

(٢) ديوان البحتري، دار صادر، بيروت ٣١/١.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٠٥.

(٤) أبو الطيب المتنبي سبق ترجمته، ص39

(٥) ديوان المتنبي1 /٥٤

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٠٥.

وأكـرهُ أن يَعيْـبَ علـيَّ قَـومِي هِجـائِي الأرذلـينَ ذَوِي الحِنـاتِ[٢]

والشاهد أنه جمع "إحنة" على غير الجمع الصحيح، لأنها "إحنةٌ وإِحنٌ، ولا يقال "حنات".

ونجد أن العلماء قد عابوا ما جاء من الطرماح ورُوي أن عبد الملك بن قريب الأصمعي[٣] قال: كنا نظن أن الطرماح شيء حتى سمعنا قوله هذا[٤].

٥/إظهار التضعيف في الكلمة: مثل قول الشاعر[٥]:

مهلاً أعاذِلَ قد جرَّبتِ من خُلُقِي أنـي أجـودُ لأقـوامٍ وإن ضَـنِنُوا

٦/صرف ما لا ينصرف: كقول حسّان بن ثابت[٦]:

---

(١) هو الطرماح بن حكيم، من طي، ويكنى أبا نفر، وهو من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم، وكان صديقًا لكميت، لا يكاد يفارقه على الرغم من اختلاف المذهب، فقد كان قحطانيًا خارجيًا، وكان الكميت شيعيًا وكان طويل القامة وقيل إنه كان يلقب بالطراح وهو ابن أخ القعقاع ابن قيس الطائي وجده قيس بن جحدر الطائي.
الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٤٢/١٢، الكامل في التاريخ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد ابن محمد بن عبد الكريم الشيباني، تحقيق عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت – ١٤١٥هـ- الطبعة الثانية ٢١٥/٣، الوافي بالوفيات، ابن أيبك الصفدي ٢٤٥/١٦، المعارف، ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، تحقيق: دكتور ثروت عكاشة، دار المعارف ٤٢٢/١.

(٢) ديوان الطرماح، تحقيق، الدكتور عزة حسن، إحياء التراث القديم، دمشق – ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م، ص٣٥.

(٣) هو عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع، يكنى أبا سعيد ويعرف بالأصمعي نسبة إلى جده الأعلى، كان حجة في الأدب ولسان العرب كما كان صاحب النحو واللغة والغريب والأخبار، توفي بالبصرة ٢١٣هـ، وله من الكتب كتاب خلق الإنسان وكتاب الأجناس، كتاب الأنواء، إلى جانب مجموعة كبيرة من الكتب.
الفهرست، أبو الفرج النديم، ص٦٠، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٤١٠/١٠.
سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ١٧٥/١٠.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٠٦.

(٥) جاء في كتاب سيبويه ينسب البيت إلى قعنب بن أم صاحب ٢٩/١، ٥٣٥/٣، والصناعتين، أبو هلال العسكري ١٥٠/١.

(٦) حسّان بن ثابت بن المنذر الأنصاري، يكنى أبا الوليد، وأبا الحسام، وأبا عبدالرحمن، دافع عن النبي ﷺ خير دفاع، وكان الرسول ﷺ قد نصب له منبرًا يلقي فوقه الشعر، وكان أشعر شعراء العربية وكان من المعمرين وقيل أنه عاش ١٢٠ سنة – طبقات ابن سلام الجمحي ٢١٥/١، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٤١/٤، الشعر والشعراء، محمد
=

وجبريـــلٌ أمـــينُ اللهِ فِيْنَـــا وروُحُ القُدسِ ليس لـهُ كِفَـاءُ[(١)]

٧/ومنع الصرف مما ينصرف: كما أنشدوا قول العبَّاس بن مرداس[(٢)]:

ومـا كـان حِصـنٌ ولا حـابسٌ يفُوقَـانِ مِـرْدَاسَ فـي مَجْمَـعِ[(٣)]

وكما قال البحتري[(٤)]:

هَرِجُ الصهيلِ كأنَّ في نَغَماتِهِ نبَـرَاتِ مَعْبَـدَ فـي الثقِيـلِ الأوَّلِ

فمنعنا الصرف عن " مرداسٍ " و " معبد "[(٥)].

٨/ أن يبدل حرفُ من حروف الكلمة بغيره: كما قال الشاعر[(٦)]:

لهـا أشـاريرُ مـن لحـمٍ تُتَمِّـرُهُ من الثَّعَـالِي ووخزٌ من أرانِيهَا

يريد الثعالب وأرنابها.

بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة، ت(٢٧٦هـ)، دار إحياء علوم الدين، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية – ١٩٨٦م، ٣٠٥/١.

(١) ديوان حسّان بن ثابت الأنصاري، دار صادر، بيروت، ص٨.

(٢) العبّاس بن مرداس السلمي – ومرداس: الحصاة التي يُومي بها في البئر ليظهر فيها ماء أولاً – يكنى أبا الهيثم، أو أبا الفضل، وهو أحد فرسان الجاهلية وشعرائهم، وأمه الخنساء الشاعرة، ووفد على النبي ﷺ، وكان من المؤلفة قلوبهم. كان فارسًا شديد العارضة والبيان سيدًا في قومه، وهو مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام، ت(٦٣٩هـ)، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٢٩٤/١٤، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، بن عمر البغدادي ٤١٤/١، العقد الفريد: أحمد بن محمد الأندلس ابن عبد ربه، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة ٣١٣/٣، المعارف: ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، تحقيق: دكتور ثروت عكاشة، دار المعارف ٣٣٦/١.

(٣) ديوان العباس بن مرداس، تحقيق، دكتور يحيى الجبّوري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩١م، ص١١٢.

(٤) ديوان البحتري، دار صادر، بيروت، ص٤٥

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٠٩.

(٦) قال سيبويه في الكتاب ٢٧٢/٢ وهو رجل من بني يشكر وليس في ديوانه وقال عن البيت أن الشاعر لما اضطر إلى الياء أبدلها مكان الباء كما يبدلها مكان الهمزة انظر: العقد الفريد، أحمد ابن محمد بن عبد ربه الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان -١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، الطبعة الثالثة ٣١٦/٥، الصناعتين، أبو هلال العسكري ١٥١/١.

وقال آخر[١]:

ومنهـلٍ لـيس لـه حـوازِقُ ... ولِضـفَادي جَمِّـهِ نَقَـانِقُ

يريد ولضفادع[٢].

٩/وقَصرُ الممدود كقول الآخر[٣]:

والقـارِحَ العَـدَّا وكـلَ طِمِـرَّةٍ ... ما إن تَنَالُ يَدُ الطويلِ قَذَالَهَا[٤]

١٠/ومَدُ المقصور، على ما روى بعضهم:

سَـيُغْنيني الـذي أغنـاكَ عنِـي ... فـلا فقـرٌ يَـدوُمُ ولا غِنَـاءُ[١]

---

(١) في هامش كتاب سيبويه ٢٧٣/٢: " هو مصنوع لخلف الأحمر ".

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٠٨.

(٣) الأعشى وهو أعشى وائل وهو ميمون بن قيس بن جندل بن شراحبيل بن عوف بن سعد بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة، وكان يقال لأبيه قيس بن جندل قتيل الجوع سمي بذلك لأنه دخل غارًا يستظل فيه من الحر فوقعت صخرة عظيمة من الجبل فسدت فم الغار فمات فيه جوعًا، أدرك الأعشى الإسلام ولم يسلم، وكنيته أبو بصير وهو أحد أعلام الجاهلية وفحولها.
الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٢٧/٩، تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح اليعقوبي، دار صادر – بيروت ٢٦٢/١.
طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي ٥٢/١.
لحماسة المغربية، صدر الدين علي بن الحسن البصري، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت- ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، ١٢/١، خزانة الأدب، الحموي ١٨١/١.
الزاهر في معاني كلمات الناس، أبو بكر بن القاسم الأنباري، تحقيق: دكتور حاتم صالح الضامن، دار مؤسسة الرسالة، بيروت-١٤١٢هـ-١٩٩٢م، الطبعة الأولى ٩/١.
معاهد التنصيص، ابن أحمد العباس، ١١٦/١.

(٤) ديوان الأعشى، شرح وتقديم، دكتور: يحيى شامي، دار الفكر العربي، بيروت-لبنان، ص١٧٥.

١١/وحذفُ الإعراب للضرورة: مثل قول امرئ القيس[٢]:

اليومَ أشربْ غيرَ مُستحقِبٍ إثماً من اللهِ ولا واغِلِ[٣]

" وسمي الواغل وهو الذي يشرب مع القوم ولا ينفق ويقال لشربه الوغل "[٤].

وقال صاحب خزانة الأدب: " أما التسكين في قوله: فاليوم أشربْ أنه للضرورة"[٥] وقال: " على أنه يقدر في الضرورة رفع الحرف الصحيح كما في أشرب فإن الباء حرفٌ صحيح وقد حذف الضمة منه للضرورة "[٦].

١٢/وتأنيث المذكر على بعض التأويل: كقول الشاعر[٧]:

وتَشْرَقُ بالقولِ الذي قد أذَعتُهُ كما شَرِقَتْ صدرُ القناةِ من الدمِ[١]

---

(١) جاء البيت غير منسوب لأحد في كتاب المزهر في علوم اللغة والأدب، جلال الدين السيوطي، ت(٩١١هـ)، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية –بيروت – ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، ٢٨٥/٢، وكتاب: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك، جمال الدين بن هشام الأنصاري، ت(٧٦٢هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل – بيروت – ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، الطبعة الخامسة ٢٩٧/٤، وكتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين والبصريين والكوفيين، أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي، ت(٥٧٧هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر دمشق، ٧٤٧/٢، وكتاب اللباب في تهذيب الأنساب، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني الجذري، دار صادر بيروت-١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ٩٩/٢، وكتاب لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، دار صادر- بيروت الطبعة الأولى ١٣٦/١٥، وكتاب المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن علي ابن إسماعيل بن سيدة المرسي، ت(٤٢٨هـ)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت-٢٠٠٠م، الطبعة الأولى، ١٧/٦.

(٢) امرئ القيس سبقت ترجمته، ص٢١

(٣) ديوان امرئ القيس، دار المعارف، الطبعة الرابعة ٤٥/١.

(٤) فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد الله بن عبد العزيز بن مصعب البكري الأندلسي، ت(٤٨٧هـ)، ١٤/١.

(٥) خزانة الأدب ولب لباب العرب، عبد القادر البغدادي، ٤٢٧/٣.

(٦) المصدر السابق، ٣٥٢/٨.

(٧) الشاعر هو الأعشى، سبقت ترجمته، ص٥٨

ورأى العلماء أن الصدر مذكر لكنه لما أضافه للقناة سرى منها التأنيث إليه "[٢].

١٣/وتذكير المؤنث: كما قال الشاعر[٣]:

فـــلا مزنـــةٌ وَدَقَـــتْ وَدْقَهَـــا   ولا أرضَ أبقَـــلَ إبقالَهَـــا[٤]

أورد ابن سنان هذا البيت شاهداً على تذكير المؤنث، فالوجه أن يقول" أبقلت إبقالها "، وقد التمس العلماء توجيهاً لكلام الشاعر، قال ابن جني :" ذهب بالأرض إلى الموضع والمكان" وقال ابن منظور:" تأنيث الأرض ليس بتأنيث حقيقي "[٥].

١٤/إدخال الألف واللام على الفعل: في نحو قول الشاعر[٦]:

---

(١) ديوان الأعشى، شرح وتقديم دكتور يحي شامي، دار الفكر العربي، بيروت-لبنان، ص٢٠١.

(٢) المقتضب، أبو العبّاس محمد بن يزيد المبرد، ت(٢٨٦ه)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، دار عالم الكتب، بيروت ١٩٧/٤.
لجمل في النحو، الخليل بن أحمد الفراهيدي، ت(١٧٥ه)، تحقيق: محمد فخر الدين قباوة، الطبعة الخامسة ١٤١٦ه-١٩٩٥م، ٢٩٤/١.
خزانة الأدب، البغدادي، ١٠٤/٥، الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ت(٣٩٢ه)، تحقيق: محمد علي النجار، دار العمري، بيروت-لبنان ٤١٧/٢.

(٣) الشاعر هو عامر بن جوين بن رضا بن قمزان الطائي أحد بني جرم بن عمرو بن الغوث بن طيئ، كان سيدًا شاعرًا فارسًا شريفًا وهو الذي نزل به امرؤ القيس ابن حجر، عاش عامر مائتي عام.
خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ابن عمر البغدادي، ٧٠/١.

(٤) جاء البيت منسوبًا إلى عامر بن جوين في الكتاب سيبويه ٤٦/٢.
سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، طبعة أخرى، ص٢٧.
الأصول في النحو، أبو بكر محمد بن سهل بن السراح النحوي البغدادي، تحقيق: دكتور عبدالحسين الفتيلي، دار مؤسسة الرسالة، بيروت - ١٤٠٨ه-١٩٨٨م، الطبعة الثالثة ٤١٣/٢.، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢١٩/٨.

(٥) انظر:لسان العرب، ابن منظور الإفريقي ٢١٩/٤، والحصائص لابن جني، ص٧٤
تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية للنشر، ٩٨/٢٨.

(٦) الشاعر هو ذو الخرق الطهوي سُمي بذلك لقوله:

=

يقولُ الخَنَا وأبغضُ العُجمِ ناطقاً   إلى رَبِنا صوتُ الحِمار اليُجدَّعُ

" والجدع القطع وقيل هو القطع البائن في الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها، جدعه بجدعه جدعًا فهو جادع وحمار مجدع مقطوع الأذن،... أراد الذي يجدع فأدخل اللام على الفعل المضارع "(١).

١٥/وتشديد الكلمة المخففة: مثل قول الشاعر(٢):

كـأَنَّ مهوَاهَـا علـى الكَلكَـلِّ(٣)

وقول الآخر(٤):

ضخمٌ يُحبُ الخُلقَ الأضَخَّما(١)

لمـــا رات إبلـــي هـــذلي حمولتهـــا   جـاءت عجافًـا عليهـا الـريش والخـرق

المزهر في علوم اللغة والأدب، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فؤاد علي منصور دار الكتب العلمية ٣٧٨/٢ وجاء البيت منسوبًا للشاعر في لسان العرب، بن منظور الإفريقي ٤١/٨ وهو شاعر جاهلي.

(١) لسان العرب، ابن منظور الإفريقي ٤١/٨.

(٢) الشاعر هو منظور بن مرشد الأسدي يكنى أبا سعر.
انظر تاج العروس، الزبيدي ٤٥٩/١٩.
لسان العرب، ابن منظور ٥٩٧/١١.
والبيت كاملاً:

كـــأَنَّ مهوَاهـــا علـــى الكَلكَـــلِّ   موضـــع كفـــي راهـــب يصـــلي

(٣) الكَلكَلِّ: من الفرس ما بين محزمه أي ما مسَّ الأرض منه إذا ربض.
ا انظر: لسان العرب، ابن منظور الإفريقي ٥٩٧/١١.

(٤) الشاعر هو رؤبة تقدمت ترجمته ص ٥٤

قال صاحب سر صناعة الإعراب: " إن هذا غير جائز في القياس ولا سائغ في الاستعمال وذلك أن هذا التثقيل إنما أصله أن يلحق في الوقف، ثم إن الشعراء تضطر إلى إجراء الوصل مجرى الوقف فيقولون سبسبّاً وكلكلاٌ، والأضخمّا "(٢).

١٦/ وتحريك الياء التي تقع قبلها كسرةٌ في الرفع والجر، مثل قول الشاعر(٣):

ما إن رأيتُ ولا أرَى في مُدَّتي   كجواريٍ يلعبنَ في الصحراءِ(٤)

قال صاحب المفصل: " ولا يقع في المجرور إلا الياء لأنه ليس من الأسماء المتمكنة ما آخره واو قبلها حركة، وحكم الياء في الجر حكمهما في الرفع "(٥).

قال البغدادي: " والمشهور هنا إحداهما إثبات الياء وتحريكها وكان حقّه أن يحذفها فيقول كجوارٍ، والثانية أنه صرف ما لا ينصرف وكان الوجه لما أثبت الياء إجراءً لها مجرى الحرف الصحيح أن يمنع الصرف فيقول كجواري "(٦).

---

(١) شددت الميم في " الأَضخمَّا " لأنهم إذا وقفوا على اسم شددوا آخره إذا كان ما قبله متحرك " الكتاب، سيبويه ٢٩/١.

(٢) سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني، تحقيق: دكتور حسن هنداوي، دار القلم – دمشق– ١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م، الطبعة الأولى ٥١٥/٢.

(٣) لم أعثر على القائل، وقال: البغدادي صاحب كتاب خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: إنه مع كثرة تداوله في كتب النحو واللغة لم أقف على قائله "، ١٠٢/٧.

(٤) ذكر البيت في الكتاب سيبويه ٢٩/١، سر صناعة الإعراب، ابن جني ٥١٥/٢، خزانة الأدب، البغدادي ٣٤٣/٨.

(٥) المفصل في صنعة الإعراب، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ت(٥٣٨هـ)، تحقيق: دكتور علي بو ملحم، دار مكتبة الهلال – بيروت–١٩٩٣م، الطبعة الأولى ٨٦/١.

(٦) خزانة الأدب، البغدادي، ٣٤٣/٨.

نلاحظ أن ابن سنان قد عالج هذا الشرط وأسهب في توضيحه مع الدقة والاستقصاء وكل ما يمكن أن يؤثر في فصاحة اللفظة التي تكمن فصاحتها في خلوها من العيوب، وهذا ما أجازه النحاة في معيار الكلام، ولكنه يرى: "أن هذا وأشباهه وما يجري مجراه"، وإن لم يؤثر في فصاحة الكلمة كبير تأثير، فإنه يؤثر صيانتها عنه، لأن الفصاحة تنبئ عن اختيار الكلمة وحسنها وطلاوتها، ولها من هذه الأمور صفة نقص فيجب إطراحها على أن ما ذكره يختلف قبحه في بعض المواضع دون بعض على قدر التأويل فيه وحكمه "(١).

ونجد من آراء المتأخرين أمثال السكاكي في هذا الشرط حيث ذكر " أن تكون الكلمة عربية أصلية، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور، واستعمالهم لها أكثر. لا مما أحدثها المولدون ولا مما أخطأت فيه العامة، وأن تكون أجرى على قوانين اللغة "(٢) أما القزويني فذكر أن من شروط فصاحة المفرد خلوصه من مخالفة القياس اللغوي ".

وقال مثلاً في قول الشاعر(٣):

الحمــدُ لله العلـــيّ الأجْلَـــلِ(٤)

" فإن القياس الأجَل بالإدغام، وقيل هي خلوصه مما ذكر ".

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١١١.

(٢) مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف محمد بن علي السكاكي، ت(٦٢٦هـ)، تحقيق: الدكتور عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان ١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م، الطبعة الأولى، ص٥٢٦.

(٣) الشاعر هو أبو النجم العجيلي هو الفضل بن قدامة العجلي، أبو النجم من بني بكر بن وائل، من أكابر الرجاز، ومن أحسن الناس إنشادًا للشعر، نبغ في العصر الأموي، وكان يحضر مجالس عبدالملك بن مروان وولده هشام، قال أبو عمر بن العلاء: كان ينزل سواد الكوفة وهو أبلغ من العجاج في النعت، ت(١٣٠هـ).
انظر خزانة الأدب، البغدادي ١/١١٦، الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري ١/٣٣، معاهدة التنصيص، ابن أحمد العباسي ١/١٩.

(٤) البيت ضمن أرجوزة طويلة للشاعر، انظر خزانة الأدب البغدادي ٢/٣٤٣.

ونجد أن القزويني لم يوضح المخالفة في القياس فكان مثار نقد من العلماء كما ذكر دكتور أحمد مطلوب وأشار إلى قلة جهد القزويني في هذا الصدد إذ ما قورن بجهد ابن سنان الكبير في تحقيق قضية الفصاحة وإبراز معالم البلاغة[١] فقال إن القزويني لم يشر إلى هذا كله ولم يوضح قصده بمخالفة القياس وإن كان المثال الذي ذكره يوحي بأنه يريد مخالفة القياس الصرفي، وهو تضييق للبحث وحصر له في ناحية معينة، وقد جال فيه ابن سنان وذكر مواضع مخالفة القياس، ومثَّل لها بما أظهر معناها ولعل ولع المتأخرين بالاختصار والتقسيمات الجافة هي التي دفعت القزويني إلى أن ينطق بعبارة ويسكت، من غير أن يشرحها ويشير إلى مواطن العيب في مخالفة القياس "[٢].

المطلب السادس :الشرط السادس:

أن لا تكون الكلمة قد عُبر بها عن أمر آخر يكره ذكره:

قال ابن سنان: أن لا تكون الكلمة قد عُبر بها عن أمر آخر يكره ذكره، فإذا أوردت، وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وإن كُملت فيها الصفات التي بيَّناها، ومثال هذا قولُ عروة بن الورد العبسي[٣]:

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني ٨/١.

(٢) القزويني وشروح التلخيص، دكتور أحمد مطلوب، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م، ص٢٧٢.

(٣) هو عروة بن الورد وقيل ابن عمرو – بن زيد بن عبد الملك من بني عبس وكان يلقب عروة الصعاليك، وعرف عروة بالكرم، حتى إن عبد الملك بن مروان قال: ما يسرني أن أحدًا من العرب ولدنى إلا عروة بن الورد وكان حليفًا في بني عمرو بن عوف وهو شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها.

الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٨٢/٣، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، أبي منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار المعارف-القاهرة ١٠٣/١.

ديوان الحماسة، التبريزي ١٥٩/١.

قلتُ لِقومٍ فـي الكنيـفِ تَرَوَحُوا عشيَّةَ بِتنا عِنْدَ ما وَانَ رُزَحِ[١]

قال ابن سنان: " والكنيف أصله الساتر، ومنه قيل للتُرس كنيف، غير أنه استعمل في الآبار التي تستر الحدث وشُهرَ بها، فأنا أكرهه في شعر عروة، وإن كان وَرَدَ موردًا صحيحًا لموافقة هذا العرف الطارئ، على أن لعروة عذرًا وهو جواز أن يكون هذا الاستعمال حدث بعده، بل لا أشك أنه كذلك، لأن العرب أهلُ الوبر لم يكونوا يعرفون هذه الآبار، فهو وإن كان معذورًا وغير ملوم فبيتُه مما يصح التمثيل به "[٢].

وقول الشريف الرضي[٣] رحمه الله: –

أعزِز عليَّ بان أراكَ وَقد خَلَتْ مِـن جَانِبَيـكَ مقاعِـدُ العُـوَّادِ[٤]

فقال: فإيراد مقاعد في هذا البيت صحيح، لأنه موافقٌ لما يُكره ذكرُهُ في هذا الشأن، لا سيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم وهم العواد، ولو انفرد كان الأمر فيه سهلاً، فأمّا إضافته إلى ما ذكره ففيها قُبحٌ لا خفاء به "[٥].

---

(١) ديوان عروة بن الورد، دار الكتاب العربي، ص٢٦.

(٢) سر الفصاحة، بن سنان الخفاجي، ص١١٢.

(٣) هو محمد بن الحسين بن موسى الحسيني الموسوي البغدادي، يكنى أبا الحسن، والذي لقبه بالرضي ذي الحسبين بهاءُ الدولة، قال الشعر بعد أو جاوز العشر سنين بقليل، وله نظم في الذروة وهو أشعر الطالبيين وكان من أهل الفضل والأدب والعلم وكان شاعرًا محسنًا.

تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٢٤٦/٢. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان ١٦٩/٢، سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ٢٨٥/١٧.

(٤) ديوان الشريف الرضي منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، ٣٨٢/١.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان، ص١١٣.

وقد ذكر ابن الأثير هذا الشرط في كتابيه " المثل السائر "، " والجامع الكبير "، وقال: إن إيراد هذه اللفظة " مقاعد " من هذا الموضع صحيح إلا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشعر، لا سيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليه وهو العواد،ولو انفرد لكان الأمر فيه سهلاً، فأما الإضافة إلى من ذكره ففيها قبح لا خفاء به هذا حكاية كلامه وهو مرضي واقع في موقعه، ولنذكر نحن ما عندنا في ذلك فنقول جاءت هذه اللفظة المعيبة في الشعر في القرآن الكريم، فجاءت حسنة مرضية وهي قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ** ﴾[1] وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً. وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً** ﴾[2] ألا ترى أنها في هاتين الآيتين غير مضافة إلى من تقبح إضافته إليه كما جاءت في الشعر ولو قال الشاعر بدلاً من مقاعد العواد مقاعد الزيارة أو ما جرى مجراه لذهب ذلك القبح وزالت تلك الهجنة، ولهذا جاءت هذه اللفظة في الآيتين على ما تراه من الحسن وجاءت على ما تراه من القبح في قول الشريف الرضي "[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية (١٢١).

(٢) سورة الجن، الآيات (٨-٩).

(٣) المثل السائر، ابن الأثير ١٨٩/١.وانظر الجامع الكبير، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: الدكتور مصطفى جواد، والدكتور جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي الشرقي ١٩٥٦م، ص٥٤.

المطلب السابع:الشرط السابع:

أن تكون الكلمة معتدلةً غير كثيرة الحروف:

قال ابن سنان: " أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف، فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة قَبُحت، وخرجت عن وجهٍ من وجوه الفصاحة، ومن ذلك قولُ أبي نصر بن نباته[١]:

فإيَّاكُمُ أَنْ تكشِفُوا عَنْ رُؤوسِكُمْ ... أَلا إن مِغْنَاطِيسَهُنَّ الذوَائِبُ[٢]

و"مغناطيسهن " كلمة غير مرضية لما ذكرته، وإن كان فيها أيضًا عيوبٌ أُخر"[٣].

ومن هذا النوع أيضًا قول أبي تمّام[٤]:

فلِأذَرَبِيجَانَ احتيالٌ بعدَما ... كانت مُعَرَّسَ عَبرَةٍ ونكَالِ[٥]

سَمُجتْ ونبَّهَنَا على استِسمَاجِهَا ... ما حَولَهَا من نَضرَةٍ وجمالِ

فقوله: " **فلأذربيجان** " كلمة رديئةٌ لطولها وكثرة حروفها، وهي غير عربية، ولكن هذا وجه قبحها، وكذلك قوله في البيت الثاني " استسماجُها " رديءٌ لكثرة الحروف، وخروج الكلمة بذلك عن المعتاد في الألفاظ إلى الشاذ النادر[٦].

واستقبح ابن سنان أيضًا كلمة " **سُوَيْدَاواتِهَا** " في قول أبي الطيب[٧]:

---

(١) سبق ترجمته ص ١٦

(٢) ديوان ابن نباته السعدي، تحقيق: عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، وزارة الإعلام، العراق ١٨٢/١.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١١٧.

(٤) سبق ترجمته ص ص ١٧

(٥) ديوان أبي تمّام ١٣٢/٣.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١١٧.

(٧) سبقت ترجمته ص ٣٩

إن الكـــريمَ بـــلا كـــرامٍ مـــنهُمُ   مثلُ القلوبِ بلا سُوَيْدَاوَاتِها[١]

فقال: " فسويداواتها " كلمةٌ طويلةٌ جدًا، فلذلك لا أختارها "[٢].

ولكن اعترض عليه ابن الأثير وقال: ومن أوصاف الكلمة أن تكون مؤلفة من أقل الأوزان تركيبًا ومثل له بقول أبي الطيب وقال إن لفظة سُوَيْدَاواتِهَا طويلة فلهذا قبحت وليس الأمر كما ذكره فإن قبح هذه اللفظة لم يكن بسبب طولها وإنما هو لأنها في نفسها قبيحة وقد كانت وهي مفردة حسنة فلمّا جمعت قبحت لا بسبب الطول والدليل على ذلك أنه ورد في القرآن الكريم ألفاظ طوال وهي مع ذلك حسنة كقوله تعالى: ﴿ **فَسَيَكْفِيكَهُمُ** ﴾[٣] فإن هذه اللفظة تسعة أحرف وكقوله تعالى: ﴿ **لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ** ﴾[٤] فإن هذه اللفظة عشرة أحرف وكلتاهما حسنة رائقة "[٥].

ونجد أن ابن الأثير يرى أن الكراهة والقبح في الكلمة ليس في عدد حروفها وإنما في ثقلها في اللسان، سواء كانت طويلة أو قصيرة ومثال ذلك قول امرئ القيس[٦] في قصيدته اللامية التي هي من جملة القصائد السبع الطوال:

غدائرهُ مستشزراتٌ إلى العلا   تضِل المداري في مُثنى ومُرسل[٧]

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، ص١/٣٤٠.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١١٨.

(٣) سورة البقرة، الآية (١٣٧).

(٤) سورة النور، الآية (٥٥).

(٥) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير ٢/١٩٢.

(٦) امرئ القيس سبقت ترجمته ص ٢١

(٧) ديوان امرئ القيس، دار المعارف ١/٤.

المعنى أن ذوائبها وغدائرها مرفوعات أو مرتفعات إلى فوق، يراد به شدّها على الرأس بخيوط، ثم قال: تغيب تعاقيصها في شعر بعضه مثنيّ وبعضه مرسل "(١). فنجد في لفظه " مستشزرات " يقبح استعمالها. ويشق النطق بها، وإن لم تكن طويلة لأنا لو قلنا مستتكرات أو مستنقرات على وزن مستشزرات لما كان في هاتين اللفظتين من ثقل ولا كراهة "(٢).

ولكن صاحب صبح الأعشى قال " ولربما اعترض بعض الجهّال بأن الاستثقال في لفظ " مستشزرات " إنما هو لطولها وليس كذلك فإنا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مستشزر لكان ثقيلاً أيضًا لأن الشين قبلها تاء وبعدها زاي فثقل النطق بها، نعم لو أبدلنا من الزاي راء ومن فاء راء فقلنا مستشرف لزال ذلك ومن ثم ظهر لك أن اعتبار ابن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيبًا غير معتبر(٣).

واشترط العلوي فصاحة الكلمة أن تكون معتدلة في الوزن فقال فإن الأوزان ثلاثة، ثلاثية، ورباعية، وخماسية، فأكثرها استعمالاً هو الثلاثي وما ذاك إلا لخفته، وأبعدها في الاستعمال الخماسي لأجل كثرة حروفه، وأوسطها الرباعي لحصوله بين الأمرين والتعويل في ذلك على الذوق "(٤).

---

(١) شرح المعلقات السبع، للإمام عبد الله الحسن بن أحمد الزوزني، ت(٤٨٦هـ)، تحقيق: محمد عبدالقادر الفاضلي، دار الكتب العصرية، صيدا-بيروت-١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، ص٣٣.

(٢) المثل السائر، ابن الأثير، ١٩٢/١.

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ابن أحمد الفزاري، ٢٧٧/٢.

(٤) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة، العلوي ١١٠/١.

المطلب الثامن:الشرط الثامن:

أن تكون الكلمةُ مصغرةً في موضع عُبِّر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل، أو ما يجري مجرى ذلك.

قال ابن سنان: أن تكون الكلمة مصَغَّرة في موضع عُبر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل، أو ما يجري مجرى ذلك، فإني أراها تحسن به، ويجب ذكره في الأقسام المفصلة، ولعل ذلك لموقع الاختصار بالتصغير ومثال ذلك قول الشريف الرضي[١] رحمه الله.

يُولِـعُ الطـلُ بُردَيْنَـا وقـد نَسَـمَتْ رُوَيحَةُ الفجرِ بينَ الضالِ والسَلَمِ[٢]

فلمّا كانت الريح المقصودة هناك نسيمًا مريضًا ضعيفًا حسُنت العبارة عنه بالتصغير، وكان للكلمة طلاوة وعذوبة[٣].

وكذلك قولُ شيخنا أبي العلاء بن سليمان[٤]:

إذا شَـرِبَتْ رأَيْـتَ المـاءَ فيهَـا أُزيـرِقَ لَـيْسَ يسـتُرُهُ الْجِـرَانُ[٥]

لمّا كان ماءً قليلاً يلوح ودونه حائل من أعناق الإبل وساتر على كل حال حُسن وُرُودُه مصغرًا[٦].

(١) سبق ترجمته ص ٦٥

(٢) ديوان الشريف الرضي، منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، ٢/٢٧٤.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١١٩.

(٤) سبق ترجمته ص ٤

(٥) ديوان أبو العلاء المعري ١/٢٧٩.

(٦) شرح ديوان أبو العلاء المعري ١/٢٧٩.

وتحدَّث ابن الأثير في ذلك قائلاً: " وأما تصغير اللفظة فيما يعبر به عن شيء لطيف أو خفى أو ما جرى مجراه فهذا مما لا حاجة إلى ذكره، فإن المعنى يسوق إليه، وليست معاني التصغير من الأشياء الغامضة التي تفتقر إلى التنبيه عليها، فإنها مدونة في كتب النحو، وما من كتاب نحو إلا والتصغير باب من أبوابه ومع هذا فإن صاحب هذه الصناعة مخير في ذلك: إن شاء يورده بلفظ التصغير وإن شاء بمعناه كقول بعضهم[١]:

لو كان يخفَى على الرحمنِ خافيةٌ من خلقِه خَفَيتْ عنهُ بنو أسدِ[٢]

فهل كان يمكن هذا الشاعر أن يصغر من هؤلاء القوم ويحقر من شأنهم بألفاظ التصغير ويجئ هكذا كما جاء بيته هذا ؟ فالوصية به إذن ملغاة لا حاجة إليها "[٣] ومع ذلك نجد أن ابن الأثير قد ذكر ذلك وأثبته في كتابه الجامع الكبير، وجعله من فصاحة اللفظة المفردة حيث قال: " الأوصاف التي توجد في اللفظة الواحدة، وتستحق بها مزية الحسن والجودة، سبعة أنواع... وهو أن تكون الكلمة مصغرة، في موضع يعبر بها عن شيء خفي أو لطيف أو ضعيف أو ما جانس ذلك "[٤].

وفي تصغير الكلمة تحدث ابن سنان أيضًا عن الأسماء التي لم يُنطق بها إلا مصغرة فقال: " فأما الأسماء التي لم ينطق بها إلا مصغرة كاللجين والثريا وما أشبهها فليس للتصغير فيهما حُسنٌ يذكر، لأنه غير مقصود به ما قدمناه ولذلك لا اختار التصغير في قول المتنبي[٥]:

(١) هو الطرماح بن حكيم الطائي سبقت ترجمته ص ٥٦

(٢) ديوان الطرماح بن حكيم، تحقيق: الدكتور عزة حسن، إحياء التراث القديم، دمشق–١٣٨٨هـ–١٩٦٨م، ص١٦٦.

(٣) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير ١/١٦١.

(٤) الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام المنثور، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: الدكتور مصطفى جواد، والدكتور جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي الشرقي ١٩٥٦م، ص٣٣– وص٥٥.

(٥) المتنبي سبقت ترجمته ص ٣٩

إِذا عـذلُوا فيهـا أجبـتُ بأنـةٍ   حُبيبتَا قلبي فُؤادِي هَيَا جُمْلُ[(١)]

لأنه عار من الوجه الذي ذكرته "[(٢)].

وقال صاحب المعجز: " روى: بأنة، ورنة: وهما واحد. وحبيبتا الألف فيها بدل من الياء، وأصله: حبيبتي على إضافة إلى الياء، إلا أنه أبدلها ألفًا، تخفيفًا كقوله تعالى: ﴿ **يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ** ﴾[(٣)] والحُبيبة تصغير الحبيبة وأراد به التخصيص لا التحقير وقوله قلبي أي: يا قلبي وهو بدل من حبيبتا، وفؤادي بدل من قلبي، وذلك نداء بعد نداء، وجميعها منصوب بالنداء المضاف. وهيا: حرف النداء. وجُملُ اسم المرأة، وهو مبني على الضم بالنداء المفرد "[(٤)].

فأمّا ما يُذهب إليه من التصغير بمعنى التعظيم ففي مثل قول الشاعر[(٥)]:

وكُلُ أُناسٍ سوف تَدخُلُ بينهُم   دُوَيهيةٌ تَصْفَرُّ منها الأنامِلُ[(٦)]

وفي شرح الديوان: " يريد الموت وهو أعظم الدواهي "[(٧)].

قال ابن سنان: " وقد حُكي أن أبا العبّاس المبرد كان ينكره، ويزعم أن التصغير في كلام العرب لم يدخل إلا لنفي التعظيم، ويتأول " دويهية " وما يجري مجراها بأن يقول أراد خفاءها في الدخول، فصغرها لهذا الوجه، وهو ضد التعظيم المذكور "[(٨)].

---

(١) ديوان المتنبي ١٥٩/١.
(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٢١.
(٣) سورة الزمر، الآية (٥٦).
(٤) معجز أحمد، أبو العلاء المعري ٣٨/١.
(٥) الشاعر هو لبيد بن ربيعة العامري، يكنى أبا عقيل، أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه، وكان من المؤلفة قلوبهم.
(٦) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر بيروت، ص١٣٢.
(٧) شرح ديوان لبيد بن ربيعة، تحقيق: الدكتور إحسان عبّاس، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤م، الطبعة الثانية، ص٢٥٦.
(٨) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٢٢.

وقال: " ويقوَّى عندي ما ذهب إليه أبو العبّاس أنهم إذا وضعوا التصغير أمارة للتحقير والتعظيم معًا فقد زالت الفائدة به ولم يكن دليلاً على واحد منهما، بل يُرجع إلى المقصود باللفظة، ويُلتمس بيانُ ذلك من جهة المعنى دون اللفظ، فليس للتصغير تأثير، وعلى كل القولين فليس التصغير عندي وجهًا من وجوه الفصاحة، إلا في الموضع الذي ذكرته دون ما يسمونه تصغيرًا في التعظيم، وعلى هذا أحمل قول المتنبي(١):

أُحـــادٌ أمْ ســـداسٌ فـــي أُحـــادٍ　　　لُيَيلتُنَـــا المَنُوطَـــةُ بالتنـــادِ(٢)

فلا أختار التصغير في "لييلتنا"، لأنه تصغير تعظيم، وليس على الوجه الذي ذكرته "(٣).

ومعنى البيت: " فإن قدرتها فيه متصلة فالمعنى أنه استطال الليلة فشك أواحدة هي أم ست اجتمعت في واحدة فطلب التعيين وهذا من تجاهل العارف "(٤) فأما قول أبي نصر ابن نباته في وصف الحية(٥):

ففـي الهضبةِ الحمراءِ إن كنتَ ساريًا　　　أُغيبِـرُ يـأوِي فـي صُـدُوعِ الشَّـواهِقِ(٦)

قال ابن سنان: فإن تصغيره هاهنا مرضيٌ على ما قدمته، لأن الحية توصف بأنها لا تغتذي إلا بالتراب فقد جفّ لحمها، وذهبت الرطوبة منها "(٧).

---

(١) المتنبي سبقت ترجمته ص ٣٩

(٢) ديوان المتنبي، ص١/٢٠٨.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٢٢.

(٤) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، جمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق: مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر– دمشق – ١٩٨٥م، الطبعة السادسة ٦٩/١.

(٥) ابن نباته سبقت ترجمته ص ١٦

(٦) ديوان ابن نباته السعدي ٥٩٤/١.

(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٢٣.

عرض ابن سنان لهذه الشروط لتحقق فصاحة اللفظة المفردة · ونجده قد حقق سمو الكلمة، وعلو قدرها ورفعة مكانتها في البلاغة، وهذا يعني أن ابن سنان كان له الفضل في تقسيم تلك الدراسة وتفصيلها تفصيلا دقيقا واسعا، واستشهد فيها بأمثلة كثيرة حيث تميزت دراسته بالعمق وأثرت الدرس البلاغي إثراءً قيما حيث كان حريصا على وضع مقاييس جمالية وضوابط فنية وذلك بوضعه لطريقته التي انتهجها في سرده لمفهوم كل الشروط وضبطها ضبطا منظما·

القسم الثاني: شروطها في الألفاظ المنظومة

المطلب الأول: الشرط الأول:

انتقل ابن سنان الى تأليف الكلام قائلاً: "إن للقسم الثاني من الفصاحة صفات توجد في التأليف وتعتبر فيه من الأقسام الثمانية المذكورة في اللفظة المفردة "(١) ونجد أن فصاحة الألفاظ المؤلفة لا تقل أهميتها في باب الفصاحة والبلاغة من الألفاظ المفردة، يقول صاحب الطراز: " يجب مراعاة أحوال التأليف بين الألفاظ المفردة، والجمل المركبة، حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة آخذاً بعضها بأعناق بعض، وعن ذلك يقوى الارتباط، ويصفو جوهر نظام التأليف، ويصير حاله بمنزلة البناء المحكم المرصوص المتلائم الأجزاء، أو كالعقد من الدر فصلت أسماطه بالجواهر واللآليء، فخلص على أتم تأليف، وأرشق نظام "(٢)

ويقول الجرجاني أيضاً في الكلام المؤلف: " وهل تجد أحداً يقول "وهذه اللفظة فصيحةٌ " إلا وهو يعتبر مكانها من النظم وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها ؟ وهل قالوا: "لفظة متمكنة، ومقبولة " وفي خلافه: " قلقةٌ ونابيةٌ، ومستكرهةٌ " إلا وغرضهم أن يعبروا بالتمكن عن حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما، وبالقلق والنبوّ عن سوء التلاؤم، وأن الأولى لم تلق بالثانية في معناها، و أن السابقة لم تصلح أن تكون لفقاً للتالية في مؤدَّاها(٣)؟"

لذا اهتم ابن سنان بهذه الألفاظ المنظومة لقيمتها فوضع لها من الشروط لفصاحتها واشترط فيها بعض ما اشترطه في فصاحة اللفظة المفردة، ونجده يكرُّ على الشروط الثمانية ويحاول تطبيقها ثم يضيف شروطاً أخرى عليها وهي: –

---

(١) سر الفصاحة،ابن سنان الخفاجي ص١٣١

(٢) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للإمام يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، تحقيق: دكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا _بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣ _٢٠٠٢م ص ١٢٠

(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ص ٥٣

أن يكون تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج وقال: " هذا بعينه في التأليف وبيانه أن يجتنب الناظم تكرر الحروف المتقاربة في تأليف الكلام ويرى هذا التكرر في التأليف أقبح وذلك أن اللفظة المفردة لا يستمر فيها من تكرير الحرف الواحد أو تقارب الحرف مثل ما يستمر في الكلام المؤلف إذا طال واتسع ومثل ذلك قول الشاعر:

لو كُنتَ كُنتَ كتمتَ الحبَ كُنتَ كَمَا   كُنـا نكـونُ ولكـن ذَاكَ لـم يكُـنِ [١]

فقال: " وليس يُحتاج إلى دليل على قبحه للتكرار أكثر من سماعه " [٢]

وأورد ابن سنان مثالاً آخراً وذلك عندما قال أبو تمام[٣]:

فالمجـدُ لا يرضَـى بـأن تَرضَـى بـأن   يرضَى المُؤملُ منكَ إلا بالرِضَا[٤]

قال له إسحاق بن إبراهيم الموصلي[٥]: " لقد شققت على نفسك يا أبا تمام والشعر أسهل من هذا "[٦]

ونرى هنا الى جانب الثقل في النطق نجد أيضاً كراهة اللفظة في السمع والنفور من مثل هذه الكلمات، وقد عزي ذلك الى التنافر .

---

(١) ورد البيت دون ذكر اسم الشاعر في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن احمد أبي الفتح الأبشيهي ت(٨٨٥) ه تحقيق : مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية _ بيروت _ ١٤٠٦ ه _ ١٩٨٦ م الطبعة الثانية ١ / ٩٦

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي ص ١٣١

(٣) أبو تمام سبقت ترجمته ص ١٨

(٤) ديوان أبي تمام ص ٥٧٠ وجاء عجز البيت: يرضى امرؤٌ يرجوك إلا بالرضا

(٥) إسحاق بن إبراهيم بن ميمون أو ابن ماهان الموصلي، يكنى أبى محمد، ويعرف بابن النديم وكان الرشيد يكنيه أبا صفوان، كان من العلماء باللغة والأشعار، وأخبار الشعراء، وأيام الناس، وكان من ندماء الخلفاء، وكان الغناء أصغر علومه، وأدنى ما يوسم به، وإن كان غلب عليه ت(٢٣٥)ه أنظر الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٢٦٨/٥ . تاريخ بغداد،أبو بكر الخطيب البغدادي ٦ /١٧٥ .معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١٢٩/٢ . سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ٣١٣/١٢،نزهة الألباب في الألقاب، ابن حجر العسقلاني ٢٦٦/٢ .

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي ص١٣٢

قال ابن سنان: "وكنت حاضراً عند شيخنا أبي العلاء وقد قرئت عليه قصيدة لأبي الطيب المتنبي فلما وصل القارئ الى هذا البيت :

ولا الضِعفَ حتى يبلغَ الضعفَ ضِعفُهُ ولا ضِعفَ ضِعفَ الضّعفِ بل مِثلهُ ألفُ(١)

قال: هذا والله شعر مُدبر، وكان من العصبية لأبي الطيب على الصفة التي اشتهرت منه "(٢)

فأما قول الآخر: (٣)

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قَفْرُ وليس قُربَ قبرِ حربٍ قبَرُ

فمبنيٌ من حروف متقاربة ومكررة ولهذا يثقل النطق به، حتى يزعم بعضُ الناس أنه من شعر الجن ويُختبرُ المتكلم بإنشاده ثلاث مرات من غير غلط ولا توقف(٤)

وعد ابن الأثير هذا البيت من المعاظلة اللفظية وقال: " تختص بتكرير الحروف وليس ذلك مما يتعلق بتكرير الألفاظ ولا بتكرير المعاني وإنما هو تكرير حرف واحد أو حرفين في كل لفظة من ألفاظ الكلام المنثور أو المنظوم فيثقل حينئذٍ النطق به "(١)

---

(١) ديوان المتنبي ٢٣٨/١ . أي لا تعدل بضعف الورى حتى يزيد الورى ضعفاً آخر فيصير ضعف ضعفهُ فتكون أنت ضعف ضعف الضعف، ثم رجع عن هذا فقال: لا يكفي ذلك بل أنت ألف ضعف من مثل هذا الضعف وفي هذا البيت من الثقل والتكلف ما لا يخفى، ولو استغنى عنه المتنبي لكان أولى . العرف الطيب في شرح ديوان المتنبي شرح ناصف اليازجي، تقديم ياسين الأيوبي، دار مكتبة الهلال بيروت، طبعة ٢٠٠٠ م ٢٣٨/١

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي ص١٣٢

(٣) قيل البيت من الرجز ولا يعرف قائله ويقال أنه من شعر الجن قالوه في حرب ابن أمية بن عبد شمس لما قتلوه بثأر حية منهم قتلها القفل الذي كان فيه ودفن ببادية بعيدة وكان حرب مصاحباً لمرداس السلمي أبي العباس الصحابي فقتلهما الجن جميعاً، وهذا شئ ذكرته الرواة ي أخبارها والعرب في أشعارها .انظر معاهدة التنصيص، ابن أحمد العباسي ١٣٤/١، إعجاز القرآن، أبو بكر محمد ابن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف مصر ١٩٩٧ الطبعة الخامسة ٢٦٩/١، آكام المرجان في أحكام الجان، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السبيلي الحنفي، تحقيق: إبراهيم محمد الجمل، دار مكتبة القرآن مصر _ القاهرة ١٩٢/١، صبح الأعشى، القلقشندى ٢٩٢/٢،الحيوان، الجاحظ ٢٠٧/٦

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي ص ١٣٣ .

ومن قبلهِ تحدث الجاحظ عن هذا البيت قائلاً: "ومن ألفاظ العرب ألفاظ تنافر وان كانت مجموعة في بيت واحد لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض استكراه "(٢)

وقال صاحب معاهد التنصيص: " والشاهد فيه التنافر لما في هذه الألفاظ من ثقل النطق بها، ولذلك هرب أرباب الفصاحة من اللفظين المتقاربين الى الإدغام لانتقال اللسان فيه إليهما انتقالة واحدة وشبه النطق بالمتقاربين بمشي المقيد "(٣)

وذكر ابن سنان أن علي بن عيسى الرماني ذهب الى أن التنافر أن تتقارب الحروف في المخارج، أو تتباعد بعداً شديداً، وحكي ذلك عن الخليل بن أحمد وقال: إنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد،لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال ولذالك وقع في الكلام الإدغام والإبدالُ "(٤)

ويشيد ابن سنان بتباعد الحروف ويجعلها من خصائص ومميزات اللغة العربية فيقول: "وهاهنا لها فضيلةٌ أخرى، وهي أن الواضع لها إن كانت مواضعةً تجنبَ في الأكثر كل ما يثقل على الناطق تكلفة والتلفظ به، كالجمع بين الحروف المتقاربة في المخارج، وما أشبه ذلك، واعتمد مثل هذا في الحركات أيضاً، فلم يأت إلا بالسهل الممكن، دون الوعر المتعب، ومتى تأملتَ الألفاظ المهملة لم تجدِ العلة في إهمالها إلا هذا المعنى، وليس غيرها من اللغات "(٥)

---

(١) المثل السائر، ضياء الدين ابن الأثير ٢٨٨/١

(٢) البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ ٤٩/١

(٣) معاهد التنصيص، ابن أحمد العباسي ٣٥/١

(٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،النكت في إعجاز القرآن،لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ت(٣٨٦) ه _تحقيق: محمد خلف الله، دكتور محمد زغلول، الطبعة الثانية دار المعارف مصر ص ٩٦ أنظر سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي،ص ١٣

(٥) سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي، ص٥٦

ولكن نجد لابن الأثير رأياً آخر، وهو أن حاسة السمع هي التي تحدد الحسن من القبح فقال: "والذي يدرك بالسمع إنما هو اللفظ يأتلف من مخارج الحروف فما استلذه السمع منه فهو الحسن وما كرهه فهو القبيح. والحسن هو الموصوف بالفصاحة والقبيح غير موصوف بالفصاحة "[(١)] ويعني ذلك عنده أن مدار الأمر في ذلك إنما هو الإحالة على الذوق السليم والطبع المستقيم لا على تقارب المخارج وتباعدها . وذهب القزويني إلى أن " التنافر منه ما تكون الكلمات بسببه متناهية في الثقل على اللسان وعسر النطق بها متتابعة كما في البيت الذي أنشده الجاحظ:

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرُ   وليسَ قربَ قبرِ حربٍ قبرُ

ومنه ما دون ذلك كما في قول أبي تمام:

كريمٌ متى أمدحهُ والوَرَى معي   ومتى ما لُمتُهُ لُمتُهُ وحدِي[(٢)]

فإن في قوله "أمدحه" ثقلا ما لما بين الحاء والهاء من تنافر" [(٣)]

وهذا ما ذكره ابن سنان في بيت أبي تمام وقال: "تكرر حروف الحلق على سلامة المعنى واختيار الألفاظ "[(٤)]

واستقبح ابن سنان تكرير الكلمة وقال: إنه من أقبح ما يكون من التكرير وأشنعه وذلك في قول أبي الطيب: [(٥)]

العارِضُ الهَتنُ ابنُ العارِضِ الهتنِ   ابنِ العارضِ الهتنِ ابنِ العارضِ الهتنِ[(١)]

---

(١) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير ١/ ٨٢
(٢) ديوان أبي تمام ص ٣٤
(٣) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني ١ /٩
(٤) سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي ص ١٣٨
(٥) سبقت ترجمته ص ٣٩

أما قوله أيضا: (٢)

وأنتَ أبو الهَيْجَا بنُ حمدانَ يا ابنهُ ... تشابَهَ مولودٌ كريمٌ ووالِدُ
وحمدانُ حمدونٌ وحمدونُ حارثٌ ... وحارثُ لقمانٌ ولقمانُ راشدُ

فقال: فليس هذا التكرير عندي قبيحاً، لأن المعنى المقصود لا يتم إلا به، وقد اتفق له أن ذكر أجدادَ الممدوح على نسقٍ واحدٍ من غير حشوٍ ولا تكلفٍ،لأن أبا الهيجا هو عبد الله بن حمدان بن حمدون بن الحارث بن لقمان بن راشد، ولو ورد هذا الكلام نثراً لم يرِد إلا على هذه الصفة،فلما عرض في هذا التكرار معنى لا يتم إلا به سهُل الأمر فيه،وكان البيت مرضياً غير مكروه،وعلى ذلك يجب أن يُحمل أي تكرير يجري هذا المجرى "(٣)

ويرى العسكري: " من عيوب الكلام تكرير الكلمة الواحدة في كلام قصير "(٤)

وتحدث الخفاجي عن الحروف التي تربط بعض الكلام ببعض وتدل على معنى في غيرها قال: كما يقول النحويون يُقبح تكررُها في الكلام،وإن اختلفت ألفاظها،وذلك لأنها جنس واحد ومشتركة في المعنى،وإن تميزت فائدة بعضها من بعض،ومما يسهل الأمر فيها قليلاً وقُوعُ الفصل بينها بكلمة من غيرها،فأما أن ترِد على نحو ما قال المتنبي: (٥)

وتُسعِدُني في غَمرَةٍ بعد غمرةٍ ... سَبوحٌ لها منها عليها شواهِدُ

فذلك العيب الذي لا يتوجه عذٌر فيه(٦) "

---

(١) ديوان أبي الطيب ٣١٩/١
(٢) ديوانه ص ٨١/١
(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي ص ١٣٩
(٤) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري ص ١٥٣
(٥) ديوان المتنبي ص٧٧/١
(٦) سر الفصاحة،ابن سنان الخفاجي ص١٤٤

ونجد العسكري من الذين نادوا بتجنب إعادة حروف الصلات والرباطات فقال: "ينبغي أن تتجنب إعادة حروف الصلات والرباطات في موضع واحد إذا كتبت مثل قول القائل "منه له عليه"أو "عليه فيه"أو "به له منه" وأخفها "له عليه" فسبيله أن تداويه حتى تزيله بأن تفصل ما بين الحرفين مثل أن تقول: "أقمت به شهيدا عليه"(١)

قال ابن سنان فأما قول بعضهم(٢)

وَلَـوَلا دُمُـوعِي كَتَمـتُ الهَـوَى ولولا الهَوَى لم تَكُن لـي دُمُوعُ

فليس من التكرير المكروه، لما قدمته في بيت أبي الطيب وذلك أن المعنى مبنيٌّ عليه ومقصور على إعادة اللفظ بعينه، وهذا حدٌ يجبُ أن تراعيه في التكرير،فما وجدت المعنى عليه ولا يتم ألا به،لم تحكم بقبحه وما خالف ذلك قضيت عليه بالاطراح،ونسبته إلى سوء الصناعة "(٣)

المطلب الثاني الشرط الثاني:

قال ابن سنان: وهو أن تجد للفظة في السمع حسناً ومزيةً على غيرها،لا من أجل تباعد الحروف فقط،بل لأمر يعرض في التأليف،ويقع في المزاج،وكما يتفق في بعض النقوش على ما بيناه،فإنّ هذا إنما يكون في التأليف إذا ترادفت الكلمات المختارة، فيوجد الحسن فيه أكثر، وتزيد طلاوته على ما لا يجمع من تلك الكلمات إلا القليل "(٤)

---

(١) الصناعتين الكتابة والشعر،أبو هلال العسكري ص ١٦٠

(٢) القائل هو محمد بن المظفر بن عبد الله بن مظفر بن تحرير ألخرقي أبو الحسين الشاعر مولى بني فهد وأمه تميمة من بني الحارث بن كعب، جيد الشعر،وكان رافضياً توفي سنة خمس وخمسين وأربع مائةبالشونيزية مولده سنة سبع وسبعين وثلاث مائة .
الوافي بالوفيات،ابن أيبك ألصفدي ٥/٢٦

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي ص ١٤٦

(٤) المصدر نفسه ص١٤٧

المطلبان الثالث والرابع: الشرطان الثالث والرابع:

جمع بن سنان الشرطين الثالث والرابع وهما: أن تكون الكلمةُ غير وحشية ولا عامية، لأن هذين القسمين أيضاً لاعُلقة للتأليف بهما، وإنما يقبح إذا كثر فيه الكلامُ الوحشي أو العامي، على حد ما يحسن إذا كثر فيه الكلام المختار، فهو يرجع الى اللفظة المفردة، وعُلقة التأليف ما قدمناه من حكم الإسهاب في إيراد المحمود والمذموم،إلا أن تتفق لفظة لم تبتذلها العامة بإنفرادها،وإنما تستعملها مضافة إلى غيرها، فيكون التأليف على هذا الفرض عامياً، بحكم ما أفادته الإضافة لتلك اللفظة، وإذا اتفق هذا وجب تجنبها مضافة، والإحتراز من الصيغة التي تعرض فيها بعض الوجوه المذمومة "[١]

المطلب الخامس: الشرط الخامس:

وهو أن تكون الكلمة جارية على العرف العربي الصحيح وللتأليف بهذا القسم عُلقة وكيدة،لأن إعراب اللفظة تبعٌ لتأليفها من الكلام، وعلى حكم الموضع الذي وردت فيه[٢]".

ويقول في موضع آخر مؤكداً على أن إعراب الكلام من الفصاحة: "ثم يقال لمن عساه أن يمنع أن يكون إعراب الكلام شرطاً في فصاحته،هل يجوز عندك أن يكون عربياً وإن استعمل كل اسم منه لغير ما وضعته له العرب ؟ فإن قال نعم، لزمه أن يكون متكلماً باللغة العربية ... وإن قال لا يكون عربياً حتى يضع كل أسم في موضعه، ويلفظ به على حَدِّ ما يلفظ به أهله، قلنا فقد دخل في هذا إعرابُ الكلام، لأن معانيه تتعلق به، وهو الدليل على المقصود منها، وبه يزول اللبس،والجواز فيها، وإذا ثبت أنه لا يكون عربياً حتى يجري على ما نطقت العرب به وجب أن يشترط في فصاحته تبعهم فيما تكلموا به ولا نجيز العدول عنه لأنه كلامنا إنما هو في فصاحة اللغة العربية "[٣]

---

(١) المصدر نفسه ص ١٤٧

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٨

(٣) سر الفصاحة،أبن سنان الخفاجي ص ١٥١

المطلب السادس: الشرط السادس:

وهو أن تكون الكلمة قد عُبر بها عن أمر آخر يكره ذكره فللتأليف فيه تعلُقٌ بحسب إضافة الكلمة إلى غيرها،فإن القبح يختلف بحسب ذلك كما قلنا في قول الشريف الرضي: [١]

.......وقـــدْ خَلَـــتْ من جانبيكَ مقاعدُ العُوَّادِ[٢]

لأن " مقاعد " لمَّا أضيف إلى" العواد " زاد قبح الكلام، ولو قال قائل: مقاعد الجبال على وجه الاستعارة أو غير ذلك، لكان الأمر فيه أسهل وأيسر "[٣]

المطلب السابع: الشرط السابع:

وهو اجتناب الكلمةِ الكثيرة الحروف فلا عُلقة للتأليف بهذا،إلا أن ظهورَ قُبحه أجلى إذا ترادفت فيه الكلمات الطوال على حد ما قلناه في الكلمة الوحشية "[٤]

المطلب الثامن: الشرط الثامن:

---

(١) الشريف الرضي سبقت ترجمته ص٦٥
(٢) ديوان الشريف الرضي،منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي الطبعة الاولى١٤٠٦ ص ٣٨١
(٣) سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي ص ١٥١
(٤) المصدر نفسه ص ١٥١

وهو التصغير، فلا عُلقة للتأليف به،إذا كان لا يتعدى الكلمة بانفرادها،لكني أقول: إن تكرير التصغير والنداء والترخيم والنعت والعطف والتوكيد،وغير ذلك من الأقسام، والإسهابَ في إيرادها معدودٌ في جملة التكرير،ويجب التوسط فيه، فإن لكل شئ حداً ومقداراً لا يحسن تجاوزُه، ولا يُحمد تعدِّيه فان قيل: كيف تحمدون التصغير في كلمة على ما قدمتموه، فإذا انضاف إليه تصغيرٌ آخر قبح، وكل واحد منهما حسنٌ في نفسه ؟ قلنا: إن التصغيرَ المحمودَ معنىً واحدٌ،وغير مختلف ولا متباين، فنحن نكره تكراره، كما نذمُّ تكرار الكلمة الواحدة بعينها، وان كانت مرضية غير ذميمة،والعلة في الجميع واحدة"(١)

نرى أن الخفاجي قد وُفِّقَ في دراسته في فصاحة اللفظة المفردة وذلك من حيث السرد والتدقيق، والشواهد الكثيرة، وبالمقارنة بين ما سطره بين فصاحة الألفاظ المؤلفة، وفصاحة اللفظة المفردة، نجده قد أسهب وأطال في بيان اللفظة المفردة أكثر من الألفاظ المؤلفة، ولعل ذلك يرجع إلى أنه قد أطنب فأجاد في كلامه عن هذه الشروط في فصاحة اللفظة المفردة وشرحها شرحاً وافياً، فاكتفى بما ذكره هناك عن التكرار، ونراه قد أورد شروطاً ونفاها عن التأليف وذلك مثل ما ذكر في الشرطين الثالث والرابع وقال: " لأن هذين القسمين لا عُلقة لهما بالتأليف"(٢)

وذكر أيضاً الشرط السابع وقال: " فلا عُلقة للتأليف بهذا "(٣)

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي ص١٥٢
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٧
(٣) المصدر نفسه ص ١٥٢

وبعد، فإن ما أُخذ على ابن سنان من بعض العلماء كابن الأثير وغيره، من تقصيره في بيان بعض ما حقه التوضيح، أو خطأ في تعليل وتفسير، أو نقدٍ لعبارة، أو بيتٍ من الشعر، فان لابن سنان العذر في ذلك، فانه من أوائل أو هو الأول بحسب قوله _ في التأسيس ووضع اللبنات لهذا الفن للعلوم البلاغية قال: "وشرحت من حال اللفظة وانفرادها، وما يحسن فيها ويقبح وما اجتهدت في تلخيصه وإيضاحه، على أنني لم أرجع فيه الى كتابٍ مؤلف، ولا قول مروي، ولا وجدت ما ذكرتهُ مجموعاً في مكان وإنما عرفته بالدُّربة وتأمل أشعار الناس، وما ذكره أهل العلم في أثنائها، ولهذا لست أدّعي السلامة من الخلل، ولا العصمة من الزلل، بل أعترف بالتقصير"[(١)]

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي ص ١٢٦

توطئة

عرضنا فيما سبق جهود ابن سنان في دراسة اللفظة المفردة، أما جهوده البلاغية المتصلة بفصاحة الألفاظ المؤلفة التي أظهرت الملامح الواضحة لتصوره البلاغي، فسنعرض لها من خلال الفنون البلاغية التي وردت في كتابه " سر الفصاحة ".

وتجدر الإشارة هاهنا إلى أن ابن سنان لم يدرج المسائل البلاغية تحت مسميات (البديع، البيان، المعاني)، إذ أن هذه الاصطلاحات في العلوم البلاغية قد استقر استعمالها بعد عصر الخفاجي، فنجده قد درس التشبيه في معرض كلامه عن المعاني، وذكر التمثيل وسماه " الاستدلال بالتمثيل " ودرس الاستعارة في معرض كلامه عن وضع الألفاظ موضعها، كما درس الكناية موضحًا حسنها وقبحها، وذلك في معرض كلامه عن نعوت البلاغة والفصاحة، أما المجاز فقد تناوله في سياق حديثه عن الاستعارة.

أما في علم المعاني فقد درس التقديم والتأخير، والقلب، والحشو والمعاظلة، والإيجاز والإطناب والمساواة، والاستحالة والتناقض، التحرز مما يوجب الطعن، والاستدلال بالتعليل.

أما جهوده في علم البديع فقد عرض إلى الإيغال، والتسهيم والسجع والازدواج، والترصيع، ولزوم ما لا يلزم، والتصريع، والمجانس، وصحة المقابلة، وحسن التخلص، والمبالغة والغلو، وصحة التقسيم، وسنعرض بالتفصيل لهذه الفنون ونبين الجهود الكبيرة التي بذلها ابن سنان العالم الناقد لإثراء الدرس البلاغي.

وقد رأت الباحثة أن تضم الأشباه والنظائر من كلام ابن سنان وترتبها تحت الاصطلاحات البلاغية المعروفة، تقريبًا للمعلومة بحسب الدرس البلاغي في العصور المتأخرة.

أما فيما يتعلق بعلم البيان فقد ورد هذا المصطلح عند ابن سنان في تعريف الفصاحة حيث كانت مرادفة للظهور، كما وردت أيضًا في معرض حديثه عن الأسباب التي لأجلها يغمض الكلام على السامع، ويعنى بها الظهور والإيضاح، ونجده أيضًا قد ذكر كلمة البيان في حديثه عن التشبيه، وحسن الاستعارة فيقول: " وهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة من الوضع للبيان "[١] كما أنه لم تتحدد لديه ما عرف بالمسائل البيانية بل كانت تدور حول حسن التأليف في الموضوع المختار، وصورة البيان عنده توافق ما عرضه الرماني في تعريفه للبيان حين قال: "والبيان على أربعة أقسام كلام، وحال، وإشارة، وعلامة..."[٢] وهذا ما سبق إليه الجاحظ عندما قال: " إن أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة ثم العقد، ثم الخط ثم الحال "[٣].

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦٨.
(٢) النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ص ٩٠
(٣) البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، ١/٥٥.

المبحث الأول

التشبيـــه

عرَّف ابن سنان التشبيه بقوله: " وهو أن يقال أحدُ الشيئين مثلُ الآخر في بعض المعاني والصفات، ولن يجوز أن يكون أحدُ الشيئين مثل الآخر من جميع الوجوه، حتى لا يعقل بينهما تغايرٌ البتة، لأن هذا لو جاز لكان أحدُ الشيئين هو الآخر بعينه وذلك محال وإنما الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشيئين يُشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه، وبالضد حتى يكون رديء التشبيه ما قلَّ شبهه بالمشبه به "(١).

ونجد الخفاجي قد تأثر في هذا التعريف بقدامة بن جعفر حيث قال: " إنه من الأمور المعلومة أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات، وإذ كان الشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة اتحدا، فصار الاثنان واحدًا، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفتها "(٢) أما الجرجاني معاصر ابن سنان فكان يأخذ الاتجاه نفسه حيث ذهب إلى حسن التشبيه في كثرة جهات الاختلاف فقال: " إذا استقريت التشبيهات وجدتَ التباعدُ بين الشيئين كلما كان أشدَّ، كانت إلى النفوس أعجب، وكانت النفوسُ لها أطرب "(٣).

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦٦.

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، لتحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ص١٠٩.

(٣) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص١٠٩.

وحدد ابن سنان حسن التشبيه فقال: " والأصلُ في حسن التشبيه أن يُمثل الغائبُ الخفيُّ الذي لا يُعتاد بالظاهر المحسوس المعتاد، فيكون حُسنُ هذا لأجل إيضاح المعنى وبيان المراد "[١] وأورد أمثلة كثيرة من القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ ...** ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ ...** ﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً** ﴾[٤] وذكر أن هذه التشبيهات كلها من تشبيه الخفي بالظاهر المحسوس والذي لا يعتاد بالمعتاد لما في ذلك من البيان "[٥] .

كما أنه ذكر من حسن التشبيه أن يمثل الشيء بما هو أعظم منه وذلك على وجه المبالغة ومثله لذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ** ﴾[٦] كما أورد قول النابغة الذبياني[٧]:

فإنك كالليلِ الذي هو مُدْرِكي وإنْ خِلتُ أنَّ المُنتأى عنك واسعُ[٨]

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦٧. وانظر النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ص٨٢.

(٢) سورة النور، الآية (٣٩).

(٣) سورة إبراهيم، الآية(١٨).

(٤) سورة الجمعة، الآية(٥).

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦٧.

(٦) سورة الرحمن، الآية(٢٤).

(٧) النابغة الذبياني، زياد بن معاوية بن خباب، أبو أمامة شاعر جاهلي من الطبقة الأولى كانت تضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ، فتقصده الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وكان أبو عمرو بن العلاء يفضله على سائر الشعراء توفي نحو ٦٠٤م، الشعر والشعراء ٣٨، خزانة البغدادي ٢٨٧/١.

(٨) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: كرم البتاني، دار صادر بيروت، ص٨١.

فقال: وهذا التشبيه يجمع المقصودين من الظهور والمبالغة، أما الظهورُ فلأن علِمَ الناس بأن الليل لا بد من إدراكه له أظهرُ من علمهم بأن النُعمان لا بد من إدراكه له. وأما المبالغة فإن تشبيهه بالليل الذي لا يصُدُّ دونه حائلٌ أعظمُ وأفخمُ وأبلغُ في المدح "[١].

ويذهب الخفاجي إلى أن من محاسن التشبيه قول يزيد ابن عوف العُليمي[٢] يذكر صوتَ جَرْعِ رجلٍ قَراه اللبن.

فَعَبَ[٣] دِخالاً[٤] جَرْعُهُ متواترٌ كوقعِ السحابِ بالطِرَافِ[٥] المُمددِ[٦]

وقال: " وهذا تشبيهٌ جيدٌ لأنه شبه صوت اللبن على عصب المرِيء من حلق الإنسان بصوت المطر على الخباء المصنوع من الأدمِ، وذلك من أصحِ التشبيه، لأن المريء من جنس الأدم، واللبن من جنس الماء، فصوتاهما متشابهان، لأن السبب في اختلاف الأصوات تخالفُ الأجسام التي اتحدت فيها، والغرض في هذا التشبيه المبالغة "[٧].

ومن التشبيه المختار قول امرئ القيس[٨]:

كأنَ قلوبَ الطيرِ رطبًا ويابسًا لَدَى وَكرِهَا العُنَّابُ والحشفُ البالِي[٩]

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦٨.

(٢) يزيد بن عوف العُليمي ذكر في كتاب نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص١٠٩.

(٣) العبُّ: شرب الماء من غير مصٍ، وقيل: أن يشرب الماء ولا يتنفس.

(٤) الدّخال: في الورْدِ: أن يشرب البعير، ثم يُرَدُ من العطن إلى الحوض، ويدخل بين بعيري عطشانين ليشرب منه ما عساه لم يكن شرب.

(٥) الطراف: البيت المصنوع من الجلد، انظر لسان العرب، ابن منظور الإفريقي ٢١٩/٩، المعجم الوسيط، محمد النجار، دار الدعوة، مجمع اللغة العربية ٥٥٥/٢.

(٦) ورد البيت في نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص١٠٩.

(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦٨.

(٨) امرئ القيس سبقت ترجمته، ص ٢١

(٩) ديوان امرئ القيس، ص٣٨.

وهذا من التشبيه المقصود به إيضاح الشيء لأن مشاهدة العناب والحشف البالي أكثر من مشاهدة قلوب الطير رطبه ويابسه "[١].

وذكر الخفاجي التشبيه الذي يأتي بغير حرف كقول النابغة:

نظرتْ إليكَ بحاجةٍ لم تقضِها ... نَظَرَ المريضِ إلى وُجُوهِ العُودِ[٢]

وقوله أيضًا:

فإنكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ ... إذا طَلَعتْ لم يَبْدُ منهُنَ كوكبُ[٣]

وقول الوأواء الدمشقي[٤]:

فأسبَلتْ لؤلؤاً من نرجسٍ وسقَتْ ... وردًا وَعَضَّتْ على العُنابِ بالبَرَدِ[٥]

وأوضح ما يحتاج إليه التشبيه قائلاً: " ومما يحتاج إليه التشبيه أن يكون الأمرُ المشبهُ به واقعًا مشاهدًا معروفًا غير مُستنكرٍ، ليوافق ذلك المقصود بالتشبيه والتمثيل من الإيضاح والبيان ولهذا عاب نصيب على الكميت[٦] قوله:

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦٩.

(٢) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: كرم البُتاني، دار صادر بيروت، ص٤٠.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، دار صادر بيروت، ص١٨.

(٤) الدمشقي، الشاعر الوأواء الدمشقي هو محمد بن أحمد الغساني الدمشقي، يكنى أبا الفرج ويُعرف بالوأواء، وهو شاعر حلو الألفاظ، في معانيه رقه، كان مبدأ أمره مناديًا بدار البطيخ في دمشق، ينادى على الفواكه، وما زال يشعر حتى جاد شعره، وسار كلامه توفى ٣٨٥هـ، فوات الوفيات، محمد ابن شاكر الكتبي ٢٤٧/٢، الوافي بالوفيات، ابن أيبك الصفدي ٣٩/٢.

(٥) ديوان الوأواء الدمشقي، دار صادر بيروت، ص٩٢.

(٦) الكميت بن زيد من بني أسد، يكنى أبا المستهل، وكان أحمر، ومنزله بالكوفة، ومذهبه في التشيع ومدح آل البيت عليهم السلام في أيام بني أمية مشهور، وكانت بينه وبين الطرماح ابن حكيم من المودة والمخالطة ما لم يكن بين اثنين على تباعد ما بينهما في الدين والرأي، فقد كان الطرماح خارجيًا صفريًا.
الأغاني أبو الفرج الأصبهاني ١/٧، جمهرة أشعار العرب ٩٧٩/٣، معاهدة التنصيص، أبي أحمد العباسي١ /٨٤ سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ٣٨٨/٥.

كـأنَّ الغُطَـامِطَ مـن غَلِيهَـا أراجِيـزُ أسـلَمَ تَهجُـو غِفَـارَا[١]

وقال له: أخطأت، ما هجت أسلم، غفاراً قط، وأراد نصيبٌ من الكميت أن يكون شبه بشيءٍ واقعٍ معروفٍ،وهذا كما يقال: كأن مناقضةَ فلان وفلان مناقضةُ جرير والفرزدق، فيكون هذا الكلام صحيحًا، ولو قيل كأن مناقضتَهما مناقضةُ الأحوص وعمر ابن أبي ربيعة لم يكن ذلك التشبيهُ صحيحًا، إذ كان المشبه به لم يقع "[٢].

وقد كره الخفاجي قول علقمة بن عبدة[٣]:

كـأنَّ إبـرِيقَهُمْ ظبـيٌ علـى شَرَفٍ مُفـدَّمٌ بسَـبَا الكتَّـانِ ملـثُومُ[٤]

فقال: "علـى أن يكون "مفدَّم" من صفة الظبي، لأن الظبي لا يكون مفدَّمًا بسبا الكتان ملثومًا، فكأن التشبيه وقع بما لا يُشاهَد ولا يُعَّرف، وإن كان المفدَّمُ راجعًا إلى الإبريق فذلك صحيح"[٥].

أما رديء التشبيه عند ابن سنان فَكَقَوْلِ المرَّار[٦]:

---

(١) ديوان الكميت بن زيد الأسدي تقديم الدكتور داود سلوم، مكتبة الأندلس، بغداد ١٩٦٩م، ١/٢٥٠.
البيت: جعل الأراجيز التي شبهها في لقطها والتقامها بصوت غليان القدر لأسلم دون غفار " انظر الديوان، ص١/٢٥٠.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٧٦.

(٣) علقمة بن عبدة بن النعمان بن ناشرة بن قيس بن عبيد بن ربيعة الجوع بن مالك بن زيد مناة بن تميم... يكنى أبا الوضاح، ويقال له: علقمة الفحل، سمي بذلك لأنه خلف على امرأة امرئ القيس لما حكمت له على امرئ القيس بأنه أشعر منه في صفة فرسه، فطلقها، فخلفه عليها، وما زالت العرب تسميه بذلك.
الطبقات لابن سلام الجمحي ١/١٣٩، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٢١/٢٠٠، خزانة الأدب ابن عمر البغدادي، ٣/٢٨٢، معاهدة التنصيص، عبدالرحيم بن أحمد العباس، ١٧٥.

(٤) ديوان علقمة بن عبدة، ص٤٦.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٧٧.

(٦) المَرار بن سعيد بن حبيب بن فقعست. يكنى أبا حسّان هو من شعراء الدولتين الأموية والعباسية، كان قصيرًا مفرط في القصر، ضئيل الجسم وكان هو وأخوه لصين. الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٠/٣١٧، خزانة الأدب، البغدادي ٧/٢٥٢.

وَخَـالٍ علــى خَـدَّيكِ يبـدُو كأنَّــهُ   سَنَا البدرِ في دعجَاءَ بادٍ دُجُونُهَا(١)

لأن الخُدُودَ بيضٌ، والمتعارف أن يكون الخالُ أسودَ، فتشبيه الخدود بالليل والخال بضوء البدر تشبيه ناقضٌ للعادة "(٢) وقد ذهب الخفاجي إلى إظهار العلة البيانية في أن المشبه يجب أن يكون معروفًا واضحًا أبين من الشيء الذي يشبه فقال: " فما تقولون في قوله تعالى في شجرة الزقوم: ﴿ **إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ** ﴾(٣) ورؤوس الشياطين غيرُ مشاهدة، قيل: إن الزقومَ غيرُ مشاهد، ورؤوس الشياطين غير مشاهدة، إلا أنه قد استقر في نفوس الناس من قُبح الشياطين ما صار بمنزلة المشاهَد، كما استقر في نفوسهم من حُسن الحُورِ العين ما صار بمنزلة المشاهَد"(٤).

ومن طريف التشبيه عند الخفاجي قولُ ابن هَرمة:

وإنــي وتَركِــي نَــدى الأكــرمينَ   وَقَـدْحِي بكفـيِ زنـاداً شِـحَاحَا(٥)

كتاركـــةٍ بيضَـــهَا بـــالعَراءِ   ومُلبِسَـةٍ بيضَ أُخرى جَنَاحَها(٦)

وقول الفرزدق(١):

(١) الدجون والدجن: ظِل الغيم في اليوم المطير.
ذكر البيت في نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٢١٥، والصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ص٩٦.
(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٧٩.
(٣) سورة الصافات، الآية(٦٤، ٦٥).
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٧٩.
(٥) ابن هرمة سبقت ترجمته، ص ٥٤
(٦) ديوان ابن هرمة، تحقيق محمد جبار العبيد، مطبعة الآداب، النجف ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م، ص٨١.

وإنـكَ إذ تـهجُـو تميمًـا وتَرتشِـي ... سرابيلَ قيسٍ أو سُحُوقَ العَمـائمِ(٢)
كمُهريــقِ مــاءٍ بــالفلاةِ وغَــرَّهُ ... ســرابٌ أذاعَتــهُ ريــاحُ السَّــمائمِ

ويرى أن بيت بن هَرمة الثاني يليق ببيت الفرزدق الأول، وبيت الفرزدق الثاني يليق ببيت بن هَرمة الأول، حتى أن ابن هَرمة لو قال:

وإنـــي وتركـــي نـــدى الأكـــرمينَ ... وَقَـدحِي بكفِـي زنـاداً شِـحَاحَا(٣)
كمُهريــقِ مــاءٍ بــالفلاةِ وغــرَّهُ ... ســرابٌ أذاعتــه ريــاحُ الســمائمِ

والفرزدق لو قال:

وإنـكَ إذ تـهجُـو تميمًـا وتَرتشِـي ... سرابيلَ قيسٍ أو سُحُوقَ العمـائمِ(٤)
كتاركــــةٍ بيضَــــهَا بــــالعراءِ ... " وملبســـةٍ بـــيضَ أخــرى جَنَاحَــا

لكان كلُ واحد منهما قد شبه تشبيهًا واضحًا صحيحًا، فأما والشعرُ على ما هو عليه فإن التشبيه بعيد "(٥).

ومن هذه الموازنة الأدبية نفطن إلى أن الخفاجي كان دقيقًا في معرض صحة التشبيه وجماله وإظهار قبحه ورداءته، وذلك محاولة منه إلى إبراز صور التشبيه البلاغية الجميلة.

---

(١) الفرزدق هو همام بن غالب بن صعصعة، والفرزدق لقب غلب عليه، وتفسيره الرغيف الضخم، شبّه وجهه بذلك لأنّه كان غليظا جهما. انظر: الأغاني للأصفهاني، ٣٨٠/٩. طبقات فحول الشعراء لابن سلام، ٢٩٨/٢.

(٢) ديوان الفرزدق، تقديم الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، الطبعة الأولى، ص٦١٦.

(٣) ديوان ابن هرمة: ص٨١.

(٤) يضرب هذا البيت مثلاً لمن ترك ما يجب عليه الاهتمامُ به والجدُ فيه، واشتغلَ بما لا يلزمُه ولا منفعة له فيه: انظر تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية ٥٠١/٦. ديوان الفرزدق، ص٦١٦.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٨١.

المبحث الثاني

الاستعـارة

الاستعارة هي أحد الألوان البيانية اهتم بها البلاغيون والنقاد حيث درست بصورة واسعة مستفيضة، وجاء اهتمام العلماء بهذا اللون البلاغي لجماله وأثره في تحسين الأساليب.

وقد وصف القاضي الجرجاني الاستعارة قائلاً: " هي أحد أعمدة الكلام وعليها المعوَّل في التوسع والتصرف، وبها يتوصف إلى تزيين اللفظ وتحسين النظم والنثر "(١).

كما قال عنها عبد القاهر الجرجاني: " هي أمد ميدانًا، وأشد افتتانًا، وأكثر جريًا وأعجب حسنًا وإحسانًا وأوسع سعة وأبعد غورًا "(٢).

أما ابن سنان الخفاجي فقد أورد تعريف الرماني وأقره عليه قال: " قد حَدَّها أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، فقال:

"هي تعليقُ العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة "(٣).

قال: " وتفسير هذه الجملة: أن قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً** ﴾(٤) استعارة، لأن الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب.

فلما نُقل إليه بأن المعنى لما اكتسبه من التشبيه، لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس، ويسعى فيه شيئًا فشيئًا حتى يحيله إلى غير لونه الأول كان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب، وتسري حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة، فهذا هو نقلُ العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان.

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، صيدا، ص٣٥٥.
(٢) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص٣٢.
(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦٧.
(٤) سورة مريم، الآية (٤).

ولا بد من أن تكون أوضح من الحقيقة لأجل التشبيه العارض فيها، لأن الحقيقة لو قامت مقامها كانت أولى، لأنها الأصل، والاستعارة الفرع. وليس يخفى على المتأمل أن قوله عزّ اسمه:﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً** ﴾ أبلغُ من كَثُرَ شيبُ الرأس، وهو حقيقة هذا المعنى "[١].

كما استخرج عبد القاهر الجرجاني أروع ما في الاستعارة في قوله تعالى: ﴿ **وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً** ﴾[٢] قائلاً:

" أنا نعلمُ أن اشتعل للشيب في المعنى وإن كان هو للرأس في اللفظ كما أن طاب للنفس، وقر للعين وتصبب للعرق، وإن أُسند إلى ما أسندَ إليه يبينُ أن الشرف كان لأن سُلك فيه هذا المسلك، وتوخي به هذا المذهب أن تدع هذا الطريق فيه وتأخذ اللفظ فتسنده إلى الشيب صريحًا فتقول: اشتعل شيبُ الرأس والشيبُ في الرأس، ثم تنظر هل تجدُ ذلك الحسن وتلك الفخامة، وهل ترى الروعة التي كنت تراها، فإن قلت فما السبب في أن كان اشتعل إذا استعير للشيب على هذا الوجه كان له الفضل ولِمَ بان بالمزية من الوجه الآخر هذه البينونة، فإن السبب إنه يفيد مع لمعان الشيب في الرأس الذي هو أصل المعنى الشمول، وأنه قد شاع فيه وأخذه من نواصيه وأنه قد استغرقه وعم جملته حتى لم يبقى من السواد شيءٌ،أو لم يبق منه إلا ما لا يُعتد به، وهذا ما لا يكونُ إذا قيل اشتعل شيبُ الرأس أو الشيبُ في الرأس بل لا يوجبُ اللفظُ حينئذٍ أكثر من ظهوره فيه على الجملة.

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦٧.

(٢) سورة مريم، الآية (٤).

وَوِزانُ هذا أنك تقول اشتعل البيتُ نارًا فيكون المعنى أن النار قد وقعت فيه وقوع الشمول، وأنها قد استولت عليه وأخذت في طرفيه ووسطه، وتقول اشتعلت النارُ في البيت فلا يفيد ذلك بل لا يقضي أكثر من وقوعها فيه وإصابتها جانبًا منه، فأما الشمولُ وأن تكون قد استولت على البيت وابتزته فلا يعقل من اللفظ البتة "(١).

وقد فرّق الخفاجي بين الاستعارة والتشبيه ولكنه أيضًا استمد هذا الفرق بما ذكره الرماني قائلاً: " الفرق بينهما ما ذكره أبو الحسن: وهو أن التشبيه على أصله لم يُغيِّر عنه في الاستعمال، وليس كذلك الاستعارة، لأن مخرجَ الاستعارة مخرجٌ ما العبارة له في أصل اللغة "(٢).

وقد فطن القاضي الجرجاني إلى هذا الخلط الذي بين الاستعارة والتشبيه قائلاً: "وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه أو مثل، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعًا من الاستعارة عد فيها قول أبي نواس "(٣).

والحبُ ظهرٌ أنت راكبُه فإذا صرفتَ عِنانَهُ انصَرفَا(٤)

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت أن الحب مثل الظهر، أو الحب كظهرٍ تُديره كيف شئت إذا ملكت عِنانه "(٥).

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص٩٣.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦٨. النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ص٨٥.

(٣) أبو نواس هو الحسن بن هاني، مولى الحكم بن سعد العشيرة من اليمن، يكنى أبا نواس واشتهر بكنيته، وقد انقطع إلى والية بن الحباب الذي عني بتأدبه، فلما مات واليه لزم خلف الأحمر، فحمل عنه علمًا كثيرًا، وادبًا واسعًا (ت ١٩٨هـ) ويقال (ت٢٠٠هـ) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٤٣٦/٧، الفهرست، أبو الفرج بن النديم ٢٢٨.

(٤) ديوان أبي نواس، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م، الطبعة الأولى، ص٣٦٠.

(٥) الوساطة بين المتنبي وخصومه، علي بن عبد العزيز الجرجاني، ص٤٥.

ويرى ابن الأثير أن الخفاجي لم يفرق بين التشبيه المضمر لأداة وبين الاستعارة يقول: " ورأيت أبا محمد عبد الله بن سنان الخفاجي قد خلط الاستعارة بالتشبيه المضمر الأداة ولم يفرق بينهما وتأسى في ذلك بغيره من علماء البيان كأبي الهلال العسكري والغانمي وأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي "... ومما أورده بن سنان في كتابه الموسوم "سر الفصاحة" قول امرئ القيس في صفة الليل "(١):

فقلتُ لهُ لما تمطى(٢) بصُلبِهِ وأردفَ(٣) أعجازًا(٤) وناءَ(٥) بِكلكلِ(٦)

وهذا البيت من التشبيه المضمر الأداة المستعار له مذكور وهو الليل وعلى الخطأ في خلطه بالاستعارة "(٧).

ونجد الخفاجي قد فرق بين التشبيه المضمر الأداة وبين الاستعارة ولم يخلط بينها وأوضح ذلك في قوله: " وليس يقع الفرق عندي بين التشبيه والاستعارة بأداة التشبيه فقط، لأن التشبيه قد يَرِدُ بغير الألفاظ الموضوعة له، ويكون حسنًا مختارًا، ولا يعدُه أحدٌ في جملة الاستعارة لخلوه من آلة التشبيه ومن هذا قول الشاعر(٨):

---

(١) امرئ القيس سبقت ترجمته، ص ٢١

(٢) تمطى: تمدد.

(٣) الإرداف: الإتباع.

(٤) الأعجاز: المآخير الواحد عُجز – ناء: مقلوب نأى بمعنى بَعُدَ.

(٥) الكلكل: الصدر استعارة لليل صلبًا واستعار بطوله لفظ التمطى ليلائم الصلب، واستعار لأوائِله لفظ الكلكل، ولمآخيره لفظ الأعجاز– يقول: قلت لليل لما أفرط طوله، وناءَت أوائله، وازدادت أواخرُه تطاولاً، وطولُ الليل ينبئ عن مقاساة الأحزان والشدائد والسهر المتولد منها ".

(٦) ديوان امرئ القيس، دار الجيل، ص٤٢.

(٧) المثل السائر، ضياء الدين ابن الأثير، ٣٦٩/١.

(٨) الشاعر المحسن المجود أبو القاسم علي بن إسحاق بن خلف شاعر بغدادي، كان وصافًا محسنًا كثير الملح حسن الشعر في التشبيهات وكان قطانًا وكانت دكانه في قطيعة الربيع مات شابًا في جمادى الآخر سنة اثنين وخمسين وثلاث مئة مدح الوزير المهلب وسيف الدولة. انظر وفيات الأعيان ابن خلكان ٣٧٢/٣، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي ٦٣/٢، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١١١/١٦.

سَـفَرنَ بُـدُورًا وانتقـبنَ أَهِلـةً   وَمِسـنَ غُصُـونًا والتَفَـتْنَ جـآذرًا[١]

وقولُ الآخر[٢]:

وأَسـبَلَت لُؤلُـؤًا مـن نـرجسٍ فَسَـقَت   وردًا وعضَـتْ علـى العُنَّـابِ بـالبَرَدِ[٣]

وكلاهمـا تشـبيهُ محـضٌ، ولـيس باسـتعارة، وإن لـم يكـن فيهمـا لفـظٌ مـن ألفـاظ التشبيه "[٤].

ومما يؤيد ما ذهب إليه ابن سنان ما قاله ابن المعتز في كتابه البديع: " ومن الاستعارة قول امرئ القيس من الطويل:

فقلـتُ لـه لمـا تمطَّـى بصُـلبِهِ   وأردفَ أعجـازًا ونـاَء بكلكـلِ[٥]

هذا كله من الاستعارة لأن الليل لا صلب له ولا عجز "[٦].

---

(١) نسب البيت إلى علي بن إسحاق بن خلف المعروف بأبي القاسم الزاهي المتوفي ٢٦١هـ، وذلك في معاهدة التنصيص، عبد الرحيم بن أحمد العباس، ٨٣/٢، وسير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ١١١/١٦، ووفيات الأعيان، ابن خلكان ٣٧٣/٣، النجوم الزاهرة، ابن تغري بردي ٦٤/٤.

(٢) هو الشاعر الوأواء الدمشقي سبقت ترجمته ص. ٩١

(٣) ديوان الوأواء الدمشقي، تحقيق: سامي الدهان، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ- ١٩٩٣م، ص٩٢، وجاء البيت كالآتي:

وحـاذَرَتْ أعـيُنَ الواشـينَ فانصـرفتْ   تَعَـضُ مـن غيظهـا العنَّـابَ بـالبَرَدِ

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦٩.

(٥) ديوان امرئ القيس، دار الجيل، ص٤٢.

(٦) البديع، عبدالله بن المعتز، (٢٩٦)هـ، نشر إغناطيوس كراتشقوفسكي، مكتبة المتنبي ببغداد ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م، ص٧.

و ذلك ما ذهب إليه ابن رشيق حيث قال: " فاستعار لليل صلبًا يتمطى به، وأعجازًا يردفها وكلكلاً ينوء به "(١)، وبين الخفاجي أصول الاستعارة قائلاً: " ولا بد للاستعارة من حقيقة هي أصولها. وهي مستعار، ومستعار منه "(٢).

وهذا التقسيم سبقه إليه الرماني ولكنه أضاف أنها على ضربين: قريب مختار، وبعيد مطرح، فالقريب المختار ما كان بينه وبين ما استعير له تناسب قوي وشبهٌ واضح، والبعيد المطرح إما أن يكون لبعده مما استعير له في الأصل، أو لأجل أنه استعارةٌ مبنية على استعارة فتضعف لذلك، والقسمان معًا يشملهما وَصفي بالبعد "(٣).

وقد قام ابن سنان بجهود علمية تطبيقية رائعة على ما أورده من الإطار النظري في دراسته للاستعارة، وذلك بتحليل النصوص الأدبية وعقد الموازنات العديدة منها قال: وقد كنتُ مثلتُ في بعض المواضع الاستعارة المحمودة والمذمومة ببيتين أحدهما قول أبي نصر بن نباته(٤):

حتى إذا بُهرُ الأباطحِ والرُبا   نظرتْ إليكَ بأعيُنِ النُوارِ(٥)

فنظر أعين النوار من أشبه الاستعارات وأليقها، لأن النوار يُشَبه بالعيون، وإذا كان مقابلاً للمجتاز به، ويمرُ به، كان كأنه ناظر إليه، وهذه الاستعارة الصحيحة الواضحة الشبه "(٦) والبيت الثاني قول أبي تمام(٧):

---

(١) العمدة في نقد الشعر، ابن رشيق القيرواني، ت ٤٦٣هـ، شرح الدكتور عفيف نائف، دار صادر بيروت ١٤٢٦هـ-٢٠٠٦م. ٢٣١/١.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٧٠، النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ص٨٩.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٧٠.

(٤) نصر بن نابته سبقت ترجمته، ص ١٦

(٥) ديوان نصر بن نباته، تحقيق: عبد الأمير مهدي حبيب الطائي، وزارة الأعلام، العراق، ١٩٧٧م ٤٨٣/٢.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٧٦.

(٧) سبقت ترجمته، ص ١٧

قَرَّتِ بقُرانَ[١] عينُ الدينِ وانشَتَرَتْ[٢]   بالأشتَرَينِ عيُوُنُ الشركِ فاصطُلِمَا[٣]

وقُرَةُ عين الدين وانشتارُ عيون الشرك من أقبحِ الاستعارات، لعدم الوجه الذي من أجله جعل للدين والشرك عيونًا، ومع تأملِ هذين البيتين يُفهم معنى الاستعارة، لأن النوارَ والشرك لا عيون لهما على الحقيقة، وقد قبحَتِ استعارةُ العيونِ لأحدهما وحَسُنَتْ للآخر، والعلة فيه أن النوار يُشبه العيون، والدين والشرك ليس فيهما ما يشبهما ولا يقاربُهما، وهذه طريقةٌ متى سُلكت ظهر المحمودُ في هذا الباب من المذموم "[٤].

فأما قول الشريف الرضي[٥]:

الحـــبُ داءٌ يضـــمحِلُ كأنمـــا   تَرغُـو رَوَاحِلُـهُ بغيـرِ لُغَـامِ[٦]

فقريبٌ من قول زهير: " أفراسُ الصبا وَرَوَاحِلُهْ "[٧] لكنه أبعدُ منه، لأنه بنى عليه أمرًا آخر غير قريب، وهو قوله: إن رواحله ترغو ولا لُغَامَ لها، وهذا المذهبُ الرديءُ في الاستعارة على ما قدمناه"[٨] ويستحسن الخفاجي الاستعارة في قول الشريف الرضي:

---

(١) بُقرَّان، قران اسم وادي قرب الطائف، وقرية باليمامة، وقيل بين مكة والمدينة، معجم البلدان، ياقوت بن عبدالله الحموي، ٣١٨/٤.

(٢) الشتر: انقلاب في جفن العين من أعلى إلى أسفل، لسان العرب ابن منظور الإفريقي ٣٩٣/٤.

(٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبيتري، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٦٩/٢.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٧٦.

(٥) الشريف الرضي، سبقت ترجمته، ص ٦٥

(٦) ديوان الشريف الرضي، طبعة وزارة الإرشاد الإسلامي (إيران) الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، ٣٣٤/٢.

(٧) بيت زهير:

صـحا القلـبُ عـن سـلمى وأقصـر باطلُـه   وَعُـــريَ أفـــراسُ الصَّـــبَا وَرَوَاحلُـــهْ

ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر بيروت، ص٦٤، المعنى أقصر: كف، يريد أن قلبه صحا عن حب سلمى وكف صباه ولهوه، وعريت أفراس ورواحل كان يركبها في الصبا وطلب اللهو، انظر الديوان، ص٦٤.

(٨) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٧٧.

أرسَى النسيمُ بِوَادِيكُمْ ولا بَرِحَتْ حَوامِلُ المُزنِ في أجدَاثِكُم تَضَعُ[١]
ولا يزالُ جَنينُ النبتِ تُرْضِعُهُ على قبورِكُمُ العَرَّاصةُ الهَمِعُ

قائلاً: " فمن أحسن الاستعارات وأليقِها، لأن المزنَ تحمل الماء، وإذا هملت وضعته، فاستعارةُ الحملِ لها والوضع المعروفين من أقرب شيء وأشبهه، وكذلك قوله: "جنين النَّبت "، لأن الجنين المستورُ ومنه الجُنةُ، وإذا كان النبتُ مستورًا، والغيثُ يسقيه كان ذلك بمنزلة الرَّضاع، وكانت هذه الاستعارات من أقرب ما يقال وأليقه "[٢].

ومن أقبح الاستعارة عند الخفاجي قول أبي تمام:

يا دهرُ قَوِّم من أَخدَعَيكَ فَقَد أضجَجتَ هذا الأَنامَ من خُرَقِكْ[٣]

وقوله:

فضَربتَ الشتاءَ في أخدَعيهِ ضربةً غادَرَتهُ عَوْدًا ركُوبا[٤]

وقوله:

سأشكُرُ فَرجَةَ اللبِ الرَّخِيِّ ولِينَ أَخادِعَ الدَّهرِ الأَبيِّ[٥]

فيقول الخفاجي: " فإن أخادعَ الدهرِ والشتاءِ من أقبح الاستعارات، وأبعدِها مما استعيرت له، وليس بقبح ذلك خفاءٌ، ولا يعرف أبو تمام الوجه الذي لأجله جعل للشتاء والدهر أخادع إلا سوء التوفيق في بعض المواضع "[٦].

---

(١) ديوان الشريف الرضي، ٦٤٨/١.
(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٧٨.
(٣) ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام، الطبعة الرابعة، ٤٠٥/٤.
ا الأجدعان: عرقان في العنق يقال للرجل إذا كان أبيًا صعبًا إنه شديد الأخدع انظر هامش الديوان، ص١٦٦.
(٤) ديوانه، ص١٦٦.
(٥) ديوانه، ص٧٧.
(٦) سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي، ص١٧٩.

ويستحسن الخفاجي الاستعارة في قول الشريف الرضي[(١)]:

ومـا نُطفــةٌ مشــمُولةٌ بمَجَمَــةٍ   وعَاهَا صفًا من آمِنِ الطَّودِ فارِعُ[(٢)]

من البِيضِ لولا بَردُهَا قُلتُ دمعةٌ   مُرنَّقــةٌ مــا أســلَمَتْهَا المَــدَامِعُ

وقد علل حسنها بقوله: " لأنه استعار لأعلى الجبل الآمن عبارة عن الارتفاع وتعذُّرِ الوصول إليه، وهذا لائقٌ محمود في الصناعة ومعلومٌ عند أهلها، وما زلتُ أسمع أبا العلاء يقول: إن من الشعر ما يصل إلى غايةٍ لا يمكن تجاوزُها، وهذا البيتُ عندي من ذلك القبيل حُسنًا وصحةً وعذوبة لفظ "[(٣)].

ويعلل الخفاجي حسن الاستعارة في قول الأمير أبي الحسن علي بن مُقلد بن منقذ[(٤)]:

لا يحفظُونَ سِوى أسمالِ زادِهِمُ   ولا يُضيعُونَ إلا حُرمـةَ الجـارِ[(٥)]

بقوله: " لأن الأسمال " الأخلاق " وإذا استعيرت لبقية الزاد وفَضلَته، كانت من أحسن شيء وأليقِهِ وأقربِهِ إلى الحقيقة، والجامع بينهما أن كلاً منهما غبرٌ وعقابيلُ قد أنهجت جِدَّته، وذهب أكثرُه وهو معرَّض للنبذ، ومنسوبٌ إلى الاطِّراحِ والرفضِ "[(٦)].

---

(١) الشريف الرضي، سبقت ترجمته.ص٦٥

(٢) ديوان الشريف الرضي، ٦٥٩/١.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٩٣.

(٤) هو علي بن مقلد بن منقذ بن نصر بن منقذ الكناني، الأمير سديد الملك صاحب شيرز، يكنى أبا الحسن، كان بطلاً شجاعًا، جوادًا فاضلاً، وكان أول من ملك شيزر من بني منقذ، لأنه كان نازلاً مع عشيرته بالقرب من حصن شيزر الذي كان في يد الروم، فنازلهم، وتسلمه بالأمان، ودام لبنيه حتى تهدم بالزلزلة عام ٥٥٢ وقيل إنه مات في الزلزلة، وقيل مات عام ٥٥٥هـ.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن خلكان ٤٠٩/٣، النجوم الزاهرة ابن تغري بردي ١١٣/٥، سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ٥٥٣/١٨.

(٥) لم أعثر على البيت في مصادر الترجمة ولا في غيرها من كتب الأدب.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٩٥.

ونرى أن الخفاجي قد عرض الإستعارة بطريقة مجملة حيث ولم يقسم مباحثها، ولكنه من الذين فطنوا إلى حسن الإستعارة وقاموا على بحثها، وبذلوا جهودا مقدرة في دراستها وتلك الجهود أفاد منها البلاغيون من بعدهم وتوسعوا فيها حتى وصلت بفضلهم إلى ما وصلت إليه من التفريع والتقسيم.

المبحث الثالث

الكنايـة

لم يأت الخفاجي بتعريف للكناية بل أخذ يعالج هذا النوع البلاغي تحت دراسة تحليلية لصور أدبية كثيرة يشير من خلالها إلى بلاغتها وجمالها وحسنها، وأيضًا ما كان منها مستهجنًا غير مقبول.

يقول: " ومن هذا الجنس حسنُ الكناية عمّا يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسُن فيه التصريح، وذلك أصلٌ من أصول الفصاحة، وشرطٌ من شروط البلاغة، وإنما قلنا في الموضع الذي لا يحسُن فيه التصريح،لأن مواضع الهزل والمجون وإيراد النوادر يليق بها ذلك، ولا تكون الكناية فيها مرضية، فإن لكل مقام مقالاً ولكل غرض فنًا وأسلوبًا"[١].

ومن المستحسن من الكنايات عنده ما روى عن أبي الحسين جعفر ابن محمد ثوابة[٢] أنه لما أجاب أبا الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون[٣] عن المعتضد بالله من كتابه بإنفاذ ابنته التي زوَّجها منه قال في الفصل الذي احتاج فيه إلى ذكرها:

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٤١.

(٢) هو جعفر بن محمد بن خالد بن ثوابة، وكنيته أبو الحسين، ويطلق عليه أبو الحسين الكاتب الإسكافي، أحد البلغاء الفصحاء، تولى ديوان الرسائل في أيام عبيد الله بن سليمان الوزير في عهد المعتضد العباس، توفي سنة ست عشرة وثلاث مائة. الوافي بالوفيات، ابن أيبك الصفدي ٢/٢٢٣، معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١/٥٧٢.

(٣) خمار بن أحمد بن طولون المعروف بخمارويه أبو الجيش الأمير بن الأمير ولى إمرة دمشق ومصر والثغور بعد أبيه أحمد بن طولون وكان جوادًا ممدحًا قتل بدمشق آخر ذي القعدة سنة ثلاث وثمانين ومأتين.
تاريخ مدينة دمشق، علي بن الحسن بن وهبة الشافعي، ١٧/٤٥، نزهة الألباب في الألقاب، ابن حجر العسقلاني ١/٢٤٦، مولد العلماء ووفياتهم، هبة الله بن أحمد ت (٦٤٩هـ) ابن محمد بن هبة الله بن الأكفاني، تحقيق: الدكتور عبدالله بن أحمد بن سلمان، دار العاصمة–الرياض ١٤٠٩هـ، الطبعة الأولى ١/٢٤٦.

وأما الوديعةُ فهي بمنزلة ما انتقل من شمالك إلى يمينك، عنايةً بها، وحياطةً لها، ورعايةً لَموَاتِّك فيها "(١).

وقال للوزير أبي القاسم عبيد الله بن سليمان بن وهب(٢): والله إن تسميتي إياها بالوديعة نصفُ البلاغة، واستُحسنت هذه الكناية حتى صار الكتاب يعتمدونها "(٣).

ومن حسن الكناية عند الخفاجي في النظم قول أبي الطيب(٤):

تَدعِي ما ادعيتَ من ألمِ الشوقِ إليها والشوقُ حيثُ النُخُولُ(٥)

لأنه كَنَى عن كذبها فيما ادعته من شوقها بأحسن كناية "(٦).

وكذلك قوله:

لو أنَّ فَنَّا خُسْرَ(٧) صَبحَكُمْ وَبَرزْتِ وَحدَكِ عاقَهُ الغَزَلُ(٨)

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٤٢".لمواتك" جاءت في زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري ٢٧٧/١ "لمودتك" ،وفي يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر، لابن اسماعيل الثعالبي ٣١٥/١ "لموالاتك".

(٢) أبو القاسم هو عبدالله بن سليمان بن وهب، يكنى أبا القاسم، وهو وزير المعتضد ومن ممدوحي ابن المعتز، كان شهمًا مهيبًا، شديد الوطأة، قوي السطوة، ناهضًا بأعباء الأمور، وبلغ من الرتبة ما لم يبلغه وزير، وكان عديم النظير في السياسة والتدبير وهو الذي قال فيه ابن المعتز قد استوى الناس ومات الكمال توفي سنة ثمانية وثمانين ومأتين، الوافي بالوفيات، ابن أيبك الصفدي ٢٤١/٤، فوات الوفيات، ابن شاكر الكتبي ٤٩/٢، سير أعلام النبلاء، ابن قيماز الذهبي ٤٩٧/١٣.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٤٢.

(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي، دار مكتبة الهلال ٢٢٣/٢.

(٥) ويروى من طرب الشوق، أي أن الحبيبة تشتكي من الشوق إلى مثل ما اشتكيت من الشوق إليها ثم كنى عن تكذيبها في هذه الشكوى فقال: الشوق إنما يكون حيث يكون النحول أي هو عنده دونها " انظر العرف الطيب في شرح ديوان المتنبي، الشيخ ناصف اليازجي، دار مكتبة الهلال ٢٢٣/٢.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٤٤.

(٧) فناخسر: اسم عضد الدولة، أي لو أتاكم هذا الملك صباحًا للغارة وتعرضت له مع عفته وتوفره على تدبير الملك لمال إلى محادثتك فعاقه ذلك عن مباشرة الحرب. انظر العرف الطيب في شرح ديوان المتنبي ٣٨٠/٢.

(٨) ديوان المتنبي، دار مكتبة الهلال ٣٨٠/٢.

لأنــه أراد "انهـزم" فكنــي عـن هزيمتــه "بعاقــة الغـزل" وتلـك أحســن كنايــةٍ فــي هـذا الموضع "[١].

ونـوّه الخفاجي إلـى أن بعض المفسرين قد ذهبوا إلـى أن قولـه تعـالى: ﴿ **كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ**﴾[٢] كنايةٌ عن الحدث وليس الأمرُ على ما قالوا بل معنى الكلام على ظاهره، لأنـه كما لا يجوز أن يكون المعبود محدثًا كذلك لا يجوز أن يكون طاعمًا، وهذا شيء ذكره أبو عثمان الجاحظ "[٣].

وتحدّث الخفاجي عن الإرداف[٤] وهو عند المتأخرين لون من ألوان الكناية فيقول: " ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن تُراد الدلالة على المعنى، فلا يستعمل اللفظُ الخاص الموضوع لـه في اللغة، بل يُؤتي بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة، فيكون في ذكر التابع دلالـةٌ على المتبوع، وهذا يسمى "الإرداف" و"التتبيع" لأنـه يُؤتي فيه بلفظ هو ردف اللفظ المخصوص بذلك المعنى وتابعه"[٥].

يقول الحموي: " الكنايـة هـي الإرداف بعينـه عنـد علمـاء البيـان، وإنما علمـاء البـديع أفردوا الإرداف عنها، وهي أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو ردفه فيومئ إليه ويجعله دليلاً عليه "[٦].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٤٤.

(٢) سورة المائدة، الآية(٧٥).

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٤٥.

(٤) ذكر ابن الأثير في المثل السائر ١٨٧/٢ أن الكناية تنقسم أقسامًا ثلاثًا تمثيلاً وإردافًا ومجاورة.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ٣٤٢.

(٦) خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شفيو، مكتبة الهلال- بيروت ١٩٨٧م، الطبعة الأولى ٢٦٣/٢.

ومثّل الخفاجي للإرداف بقول عمر بن أبي ربيعة(١):

بعيدةُ مهَوى القُرطِ إما لنِوفلٍ　　　أبُوهَا وإمَّا عبدُ شمسٍ وهاشمُ(٢)

فقال: " فإنه إنما أراد أن يصف هذه المرأة بطول العنق، فلو عبّر عن ذلك باللفظ الموضوع له لقال: طويلة العنق فعَدلَ عن ذلك، وأتى بلفظ يدل عليه، وليس هو الموضوع له فقال: بعيدة مهوى القرط، فدل بُعد مهوى قرطها على طول الجِيد، وكان في ذلك من المبالغة ما ليس في قوله: طويلة العنق، لأن بُعد مهوى القرط يدل على طولٍ أكثر من الطول الذي يدل عليه طويلة العنق، لأن كل بعيدة مهوى القرط طويلةُ العنق وليس كلُ طويلة العنق بعيدة مهوى القرط، إذا كان الطول في عنقها يسيرًا "(٣).

واستشهد أيضًا بقول امرئ القيس(٤):

وَيُضحِي فتيتُ المسكِ فوقَ فِراشِهَا　　　نَؤُومُ الضُحَى لم تَنْتَطِقْ عن تَفَضُلِ(٥)

فقال: " فإنه لما أراد أن يصف ترفُّه هذه المرأة ونعمتها قال: نؤوم الضحى، يبقى فتيتُ المسك فوق فراشها، لم تنتطق لتخدم نفسها، فعبر بذلك عن غناها وترفهها، وخفضِ عيشها، وأتى بألفاظ تدل على ذلك أبلغَ مما يدل عليه قوله إنها غنية مُرفهةٌ "(٦).

---

(١) عمر بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزومي، يكنى أبا الخطاب، ولد ليلة توفي عمر بن الخطاب فقيل: أي حق رُفع وأي باطل نزل، وهو من أرق شعراء الغزل، وكانت له خبرة في الحديث بلسان المرأة عن أحاسيس المرأة، نفاه عمر بن عبدالعزيز إلى " دهلك "، ويقال: إنه إذا بعد ذلك في البحر فاحترقت به السفينة، ت (٩٣هـ).
الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١/١٥٧، وفيات الأعيان، ابن خلكان ٣/٤٣٦. خزانة الأدب، ابن عمر البغدادي ٢/٣٢، سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ٤/٣٧٩.

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة، تحقيق الدكتور فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ١٩٨٠م ٢/٣٠٧، نوفل وعبد شمس، وهاشم من أشراف بطون قريش، انظر الديوان ١/٣٠٧.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٢.

(٤) ديوان امرئ القيس، دار الجيل، بيروت، ص٤٠.

(٥) تفضُلِ: لبس الفضلة وهو ثوب واحد يُلبس للخفة في العمل، أو للنوم، انظر هامش الديوان، ص٤٠.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٣.

ونرى أن الخفاجي يذهب إلى أن الكناية والإرداف مترادفان ولم يفرق بينهما، ويذهب السكاكي إلى أن: " متى كانت الكناية عرضية كان إطلاق اسم التعريض عليها مناسبًا"[(١)].

ونجد ابن المعتز في كتابه " البديع " عقد فصلاً تحت مسمى " التعريض والكناية "[(٢)] ويعني ذلك أن ابن سنان يتأسى بمن سبقوه من العلماء أمثال ابن المعتز، وأيضًا العسكري قد ذهب في هذا الاتجاه "[(٣)].

وقد نبّه الخفاجي إلى أن أصحاب صناعة البلاغة يذكرون هذا اللون البلاغي ولا يشرحون العلة في سببه وحُسنِه وما فيه من المبالغة، وقال: ومنه في النثر :قولُ أعرابية وصفت رجلاً فقالت: " لقد كان فيهم عمارٌ وما عمارٌ طلاَبٌ بأوتار، لم تُخمد له قط نار "[(٤)] فأرادت بقولها: "لم تخمد له قط نار" كثرة إطعامه الطعام، فلم تأت بذلك اللفظ بعينه، بل بلفظ هو أبلغ في المقصود، لأن كثيرًا ممن يطعم الطعام تخمد ناره في وقت "[(٥)].

وكذلك قول الأخرى: له إبل قليلات المسارح، كثيرات المبارك، إذا سمعن صوت المِزهر أيقنَّ أنهنَّ هوالكُ "[(٦)].

---

(١) مفتاح العلوم، تأليف أبي يعقوب يوسف بن محمد بن علي السكاكي، ت(٦٢٦هـ) تحقيق: الدكتور عبدالحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م الطبعة الأولى، ص٥٢١.

(٢) البديع، ابن المعتز، ص١٧.

(٣) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص٣٥٢.

(٤) لم أجده فيما يتوفر من المصادر.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٤.

(٦) عن عائشة رضي الله عنها قالت: جلسن إحدى عشرة امرأةً فتعاهدنَ وتعاقدنَ أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا قالت: قالت الأولى... الخ ". صحيح البخاري، تح: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة-بيروت- ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ط١، ١٩٨٩/٥م.

فأرادت أن هذا الرجل ينحر إبله فقلَّ ما تسرح وتبعد في المرعى، لأنه لا يبركها بفنائه،ليقرب عليه نحرُها للضيوف، والمزهر: العود الذي يُغني به، فإذا سمعتِ الإبلُ صوتَه أيقنت أنها هوالكُ، لما قد اعتادته من نحرِه لها إذا سمع الغناءَ وانتشى، وذلك لا تعتاده الإبل وتفهمه إلا مع الاستمرار والدوام، وهذا كله أبلغُ من قولها: إنه ينحر الإبل على ما قدمناه وبيناه "[١].

والمستقبح من الكناية عند ابن سنان قول الشريف الرضي يرثي والدته:

كان ارتِكاضِي في حَشَاكِ مُسببًا رَكْضَ الغليلِ عليكِ في أحشائي[٢]

وقال: " وإذا تأملت هذين البيتين عبَّرا عمَّا لا يجب أن يكنَّى عنه فأتيا بألفاظ يجب أن يكنَّى عنها "[٣].

أشاد العلماء في القديم والحديث ببلاغة الأسلوب الكنايي.

يقولٍ الدكتور حفني شرف: " ومن أسباب بلاغة الأسلوب الكنايي أنه يضع لك المعنويات في صور المحسوسات، ولا شك أن هذه ميزة الفنون، فإن المصور إذا رسم لك صورة للأمل أو اليأس بهرك وجعلك ترى ما كنت تعجز عن التعبير عنه واضحًا ملموسًا، وذلك لأن المعاني الكلية مستنتجة من الجزئيات المحسوسة، ومجردة عنها، وهذه المعاني المجردة لا يدركها العقل واضحة إلا إذا صوّر لنفسه محسوسات جزئية تكفي عنه، لانتزاع صورة مجردة عنها، وإلا فلا يتصور من اللفظة الموضوعة لها إلا صورة إجمالية حيث لا يتأثر عند سماعها إلا مساعدة انفعال يصاحب صورتها المجملة ويقترن بها أحيانًا "[٤].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٥.

(٢) ديوان الشريف الرضي، ٣٢/١

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٥.

(٤) التصوير البياني، دكتور حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، الطبعة الثانية، ص٢٢٩.

ونجد دراسة الخفاجي لهذا اللون البلاغي قد تميزت بالعمق والتحليل، فإنه مع تحليله للنصوص الأدبية وبيان موضع الكناية فيها كشف عن محاسنها وبلاغتها، والقبيح منها والمستحسن، ويعتبر حسنها أصلاً من أصول الفصاحة، لذا نراه قد عرض لها في مقامين الأول: في إطار وضع الألفاظ موضعها، والثاني: جعلها نعتاً من نعوت البلاغة والفصاحة.

المبحث الرابع

التمثيل

تحدَّث الخفاجي عن التشبيه والتمثيل ولم يفرق بينهما وإن كان لم يُعرِّف التمثيل وإنما ذكره قائلاً:

" ومن نعوت الفصاحة والبلاغة أن يراد معنىً فتوضع ألفاظٌ تدل على معنى آخر، وذلك المعنى مثال للمعنى المقصود، وسبب حُسن هذا _ مع ما يكون فيه من الإيجاز_أن تمثيل المعنى يوضحه ويخرجه إلى الحس و المشاهدة، وهذه فائدة التمثيل في جميع العلوم، لأن المثال لا بد من أن يكون أظهرَ من الممثَّل، فالغرض بإيراده إيضاحُ المعنى وبيانُه "(١).

وقد أفاد الخفاجي من قدامة بن جعفر الذي جعل التمثيل من نعوت ائتلاف اللفظ مع المعنى، فعَّرفه بأنه:

" أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلامًا يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عمَّا أراد أن يشير إليه كقول الشاعر(٢).

ألم تكُ في يُمنَى يَديكَ جعلتنِي　　　فلا تَجعلنِي بعدَهَا في شِمَالِكا(٣)

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٦.

(٢) الرماح بن مياده هو الرماح بن أبرد- أو الرماح بن يزيد- وهو من بني مرة بن عوف، وميادة أمه ويكنى أبا شرحبيل، مدح الوليد بن يزيد وكان وفيًا له حتى قيام الدولة العباسية، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٢٥٦/٢، معجم الأدباء ياقوت الحموي ١٤٣/١١، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ابن عمر البغدادي ١٦٠/١.

(٣) شعر الرماح بن ميادة، ص١٨٢.

فعدل أن يقول إنه كان عنده مقدمًا، فلا يؤخره، أو مقربًا، فلا يبعده أو مجتبى، فلا يجتنبه، إلى أن قال: إنه كان في يمنى يديه، فلا يجعله في اليسرى، ذهابًا نحو الأمر الذي قصد الإشارة إليه بلفظ ومعنى يجريان مجرى المثل له، وقصد الإغراب في الدلالة والإبداع في المقالة "(١).

وقال الخفاجي: " فأراد إني كنتُ عندك مقدمًا فلا تُؤخرني، ومقربًا فلا تُبعدني، فَعَدَلَ في العبارة عن ذلك إلى أني كنتُ في يمينك، فلا تجعلني في شمالك، لأن هذا المثال أظهر إلى الحِسِّ "(٢).

وقد احتفى بالتمثيل فساق الأمثلة المتنوعة المعبرة عن مواقع هذا اللون محللاً وشارحًا ومن أمثلته التي أوردها قول الشاعر(٣):

تَركــتُ يــديَّ وشــاحًا لــهُ ... ويعــضُ الفَــوارِسِ لا يَعتنِــقْ(٤)

فعبَّر عن قوله: "عانقته" بأنني: "تركت يدي وشاحًا له"، فأوضح المعنى حين جعل له مثالاً معروفًا مشاهدًا "(٥).

ومنه قول زهير(٦):

---

(١) نقد الشعر قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص١٥٩.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٦.

(٣) نسب البيت إلى المهلهل في محاضرات الأدباء ومحاورات الشعر والبلغاء: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، تحقيق عمر الطباع، دار القلم، بيروت ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، ١٤٨/٢.

(٤) جاء البيت دون نسبة في كل من الآتي البيان والتبيين، الجاحظ ٥٠٤/١، الحيوان، الجاحظ ٤٢٥/٦، الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص٣٥٦، العمدة، ابن رشيق القيرواني، ص٢٥٥.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٧.

(٦) زهير ابن أبي سلمى سبقت ترجمته، ص ٤٠

ومَنْ يَعصِ أطرَافَ الزِجاجِ[١] فإنَّهُ   يُطيعُ العواليِ رُكبَتْ كُلَ لَهَذَمِ[٢]

لأنه عدل عن قوله: ومن لم يطع باللين أطاع بالعنف، إلى أن قال: ومن لم يطع زجاجَ الرماح أطاع الأسنة، وكان في هذا التمثيل بيانُ المعنى وكشفهُ "[٣].

أورد الخفاجي من أمثلة ذلك في النثر: " ما كتب به الوليد بن يزيد[٤] لما بويع إلى مروان بن محمد[٥] وقد بلغه توقُّفه عن البيعة له: أما بعد، فإني أراك تقدمِّ رجلاً وتؤخر أخرى فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام ".

" فعبَّر عن مراده بمثال أوضحه وأوجزه "[٦].

---

(١) الزجاج: جمع زج وهو الحديدة التي تركب في أسفل الرمح، والزج تركز به الرمح في الأرض: والسنان يطعن به، فمن أبى الصلح وهو الزج الذي لا طعن به أعطى العوالي وهي التي بها الطعن، أعجاز القرآن، الباقلاني، ص٧٩.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر بيروت، ص٨٨.

وفي شرح الديوان، ومن عصي أطراف الزجاج أطاع عوالي الرماح التي ركبت فيها الأسنة الطوال، وتحرير المعنى: من أبى الصلح ذللته الحرب ولينته، وقوله يطيع العوالي، كان حقه أن يقول: يطيع العوالي بفتح الياء ولكنه سكن الياء لإقامة الوزن وحمل النص على الرفع والجر لأن هذه الياء مسكنة فيهما، ص٨٨.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٧.

(٤) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ابن مروان أبي الحكم أبو العبّاس الأموي الدمشقي بويع له بالخلافة بعد عمّه هشام في السنة الخالية بعهد من أبيه، وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي وكان مولده سنة تسعين وقيل ثنتين وتسعين وقيل سبع وثمانين، وقتل يوم الخميس لليلتين بقيتا في جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة ووقعت بسبب ذلك فتنة عظيمة بين الناس، وكان زنديقًا فاسقًا " البداية والنهاية، ابن كثير القرشي ٦/١٠، العبر في خبر من غبر، الذهبي ١٦١/١، الكامل في التاريخ، ابن مكرم الشيباني ٢٥٨/١.

(٥) مروان بن محمد بن محمد بن الحكم يقال له مروان الجعدي ويلقب بحمار الجزيرة وكانت بنو أمية يكرهون الإماء لأنه بلغهم أن ذهاب ملكهم على رأس أمة ومروان أمه كردية، وقيل له الجعدي لأن جعد ابن درهم الزنديق، وبويع سنة سبع وعشرين وصار الأمر إلى بني العبّاس وقتل مروان في سنة اثنتي وثلاثين ومائة. البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي ٥٤/٦.

البداية والنهاية، ابن كثير القرشي ١٢/١.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٧.

ومنه أيضًا ما كتب به الحجاج[١] إلى المهلب[٢] حين حضّه على قتال الأزارقة وتوعّده له حيث قال: فإن أنت فعلتَ ذلك، وإلا شرعتُ إليك صدرَ الرمح، فأجابه المهلب وقال: فإن شرع الأمير إليّ صدرَ الرمح قلبتُ له ظَهرَ المجَنّ " وهذا كله إنما حسن لما فيه من الإيضاح والإيجاز "[٣].

ثم تحدّث الخفاجي في موضع آخر في كتابه عن التمثيل والاستدلال، ذاهبًا إلى أنه يزيد في الكلام معنى يدل على صحته يذكر مثالاً له نحو قول أبي العلاء[٤]:

لَوِ اختصَرتُم من الإحسانِ زُرتكُمُ … والعذبُ يُهْجَرُ للإفراطِ في الخَصَرِ[٥]

---

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل بن مسعود بن عامر بن أجلاف ثقيف وكنيته أبو محمد وأمه سمته كليبًا، وكان أول أمره بعلم الصبيان بالطائف وأول ولاية وليها تبالة بالحجاز، ثم ولي على شرط أبان ابن مروان ثم جعله عبد الملك على ساقته عند رجوعه إلى الشام ثم بعثه لقتال بني الزبير فقتله وولاه الحجاز ثلاث سنين ثم ولاه العراق، وكان شجاعًا مقدامًا مهيبًا داهية فصيحًا مفوهًا بليغًا سفاكًا للدماء، توفي في ليلة سبع وعشرين من رمضان وله خمس وخمسون سنة.

البدء والتاريخ، تأليف: المطهر بن طاهر المقدسي، دار مكتبة الثقافة الدينية- بورسعيد ٢٨/٦، البداية والنهاية- تأليف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، دار مكتبة المعارف- بيروت ٣٠٤/٢.

العبر في خبر من غبر، تأليف: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: دكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت- الكويت ١٩٨٤م، الطبعة الثانية ١١٢/١.

(٢) المهلب بن أبي ضفرة طالم أبو سعيد الأزدي أحد أشراف أهل الصرة ووجوههم ودهاتهم وأجوادهم وكرمائهم ولد عام الفتح، ثم نزل البصرة وقد غزا في أيام معاوية، ثم حارب الخوارج أول دولة الحجاج وقتل منهم في واقعة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة فعظمت منزلته عند الحجاج، وكان فاضلاً شجاعًا كريمًا يحب المدح وله كلام حسن، توفي غازيًا وعمره ستة وسبعون سنة في ذي الحجة.

البدء والتاريخ، المطهر المقدسي ٣٧/٦، البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير ٤٢/٩، العبر في خبر من غبر: شمس الدين بن عثمان الذهبي ٧٢/١.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٤٨.

(٤) أبو العلاء المعري سبقت ترجمته، ص ٤

(٥) سقط الزند، أبو العلاء المعري، ص٥٦.

=

فدلَّ على أن الزيادة فيما يُطلب ربما كانت سببًا للامتناع منه، بتمثيل ذلك بالماء الذي لا يُشرب لفرط برده، وإن كان البرد فيه مطلوبًا محمودًا "[١] ومنه أيضًا قول أبي تمّام[٢]:

وإذا أراد الله نَشــــرَ فضـــيلةٍ   طُويَت أَتاح لها لسانَ حسُودِ[٣]

لـولا اشـتعالُ النـارِ فيمـا جـاوَرَت   ما كان يعرفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

وقد تحدَّث الجرجاني عن هذين البيتين مبديًا حسن مزية التمثيل ووضوح معناه قائلاً: فانظر كيف يزيد شرفه عندك وهكذا فتأمل بيت أبي تمَّام:

وإذا أراد اللهُ نَشــــرَ فضـــيلةٍ   طُويَـتْ أَتـاحَ لهَـا لسـانَ حَسُـودِ

مقطوعًا عن البيت الذي يليه التمثيل الذي يؤديه واستقص في تعرف قيمته على وضوح معناه وحسن مزيته ثم أتبعه إياه:

لـولا اشـتعالُ النـارِ فيمـا جـاوَرَت   ما كان يُعرفُ طِيبُ عرفِ العُودِ

وقال: وانظر هل نشر المعنى تمام حلته وأظهر المكنون من حسنه وزينته، وعطَّرك بعرفِ عوده، وأراك النضرة في عوده، وطلع عليك من مطلع سعوده، واستكمل فضله في النفس ونبله، واستحق التقديم كله إلا بالبيت الأخير وما فيه من التمثيل والتصوير"[٤].

ونجد الجرجاني قد أظهر جوانب التمثيل في بيت أبي تمَّام وأوضح حسنه وزينته بينما ابن سنان قد اكتفى بذكر البيت مثالاً للتمثيل ولكنه ما لبث أن نقد بيت البحتري حيث اعتبره من التمثيل غير الجيد في قوله "[٥]:

والمعنى: أنكم تسرفون في الإحسان فيُستحيا منكم، كما أن الماء الذي ينفع الشارب إذا زاد برده امتنع الظمآن من شربه، والخضر: البرد، انظر شروح سقط الزند ١٢٠/١.

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤١٢.

(٢) أبو تمَّام سبقت ترجمته، ص ١٧

(٣) ديوان أبي تمَّام ٣٢٤/٢.

(٤) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص١٠٠.

(٥) البحتري سبقت ترجمته، ص ٥٢

ورجالٍ جارَوا خلائِقَكَ الغُررَ ... وَلَيست يَلاَمِقٌ من دُرُوعِ[١]

وقال الخفاجي: " فليس بتمثيل جيدٍ، لأن السبقَ في الجري لا يليق تمثيلُه بتفضيل الدروع على اليلامِق، وإنما كان يحسن ذلك لو قال: ورجال جارُوك في كونهم عصمةً لي، أو جُنَّةً دوني، أو ما جرى هذا المجرى، فيكون تمثيلُ ذلك بالدروع واليلامق موافقًا فأما على الوجه الذي ذكره فإن ذلك من رديء الاستدلال بالتمثيل "[٢] وأيضًا ذكر الاستدلال بالتمثيل الذي أتى على الوجه الصحيح وذلك في قول النابغة الذبياني[٣] يخاطب النعمان[٤]:

ولكنني كنتُ أمرَءًا لي جانبٌ ... من الأرضِ فيه مُستَرادٌ ومَذهبُ[٥]

ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما لَقِيتُهُمْ ... أُحكَّمُ في أموالِهِم وأُقَرَّبُ

كفِعلِكَ في قومٍ أراكَ اصطَنَعتَهُم ... فلم تَرَهُم في شُكرِ ذلك أذنَبُوا

فاستدل النابغةُ على أنه لا يستحقُ اللوم بمدحه آل جفنة، وقد أحسنوا إليه، بما مَثَّله من القوم الذين أنعم النعمان عليهم، فلما مدحوه لم يكونوا عنده ملومين "[٦].

(١) ديوان البحتري، دار صادر بيروت، ص٢٩.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤١٣.

(٣) النابغة الذبياني سبقت ترجمته، ص ٨٩

(٤) النعمان بن المنذر ابن امرئ القيس ابن النعمان بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن عمرو بن الحارث بن مسعود بن مالك بن غنم بن نمارة بن لخم وهو مالك ابن عدي بن الحارث، وهو من أهل قرطبة وكان ملك الحيرة، وكان له خمسمائة رجل يقيمون على بابه سنة ثم يذهبون وتجيء خمسمائة أخرى وكان يغزو بهم ويوجههم في أمورهم.
الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٢١/٢، الكامل في التاريخ، ابن مكرم الشيباني ٣٢٤/١، جمهرة الأمثال، أبو هلال العسكري، دار الفكر، بيروت- ١٤٠٨هـ- ١٩٨٨م، ٢٥٣/١.

(٥) ديوان النابغة الذبياني، دار صادر بيروت، ص١٧.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤١٤.

وممّن ذهب إلى أن التمثيل من ضروب الاستعارة ابن رشيق، يقول: " ومن ضروب الاستعارة التمثيل، وهو المماثلة عند بعضهم، وذلك أن تمثل شيئًا بشيء فيه إشارة نحو قول امرئ القيس وهو أول من ابتكره، ولم يأت أملح منه:

وما ذَرَفتْ عيناك إلا لتقذحي بسَهميكِ في أعشار قلب مُقَتَّلِ(١)

فمثل عينيها بسهمي الميسر يعني المُعَكّر، وله سبعة أنصباء، والرَّقيب وله ثلاثة أنصباء، فصار جميع أعشار قلبه للسهمين الذين مثل بهما عينيها، ومثلَ قلبه بأعشار الجذور فتمت له جهات الاستعارة والتمثيل "(٢).

احتفى ابن سنان بالتمثيل فساق كثيراً من الأمثلة والشواهد عن مواقع التمثيل ولكنه لم يصرح بأسماء تلك المواقع بل أشار إلى الغرض بإيراده وهو إيضاح المعنى وبيانه، وحسنه لما فيه من الإيجاز.

---

(١) ديوان امرئ القيس، دار صادر، ص٣٨.

(٢) العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني، ت(٤٦٣هـ)، دار صادر- بيروت، ٢٣٢/١.

المبحث الخامس

المجـاز

تنـاول ابـن سـنان المجـاز وذلـك فـي معـرض حديثـه عـن الاسـتعارة إذ هـي أحـد قسـميه وأوضـح قـائلاً: " فهـذه الجملـة تكشـف لـك عـن نهـج الاسـتعارة، ويوضـح كيـف تقـع الألفـاظ موقعها في المجاز "[١] وذكر الخفاجي المجاز – وإن كان لم يسمه – من خلال ما ذكره أبو بكر الصولي[٢] وهو يرد على ما ينكرون من قول أبي تمام:

لا تَسـقِنِي مـاءَ المـلامِ فـإنني ... صبٌّ قَدِ استعذبتُ ماءَ بُكائِي[٣]

ويحكـون عـن سـائل سـأل أبـا تمـام أن ينفذَ لـه فـي إنـاءٍ شـيئًا مـن مـاءِ المـلام... فقـال بعضُـهم: إن أبـا تمـام أبكـاه المـلام، وهـو يبكـي علـى الحقيقـة، فتلـك الـدموعُ هـي مـاءُ المـلام، وهذا الاعتذار فاسد، لأن أبا تمام قال: "قد استعذبتُ ماء بكائي" وإذا كان ماءُ الملام هو ماء بكائه فكيف يكون مستعفيًا منه مستعذبًا له "[٤].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٠.

(٢) الصولي محمد بن عبد الله بن العباس، بن محمد بن صول أبو بكر الصولي، كان أحد العلماء بفنون الأدب وحسن المعرفة بأخبار الملوك وأيام الخلفاء ومآثر الأشراف، وطبقات الشعراء كان واسع الرواية جيد الحفظ حاذقًا يتصنيف الكتب، وله كتب كثيرة، وكان أولاده من كبار الكتاب، توفى ٣٣٥هـ.
البداية والنهاية، ابن كثير القرشي ٢١٩/١١، الكامل في التاريخ، ابن مكرم الشيباني ٢٢٠/٧، تاريخ الإسلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ١٣١/٢٥.

(٣) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة ٢٢/١، المعنى لا تلمني فإني عاشق قد ألفت البكاء واستعذبته فلا أكاد أقلع للومك إياي فكف عني، وكما قال في آخر البيت: " ماء بكائي " قال في أوله " لا تسقني ماء الملام " وأقحم اللفظ على اللفظ إذ كان من سببه " انظر الشرح في الديوان ٢٢/١.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٠٢.

أما الصولي فقد قال: " كيف يُعاب أبو تمام إذا قال ماء الملام، وهم يقولون: كلام كثير الماء ؟، وقال يونس بن حبيب[١] في تقديم الأخطل: لأنه أكثرُهم ماءَ شعرٍ، ويقولون: ماء الصبابة، وماء الهوى يريدون الدمع "[٢].

واستشهد الصولي بأبيات من الشعر لنفس المغذي وذلك مثل قول ذي الرمة:

أَأَنْ تَوَهمتَ مِنْ خَرقَاءَ منزِلةً ... ماءُ الصبابةِ مِنْ عَينَيكَ مَسْجُومُ[٣]

وقال أيضًا:

أدارًا بحُزوَى هِجتِ للعينِ عَبرَةً ... فماءُ الهَوَى يرفضُ أوْ يَترقرَقُ[٤]

وقالوا ماء الشباب، وقول عمر بن أبي ربيعة:

وَهيَ مكنونةٌ تَحيَّرَ منها ... في أَديمِ الخدينِ ماءُ الشبابِ[٥]

وقول أبي العتاهية[٦]:

---

(١) هو يونس ابن حبيب الضبي، وقيل الليثي بالولاء، يكنى أبا عبدالرحمن، إمام نحاة البصرة في عصره، سمع من العرب، أخذ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء، وأخذ عنه سيبويه، والكسائي والفراء، وأبو عبيدة، ت ١٨٢هـ.
المعارف، ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم، ص٥٤١، الفهرست، محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، ص٤٧، معجم الأدباء، ياقوت الحموي ٦٤/٢٠، سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ١٩١/١.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٠٢.

(٣) ديوان ذي الرمة ٣٧١/١.

(٤) ديوان ٤٥٦/١.

(٥) ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص٤٣١.

(٦) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان، يكنى أبا إسحاق، وأبو العتاهية لقب غلب عليه، كان يبيع الفخار في الكوفة، ثم قال الشعر فبرع فيه حتى يكاد يكون كلامه كله شعرًا، وكان من الشعراء المطبوعين، ت ٢١١هـ.
الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١/٤، تاريخ بغداد،الخطيب البغدادي ٢٥٠/٦، وفيات الأعيان، ابن خلكان ٢١٩/١، الوافي بالوفيات، ابن أيبك الصفدي ١٨٥/٩، سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ١٥٩/١٠.

ظبــيٌ عليــهِ مــن الملاحَــةِ حُلَّــةٌ   ماءُ الشبابِ يَجُولُ في وَجَنَاتِـهِ[(١)]

وقال: " فما يكون إذا استعار أبو تمام من هذا كله حرفًا فجاء به في صدر بيته لما قال في آخره فإنني صبٌ قدِ استعذبتُ ماء بُكائي، قال في أوله: "لا تسقني ماء الملام" وقد تحمل العرب اللفظ على اللفظ فيما لا يستوي معناه قال الله عزّ وجلّ: ﴿ **وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾[(٢)].

فالسيئةُ الثانيةُ ليست بسيئة لأنها مجازاة، ولكنه لما قال وجزاء سيئةٍ سيئةٌ فحُمل اللفظ على اللفظ "[(٣)].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾[(٤)] إنما حمل اللفظ على اللفظ فخرج الانتقام بلفظ الذنب لأن الله عزّ وجلّ لا يمكر وكذلك ﴿ **فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾[(٥)] لما قال: بَشِّر هؤلاء بالجنة، قال: بَشِّر هؤلاء بالعذاب، والبشارةُ إنما تكون في الخير لا الشر "[(٦)].

وردَّ الخفاجي على الصولي بقوله:

" قولهم كلامٌ كثيرُ الماء، وماءُ الشباب، وقول يونس: إن الأخطلَ أكثرُهم ماء شعرٍ، إنما المراد به الرَّونق، كما يقال ثوب له ماء، ويقصد رونقه، ولا يَحسُن أن يُقال: ما شربتُ أعذبَ من ماءِ هذا الثوب، كما لا يَجمُل أن يُقال: ما شربتُ أعذب من ماء هذه القصيدة، لأن هذا القول مخصوصٌ بحقيقة الماء، لا بماء هو مستعار له.

---

(١) ورد شطر البيت في كتاب الحيوان، أبو عثمان الجاحظ ١٤٢/٥ دون نسبة وجاء فيه هكذا: ماءُ الحياء يجولُ في وجَنَاتِهِ. وقال الجاحظ: ويقال: صبغٌ له ماء ولونٌ له ماء وفلان ليس في وجهه ماء، ورَدَّني فلانٌ ووجهي بمائه".

(٢) سورة الشورى، الآية(٤٠).

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٠٤.

(٤) سورة آل عمران، الآية(٥٤).

(٥) سورة آل عمران، الآية(٢١).

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٠٤.

فأبو تمام بقوله: لا تسقني ماء الملام، ذاهبٌ عن الوجه على كل حال، ثم لا يجوز أن يريد هنا بالماء الرونق، لأن الملام لا يوصف بذلك، وإنما يُذَمُّ ويُستقبح ولا يحمد ويُستحسن"[١].

وأما ماءُ الصبابة، وماء الهوى، فقد بين أبو بكر أنهم يريدون به الدمع، فكيف يقول إنه استعارةٌ، والدمع ماءٌ حقيقي بلا خلاف، وعلى أي وجهٍ يُحمل ماء الملام في الاستعارة على ماء الدمع وهو حقيقة "[٢].

وقال الخفاجي: " أما مقابلة اللفظ باللفظ واستشهادُه بالآيات المذكورة قد بينا أن هذا مجازٌ ولا يقاس عليه، ولا يحسن هنا المقابلة في موضع يعترضُنا فيه فسادٌ في المعنى، أو خللٌ في اللفظ كهذه الاستعارة أو ما يجري مجراها، كما لا يحسن منا غير ذلك في المجاز إذ أدى إلى اللبس والإشكال "[٣].

أشار الخفاجي إلى أنه بين في موضع سابقٍ في الكتاب على " ان مقابلة اللفظ باللفظ مجاز والمجاز لا يقاس عليه، وليس يحسن بنا أن نقابل اللفظ باللفظ في كل موضع من الكلام قياسًا على مقابلة اللفظ باللفظ في قوله تعالى: ﴿ **وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾[٤].

وقد أورد الخطيب القزويني هذه الآيات في المجاز المرسل وذلك في تسمية المسبب باسم المسبب به قائلاً: " وكذا قوله تعالى: ﴿ **وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا** ﴾ تجوز بلفظ السيئة عن الاقتصاص لأنه سبب عنها قيل: وإن عبر بها عمّا ساء أي أحزن لم يكن مجازًا لأن الاختصاص محزن في الحقيقة كالجناية.

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٠٦.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٠٦.

(٤) سورة الشورى، الآية(٤٠).

وكذا قوله تعالى: ﴿ **وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ** ﴾[١] تجوز بلفظ المكر عن عقوبته لأنه سببها، قيل ويحتمل أن يكون مكر الله حقيقة لأن المكر هو التدبير فيما يضر الخصم "[٢].

وقد عدَّ الجرجاني – أيضًا– المجاز نوعًا من الاستعارة ويسميه " الاستعارة غير المفيدة "[٣] وذلك عند تقسيمه للاستعارة المفيدة والاستعارة غير المفيدة، وقال أيضًا: " أن المجاز أعم من الاستعارة وان الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة، وذلك أننا نرى كلام العارفين بهذا الشأن أعني علم الخطابة ونقد الشعر والذين وضعوا الكتب في أقسام البديع، يجري على أن الاستعارة نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه على حد المبالغة "[٤].

وقد أظهر الخفاجي علاقة من علاقات المجاز وهي " المحلية "، وذلك عندما تمثل بقوله تعالى: ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا** ﴾[٥] وقال والمراد أهل القرية[٦]، ونرى السكاكي يعد هذا النوع من فصول المجاز اللغوي ذاكرًا الآية الكريمة قوله تعالى:﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ** ﴾[٧] قائلاً: " والأصل واسأل أهل القرية فالحكم الأصلي للقرية في الكلام هو الجر والنصب مجاز، ومدار هذا النوع على حرف واحد وهو أن تكتسي الكلمة حركة لأجل حذف كلمة لا بد من معناها، ... ورأى في هذا النوع أن يعد ملحقًا ومشبهًا به ما بينهما من الشبه وهو اشتراكهما في التعدي على الأصل على غير أصل لا أن يعد مجازًا"[٨].

---

(١) سورة آل عمران، الآية(٥٤).

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين الخطيب القزويني، ص٢٥٧.

(٣) انظر " فصل تقسيم الاستعارة " أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص٢٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٤٦.

(٥) سورة يوسف، الآية(٨٢).

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ١٨٩

(٧) سورة يوسف، الآية(٨٢).

(٨) مفتاح العلوم، يوسف بن محمد بن علي السكاكي، ص٥٠٣.

بين الخفاجي المجاز المرسل ولكنه لم يسمه، إذ تسميته لاحقة لعصره وأنه ساق لهذا اللون من الأمثلة التي أفاد منها المتأخرون أمثال السكاكي وغيره حيث إنهم تناولوا ودرسوا المجاز ووضعوا له من التقسيم والتفريع الشئ الذي جعل دراستهم أكثر دقة وعمقاً.

المبحث الأول

التقديم والتأخير

انتقل ابن سنان إلى ما يختص بالتأليف وينفرد له بعد أن أرشدنا إلى الملامح الواضحة لتصوره البلاغي حين عكف على دراسة اللفظة المفردة وفصاحتها، والألفاظ المنظومة وقيمتها، وكانت تلك الدراسة بمثابة فتح الطريق واسعًا لجهوده العظيمة لوضع الفنون البلاغية. ويقول عن التأليف " إن أحد الأصول في حسنه وضع الألفاظ موضعها حقيقة أو مجازًا "[(١)] بادئًا بأبرز الفنون البلاغية التي يعالجها البلاغيون في علم المعاني ألا وهو التقديم والتأخير، وقد رأى الجرجاني أنه: " بابٌ كثير الفوائد جمُ المحاسن، واسع التصرف بعيدُ الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة، ولا تزال ترى شعرًا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولُطف عندك أن قُدم فيه شيء، وحُول اللفظ عن مكانٍ إلى مكان "[(٢)].

أما ابن الأثير فقد قال إنه: " باب طويل عريض يشتمل على أسرار دقيقة منها ما استخرجته أنا ومنها ما وجدته في أقوال علماء البيان وهو ضربان:

الأول: يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى.

والثاني: يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، ولو أخر لما تغير المعنى.

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٣.

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ٩٦/١.

فأما الضرب الأول فإنه ينقسم إلى قسمين أحدهما يكون التقديم فيه هو الأبلغ والآخر يكون التأخير فيه هو الأبلغ، فأما القسم الذي يكون التقديم هو الأبلغ فلتقديم المفعول على الفعل، وتقديم الخبر على المبتدأ، وتقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل.

فمن ذلك تقديم المفعول على الفعل كقولك " زيدًا ضربت " " وضربت زيدًا " فإن في قولك " زيدًا ضربت " تخصيصًا به بالضرب دون غيره، وذلك بخلاف قولكُ "ضربت زيدًا" لأنك إذا قدمت الفعل كنت بالخيار في إيقاعه على أي مفعول شئت بأن تقول: ضربت خالدًا أو بكرًا أو غيرهما، وإذا أخرته لزم الاختصاص للمفعول.

وكذلك تقديم خبر المبتدأ عليه كقولك: " زيد قائم " " وقائم زيد " فقولك " قائم زيد " قد أثيب له القيام دون غيره وقولك " زيد قائم " أنت بالخيار في إثبات القيام له، ونفيه عنه بأن تقول ضارب أو جالس أو غير ذلك "(١).

وقال: " وهكذا يجري الحكم في تقديم الظرف كقولك: " إن إليَّ مصير هذا الأمر " وقولك: " إن مصير هذا الأمر إلي " فإن تقديم الظرف دل على أن مصير الأمر ليس إلا إليك، وذلك بخلاف قولك: " إن مصير هذا الأمر إلي " إذ يحتمل إيقاع الكلام بعد الظرف على غيرك فيقال إلى زيد أو عمرو أو غيرهما وكذلك يجري الأمر في الحال والاستثناء "(٢).

وقال صاحب الصناعتين: " وحسن التأليف يزيد المعنى وضوحًا وشرحًا، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من التعمية، فإذا كان المعنى سبيًا ورصف الكلام رديًا لم يوجد له قبول ولم تظهر عليه طلاوة.

---

(١) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير ٣٥/٢.

(٢) المرجع نفسه، ٣٦/٢.

وإذا كان المعنى وسطًا ورصف الكلام جيدًا، كان أحسن موقعًا وأطيب مستمعًا فهو بمنزلة العقد إذ جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها كان رائعًا في المرأى، وإن لم يكن مرتفعًا جليلاً، وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه إلى ما لا يليق بها اقتحمته العين، وإن كان فائقًا ثمينًا، وحسن الرصف أن توضع الألفاظ في مواضعها وتمكن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير... وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغها ومخالفة الاستعمال في نظمها "[١].

وذهب الخفاجي على هذا المنحى حيث قال: " فمن وضع الألفاظ موضعها أن لا يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، حتى يؤدي ذلك إلى فساد معناه وإعرابه في بعض المواضع، أو سلوك الضرورات حتى يُفْصَل فيه بين ما يقبح فَصْلُه في لغة العرب كالصلة والموصول وما أشبهها "[٢] ومثل لذلك بقول الفرزدق "[٣].

وما مثلُهُ في الناس إلا مُمَلَّكاً ... أبو أُمِّهِ حيٌّ أبُوهُ يُقارِبُهْ[٤]

فقال: " ففي هذا البيت من التقديم والتأخير ما قد أحال معناه، وأفسد إعرابه، لأن مقصوده: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربه إلا مُمَلَّكاً أبو أمه أبوه، يعني هشامًا، لأن أبا أمه أبو الممدوح "[٥].

---

(١) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ص١/١٦١.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٣.

(٣) الفرزدق سبقت ترجمته، ص ٩٤

(٤) ديوان الفرزدق، شرح عبدالله إسماعيل الصاوي، مطبعة الصاوي ١٣٥٤هـ- ١٩٣٦م، الطبعة الأولى، ص١٠٨.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٣.

وقول عروة بن الورد العبسي[١]:

قلتُ لقومٍ في الكنيفِ تَرَوحُوا　　عشيةَ بِتنَا عند ماوَانَ رُزَحِ[٢]
تنالُوا الغِنَى أو تبلُغُوا بنُفوُسِكمُ　　إلى مُستَرَاحٍ من حِمامٍ مُبَرَّحِ

لأن تقديره: قلتُ لقوم رُزَحٍ في الكنيف عشية بتنا عند " ماوان " تروحوا تنالوا الغنى، ففصل بين الصفة والموصوف، والأمر وجوابه فأما قول المتنبي:

المجدُ أخسرُ والمكارِمُ صَفقةً　　من أنْ يعيشَ لها الهُمامُ الأروَعُ[٣]

فجار هذا المجرى، وفيه تقديم وتأخير، وفصل بين الصلة والموصول وتقديره: المجد والمكارم أخسر صفقةً "[٤].

رأى ابن سنان أن الفرزدق أكثر استعمالاً لهذا الفن، حتى كأنه يعتمده ويقصده، ويعتقد حُسنَه ومن ذلك قوله[٥]:

وتَرَى عطيةَ ضاربًا بفنائِهِ　　رِبقَينِ بينَ حظائِرِ الأغنامِ[٦]
مُتقلدًا لأبيه كانت عندهُ　　أرباقَ صاحبِ ثُلَةٍ وبِهَامِ

---

(١) عروة بن الورد سبقت ترجمته، ص ٦٤
(٢) ديوان عروة بن الورد، طبعة دار الكتاب العربي، ص٢٦.
(٣) المعنى يقول: المجد والمكارم حظهما أنقص من أن يعيش أبو شجاع المرثي الجامعي لشملهما الموكل بحفظهما، ديوان المتنبي، دار المعرفة ٢٧١/٢.
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٤.
(٥) الفرزدق سبقت ترجمته، ص ٩٤
(٦) ديوان الفرزدق، شرح علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، الطبعة الأولى ٦١٠/٢.

يريد: متقلدًا أرباق صاحب ثلة وبهام كانت عنده لأبيه "[١].

وأما قول الفرزدق[٢]:

فليستْ خُراسانُ التي كان خالدٌ بها أسدٌ إذ كانَ سيفًا أميرُهَا

فإن جماعة من النحويين قالوا: إنه يمدح خالدًا[٣]، ويذم أسدًا[٤]، وكانا واليين بخراسان، وخالد قبل أسد، وتقديره: فليست خراسان بالبلده التي كان خالد بها سيفًا إذ كان أسدٌ أميرها، ويكون رَفعُ " أسد " بكان الثانية، و " أميرها " نعت له، و " كان " في معنى "وقع"، أو يكون في كان ضمير الشأن والقصة، ويكون " أسد وأميرها " مبتدأ وخبرًا في موضع خبر الضمير "[٥].

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٦.

(٢) البيت لم يوجد في ديوان الفرزدق طبعة الصاوي، ١٣٥٤هـ- ١٩٣٦م، ديوان الفرزدق، دار صادر.

(٣) خالد بن عبد الله القسري كان عامل الوليد بن عبد الملك على مكة، ثم ولي خراسان بعد موت يزيد بن عبد الملك، وكانت مدة امرته في العراق أربع عشرة سنة فلما استخلف الوليد بعث به إلى يوسف فقتله سنة ست وعشرين ومائة. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، بن حسين الشافعي العاصمي المكي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، دار الكتب العلمية- بيروت ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ٢٧٢/١، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، الذهبي، دار الكتاب العربي، لبنان ٣١٨/٧، تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون الحضرمي، دار القلم- بيروت ٧٦/٣، ١٧٥، الكامل في التاريخ، محمد بن مكرم الشيباني، دار الكتب العلمية-بيروت ٤٧٦/٤.

(٤) أسد بن عبد الله القسري، هو شقيق خالد بن عبد الله القشري تولى خراسان وغزا بلاد الغور في جمع عظيم وهزمهم، وتولى حرب الترك في سنة تسع عشرة ومائة وقتلوا خاقان ملك الترك، توفي في ربيع الأول بمدينة بلخ.
العبر في خبر من غبر، الذهبي ١٣٣/١، تاريخ بن خلدون، ابن خلدون ١٠٨/٣.
الكامل في التاريخ، بن مكرم الشيباني ٤٧٦/٤.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٥.

وقال أبو سعيد السيرافي: " إن تقدير البيت عنده أن يجعل " أسدًا " بدلاً من "خالد"، ويجعله هو خالد على سبيل التشبيه له بالأسد، فكأنه قال: فليست خراسان التي كان بها أسد إذ كان سيفاً أميرها، ويجعل " سيفاً " خبرًا لكان الثانية، ويجعل " أميرها " الاسم، وعلى التأويلين معًا فلا خفاء بقبح البيت، والتعسف فيه، ووضع الألفاظ في غير موضعها"[١].

ويرى ابن رشيق معاصر ابن سنان: " أن من الشعراء من يضع كل لفظة موضعها لا يعدوه، فيكون كلامه ظاهرًا غير مُشْكِّل، وسهلاً غير مُتكلّف، ومنهم من يقدم ويؤخر: إما لضرورة وزن، أو قافية وهو أعذر، وإما ليدل على أنه يعلم تصريف الكلام، ويقدر على تعقيده، وهذا هو العي بعينه "[٢] أما القزويني فرأى ضرورة التقديم إذا كان في التأخير إخلالٌ ببيان المعنى كقوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ** ﴾[٣] وذلك ما جعله الزركشي أحد أسبابه حيث قال: " أن يكون في التأخير إخلال ببيان المعنى كقول تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ** ﴾ [٤] فإنه لو آخر قوله: من آل فرعون فلا يفهم أنه منهم "[٥].

ومن التقديم والتأخير أيضًا قول الشاعر[٦]:

صددْتِ فأطوَلتِ الصدُودَ وقلّما ... وِصَالٌ على طُولِ الصدُودِ يَدُومُ[٧]

يريد: وقلما يدوم وصال على طول الصدود "[١].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٥٦.

(٢) العمدة في محاسن الشعر، ابن رشيق القيرواني، دكتور عفيف نايف، دار صادر ٢١٨/١.

(٣) سورة غافر، الآية(٢٨)، الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص١١٤.

(٤) سورة غافر، الآية(٢٨).

(٥) البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، ت(٧٦٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة–بيروت–١٣٩١هـ، ٢٣٣/٣.

(٦) الشاعر المرار الفقعسي سبقت ترجمته، ص ٩٢

(٧) لم أجده منسوبًا للمرار الفقعسي إلا في خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ابن عمر البغدادي ٢٤٩/١٠.

وكذلك قولُ الآخر(٢):

لمـا رأت سـاتِيدَمَا(٣) اسـتَعبَرتْ   للهِ دَرُّ اليــومَ مَــنْ لاَمَهَــا(٤)

أي: للهِ دَرُّ مَنْ لاَمَها اليوم "(٥)

وعلى هذا قول المتنبي(٦):

جَفَخَتْ(٧) وهم لا يجفخُونَ بها بِهِم   شيمٌ على الحَسبِ الأغَرِ(٨) دلائِلُ(٩)

يريد: جفخت بهم وهم لا يجفخون بها "(١٠)

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٧.

(٢) عمرو بن قميئة بن ذريح بن سعديه مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن بكر بن وائل بن قاسط ابن هنب بن أقصى بن أسد بن ربيعة بن نزار ويكنى أبا يزيد وقيل أبا كعب، شاعر جاهلي قديم مقل، كان رفيقًا لامرئ القيس، خلال سفره إلى بلاد الروم فطلب المعونة من الإمبراطور (جستنيان) قيل أنه عاش تسعين سنة.
الأنساب، ابن منصور التميمي السمعاني ٥/٤، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٤٣/١٨، الذخيرة: شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب، بيروت ١٩٩٤م، ٤٤٧/٣، طبقات فحول الشعراء،ابن سلام الجمحي ١٥٩/١.

(٣) ساتِيدما: جبل أو نهر متصل من بحر الروم إلى بحر الهند، وليس يأتي يوم من الدهر إلا سُفك عليه دم فسمي بذلك قال ياقوت الحموي: وأنشد سيبويه العمرو بن قمئة قد سألتني بنت عمرو عن الأرض التي تنكر أعلامها لما رأت " ساتيدما " استعبرت لله در اليوم مَنْ لامها تذكرت أرضًا بها أهلها أخوالها فيها وأعمامها، انظر معجم البلدان، ياقوت ابن عبد الله الحموي، دار الفكر، بيروت ١٦٨/٣.

(٤) ديوان عمرو بن قميئة، تحقيق: خليل إبراهيم العطية، ص٧٣.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٧.

(٦) المتنبي سبقت ترجمته، ص ٣٩

(٧) جفخت: فخرت وتكبرت.

(٨) الأغر: الشريف، يقول: إن لهم شيمًا كريمة تدل على ما لهم من الحسب الشريف وهذه الشيم تفتخر بهم وهم لا يفتخرون بها لما بهم من الورع والبعد عن الزهو والخيلاء، انظر هامش كتاب العرف الطيب في شرح ديوان المتنبي، شرح الشيخ ناصيف اليازجي، دار مكتبة الهلال، بيروت ٣٣١/١.

(٩) ديوان المتنبي، دار مكتبة الهلال ٣٣١/١.

(١٠) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٧.

وكذلك قوله[١]:

وفاؤُكُما كالربعِ أشجاهُ طاسِمُهْ[٢]   بأن تُسْعَدَا[٣] والدمعُ أشفاهُ سَاجِمُهْ[٤]

لأن تقديره: وفاؤكما بأن تسعدا كالربع أشجاه طاسمه، ففصل وقدَم وأخر "[٥].

وكذلك قولُ أبي عديٍ القرشي[٦]:

خيــرُ راعِــي رعيــةٍ سَــرَّهُ اللهُ   هشــامٌ وخيــرُ مــأوَى طَرِيــدِ[٧]

أي خيرُ راعي رعية هشام سره الله "[٨].

وقول الآخر[٩]:

لَعَمـرُ أبِيْهَـا لا تقُـولُ حَليلَتِـي   أَلاَ فرَّ عنيِّ مالِكُ بنُ أبي كعبِ

---

(١) ديوان المتنبي، دار مكتبة الهلال ٤/٢.

(٢) طاسمه – دارسه.

(٣) تُسعَدَا: بمعنى تساعدا.

(٤) ساجمه: ساكبه يخاطب صاحبيه اللذين عاهداه على مساعدته بالبكاء عند ربع الأحبة، يقول وفاؤكما بمساعدتي كهذا الربع، فإن الربع كلما درس كان أدعى إلى الحزن وكذلك وفاؤكما كلما ضعف وقلت مساعدتكما لي بالبكاء اشتد حزني لفقد من أتأسى به، وقوله والدمع أشفاه ساجمه بيان لعذره في البكاء وحجة على صاحبيه بأنهما خاليان عمّا هو فيه من الحزن لأنهما لو كانا محزونين لاستشفيا بالدمع كما هو شأن الحزين، انظر العرف الطيب في شرح ديوان المتنبي، دار مكتبة الهلال ٤/٢.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٧.

(٦) هو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن علي بن عدي بن ربيعة بن عبد العزَّى بن عبد شمس بن مناف، ويكنى أباعدي، شاعر مجيد من شعراء قريش، ومن مخضرمي الدولتين، وله أخبار مع بني أمية وبني هاشم، وكان يميل إلى بني هاشم، ويذم بني أمية، وقد نجى من بطش العباسيين بسبب ذلك.انظر: الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني ٢٩٤/١١، الوافي بالوفيات للصفدي ١٩٩/١٧.

(٧) البيت من قصيدة يمدح فيها هشام في الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٣٠٤/١١، ٣٠٧. ولا يوجد البيت فيها، ويوجد في نقد الشعر، قدامة بن جعفر منسوبًا إلى أبي عدي القرشي، ص٤٢.

(٨) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٨.

(٩) نسب البيت إلى مالك بن أبي كعب، وهو أبو الصحابي الشاعر كعب بن مالك وذلك في كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني ٢٣٤/١٦.

يريد: لعمر أبي حليلتي[١].

نلاحظ أن ابن سنان لم يحتف بالتقديم والتأخير، ولم يذكر فوائده كما فعل معاصره عبد القاهر الجرجاني، بل أبعده من حسن التأليف ووضع الألفاظ في موضعها، وأشار إلى أن لا يكون في الكلام تقديم وتأخير حتى يؤدي إلى فساد معناه وإعرابه في بعض المواضع، وأتي بالأمثلة التي توضح ذلك .

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٨.

المبحث الثاني

المقلـوب

قال ابن سنان: " ومن وضع الألفاظ موضعها أن لا يكون الكلامُ مقلوبًا فيفسد المعنى، ويُصرَف عن وجهه " ولذلك أمثلة مذكورة، منها قولُ عروة بن الورد[١]:

فلـو أنّـي شَـهِدتُ أبـا سـعادٍ غـداةَ غَـدا بمُهجتِـهِ يفُـوقُ[٢]

فـديتُ بنفسِـهِ نفسـي ومـا لِـي ومـا آلـوكَ إلا مـا أُطِيـقُ

يريد أن يقول: فديتُ نفسه بنفسي "[٣].

وذلك ما ذهب إليه قدامة بن جعفر وجعله من عيوب ائتلاف المعنى في الوزن فقال: " المقلوب من عيوب ائتلاف المعنى في الوزن، وهو أن يضطر الوزن الشعري إلى إحالة المعنى، فيقلبه الشاعر إلى خلاف ما قصد به "[٤] وذلك مثل ما قال الحطيئة[٥]:

فلما خَشيتُ الهُونَ والغيرُ مُمسِكٌ على رغمِهِ ما أثبتَ الحبلَ حافِرُه[٦]

أراد الحبل حافره، فانقلب المعنى "[٧].

---

(١) عروة بن الورد سبقت ترجمته، ص ٦٤

(٢) ديوان عروة بن الورد، مطبعة الخانجي، ص١٢٧.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٩.

(٤) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٢٢٢.

(٥) هو جرول بن أوس بن مالك، يكنى أبا مليكة، ولقب بالحطيئة لقربه من الأرض، وقيل غير ذلك، وهو من فحول الشعراء وفصحائهم، كان راوية زهير، وكانت نفسه مليئة بالشر على الناس جميعًا، ت(٥٩هـ).
طبقات ابن سلام الجمحي ٩٧/١، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٤٩/٢.

(٦) ديوان الحطيئة، تحقيق، دكتور نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، الطبعة الأولى، ص٢٤.

(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦٣.

قال ابن قتيبة " وكان على الوجه أن يقول: " ما أمسك حافِره الحبلُ " فقلب لأن ما أمسكته فقد أمسك، والحافر ممسك للحبل لا يفارقه ما دام به مربوطًا والحبل ممسك للحافر "[١].

أما ابن سنان فقال: فقد قيل فيه: إن الحبل إذا أمسك الحافر فالحافر أيضًا قد شغل الحبل فعلى هذا ليس بمقلوب "[٢].

ومنه قول خداش بن زهير [٣]:

وتُركَبُ خيلٌ لا هَوَادةَ بينَهَا — وتَعصِى الرماحُ بالضياطِرةِ[٤] الحُمرِ[٥]

قال: والضياطرة: هي التي تعصى بالرماح[٦].

ومن قبل ابن سنان قال ابن قتيبة في بيت " خداش بن زهير " أي " تعصى الضياطرةُ بالرماح " وهذا ما لا يقع فيه التأويلُ، لأن الرماح لا تعصى بالضياطرة، وإنما يعصى الرجالُ بها، أي يطعنون "[٧].

---

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص١٩٤.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦٣.

(٣) خداش بن زهير بن ربيعة بن عمرو – فارس الضحياء– بن عامر– يكنى أبا زهير، وهو من شعراء قيس المجيدين، وقال عنه أبوعمرو بن العلاء: هو أشعر في قريحة الشعر من لبيد، وأبي الناس إلا تقدمة لبيد، وقد شهد خداش حرب حنين مع المشركين وأسلم، المعارف، ابن قتيبة عبدالله بن مسلم ٨٧/١.
خزانة الأدب، ابن عمر البغدادي ٧٣/٤، الإشتقاق، ابن دريد، تحقيق: عبد السلام هارون، ص٢٩٥، طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي ١٤٣/١.

(٤) الضياطرة: جمع ضيطار وهو الجبان العظيم الخلق الذي لا يحسن حمل السلاح. مقاييس اللغة أحمد ابن فارس ابن زكريا، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل ١٠٢/٢.

(٥) ديوان خداش بن زهير العامري، الدكتور يحيى الجبوري، دمشق ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م، ص٧٩.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٥٩.

(٧) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص١٩٨.

أما القزويني فقد ذكر له سوى القلب وجهين" أحدهما أن يجعل شقاء الرماح بهم استعارة عن كسرها بطعنهم بها، والثاني أن يجعل نفس طعنهم شقاء لها تحقيرًا لشأنهم، وأنهم ليسوا أهلاً لأن يطعنوا بها كما يقال شقي الخز بجسم فلان، إذا لم يكن أهلاً للبسه"(١).

ونجد أن ابن سنان قد تأثر بما قاله الآمدي في هذا الصدد وقال: وعلى هذا حمل أبو القاسم الآمدي قول الطائي الكبير(٢):

طَلَلَ الجميعِ لقد عَفَوتَ حميدَا وكفَى على رُزئي بذاك شهيدا(٣)

قال: لأنه يقول: مضى حميدًا شاهدًا على أنى رُزئت، وَوَجهُ الكلام أن يكون: وكفى برزئي شاهدًا على أنه مضى حميدًا، لأن حميدًا من الطلل قد مضى، وليس بمشاهد معلوم، ورزؤه بما يظهر من تفجُعه مشاهدٌ معلوم، فلأن يكون الحاضرُ شاهدًا على الغائب أولى من أن يكون الغائبُ شاهدًا على الحاضر " يقول ابن سنان: " وهذا الذي ذكره الشيخُ أبو القاسم – رحمه الله – قولُ مثله ممن يتقدم الناس في هذا العلم ودقيق النظر فيه، وكشف سرائره "(٤).

قال ابن سنان: " وقد حمل بعضهم قول أبي الطيب(٥):

وعذلتُ أهلَ العِشقِ حتى ذُقتُهُ فَعجبتُ كيف يموتُ مَنْ لا يَعشَقُ(٦)

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني ٧٩/١.
(٢) أبو تمام سبقت ترجمته، ص١٧.
(٣) ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزّام، دار المعارف، مصر ١٩٦٤م، ٤٠٥/١.
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦١.
(٥) سبقت ترجمته، ص ٣٩
(٦) ديوان أبي الطيب، دار مكتبة الهلال ١٤١/١.

على المقلوب، وتقديره عنده: كيف لا يموت من يعشق ؟ وقال غيره: إن الكلام جارٍ على طريقته، والمراد به كيف تكون المنيةُ غيرَ العشق ؟ أي: أن الأمر الذي تقرَّر في النفوس أنه في أعلى مراتب الشدة هو الموت، ولما ذقتُ العشقَ فعرفتُ شدَّته عجبتُ كيف يكون هذا الأمرُ الصعبُ المتفق على شدته غير العشق، وكيف يجوز أن لا تَعُمَّ علَّتُه حتى تكون منايا الناس كلهم به، وكأن هذا أشبهُ بمراد أبي الطيب من حَملِ الكلام على القلب"(١).

وبعد أن ناقش ابن سنان وحلل قضية " القلب " في الأشعار التفت إلى ما ذهب إليه البعض بورود القلب في القرآن الكريم وذكر أدلتهم وشواهدهم من الآيات القرآنية ثم اجتهد في بيان بطلان ما ذهبوا إليه قال: فأما قول الله تعالى: ﴿ **مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** ﴾(٢) فليس من هذا بشيء، وإنما المراد والله أعلم– أن المفاتح تنوء بالعصبة أي تميلها من ثقلها، وقد ذكر هذا الفراء وغيره "(٣).

وكذلك قوله عزّ اسمُه: ﴿ **وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾(٤) ليس على ما يزعم بعضهم: المراد به: وإن حبه للخير لشديد، بل المقصود به: إنه لحب المال لبخيل، والشدة البخل، أي: من أجل حبه للمال يبخل "(٥).

أما نفيه للمقلوب في الشعر في قول الحطيئة(٦):

فلمَّا خَشِيتُ الهُونَ والعيرُ ممسكٌ ... على رَغمِهِ ما أمسكَ الحبلَ حافِرُهْ(٧)

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦٢.

(٢) سورة القصص، الآية(٧٦).

(٣) معاني القرآن، أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء، ت(٢٠٧هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ١٣٧٤–١٩٥٥م.

(٤) سورة العاديات، الآية(٨).

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦٢.

(٦) تقدمت ترجمته ص. ١٣٥

(٧) ديوان الحطيئة، ص٢٤.

فقد قيل فيه: إن الحبل إذا أمسك الحافر فالحافر أيضًا قد شغل الحبل، فعلى هذا ليس بمقلوب[١].

وهذا ما ذهب إليه ابن قتيبة إذ يقول: " وكان بعض أصحاب اللغة يذهب في قوله تعالى: ﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء** ﴾[٢] إلى مثل هذا في القلب ويقول: وقع التشبيه بالراعي في ظاهر الكلام، والمعنى للمنعوق به وهو الغنم، وكذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ** ﴾[٣] أي أن تنهض بها وهي مثقلة وهذا ما لا يجوز لأحدٍ أن يحكم به على كتاب الله عزّ وجلّ ولو لم يجد له مذهبًا، لأن الشعراء تقلب، وتزيل الكلام على الغلط، أو على طريق الضرورة للقافية، أو لاستقامة وزن البيت فمن ذلك قول لبيد "[٤]:

نحـن بنـو أمَّ البنـين الأربعـة[٥]

هم خمسة، فجعلهم للقافية أربعة[٦].

وذكر ابن قتيبة: " إن من المقلوب: أن يقدم ما يوضحه التأخير ويؤخر ما يوضحه التقديم كقول الله تعالى: ﴿ **فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ** ﴾[٧] أي مخلف رسله وعده، لأن الإخلاف قد يقع بالوعد كما يقع بالرسل فنقول: أخلفت الوعد، وأخلفت الرسل"[١].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٦٣.

(٢) سورة البقرة، الآية(١٧١).

(٣) سورة القصص، الآية (٧٦).

(٤) لبيد سبقت ترجمته، ص ٧٢

(٥) ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار صادر بيروت، ص٩٣.
أم البنين: ليلى بنت عمرو بن عامر بن ربيعة بن صعصعة زوج مالك بن جعفر، وبنوها خمسة إلا أن لبيدًا جعلهم أربعة إما لأن أباه كان ميتًا وإما لضرورة الشعر. انظر الديوان، ص٩٣.
انظر المعارف، ابن قتيبة أبو محمد بن مسلم، تحقيق: ثروت عكاشة، دار المعارف ٨٩/١.

(٦) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة بن مسلم، ص١٩٩.

(٧) سورة إبراهيم، الآية(٤٧).

وكذلك قوله سبحانه: ﴿ **فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ** ﴾[٢] أي: فإني عدوٌ لهم، لأن كل من عاديته عاداك "[٣].

نرى الخفاجي لم يحتف بالمقلوب،شأنه شأن قدامة بن جعفر الذي جعل المقلوب من عيوب ائتلاف المعنى في الوزن، وجعله بن سنان من فساد المعنى وصرفه عن وجهه مما يؤدي إلى الإخلال في التأليف ووضع الألفاظ في غير موضعها.

.

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة، ص١٩٣.
(٢) سورة الشعراء، الآية(٧٧).
(٣) المصدر السابق، ص١٩٣.

المبحث الثالث

الحشـو

تحدَّث ابن سنان عن الحشو ورأى أنه عيب فاحش وقال: " ومن وضع الألفاظ موضعها ألا تقع الكلمةُ حشوًا "[١] ونجد أن قدامة بن جعفر عدّه من عيوب ائتلاف اللفظ والوزن فقال: " وهو أن يحشو البيت بلفظ لا يحتاج إليه لإقامة الوزن مثال ذلك قول ابن هبيرة[٢]:

ألكْني إلى أهلِ العراقِ رسالةً ... وخصَّ بها، حييتَ، بكرَ بن وائلِ[٣]

فقوله: حييت، حشو لا منفعة فيه "[٤].

أما الجرجاني فقد قال: " وأما الحشو فإنما كره وذُم وأنكر ورُد، لأنه خلا من الفائدة، ولم تَحْلَ منه بعائدة، ولو أفاد لم يكن حشوًا، ولم يُدْعَ لغوًا "[٥].

وذكر ابن سنان " أن أصل الحشو أن يكون المقصدُ بها إصلاحَ الوزن أو تناسبَ القوافي، وحرف الرويِّ إن كان الكلام منظومًا، وقصدَ السجع، وتأليف الفصول إن كان منثورًا "[١].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٢.

(٢) مصقلة بن هبيرة هو أبو الحسن علي بن شجاع ابن محمد بن علي بن مسهر بن عبد العزيز بن سليل ابن عبد الله بن زكير وقيل زكريا ابن مصقلة ابن هبيرة بن بشر بن يثربي بن امرئ القيس ابن ربيعة بن مالك بن ثعلبة بن شيبان الشيباني المصقلي الصوفي كان من مشاهير المحدثين رحل إلى بغداد، ومكة، وخراسان، توفي لعشر خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وأربع مئة، كان من الثقات يسكن باغ سلم محله بأصبهان- انظر: الأنساب، أبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني، تحقيق عبد الله عمر، دار الفكر، بيروت ١٩٩٨م، الطبعة الأولى ٣١٤/٥، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٥١/١٩.

(٣) جاء البيت منسوبًا إلى مصقلة بن هبيرة في نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٤١.

(٤) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٤٣.

(٥) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني ١٤/١.

وقال ابن رشيق عن الحشو: " وسماه قوم الاتكاء، وذلك أن يكون في داخل البيت من الشعر لفظ لا يفيد معنى، وإنما أدخله الشاعر لإقامة الوزن، فإن كان ذلك في القافية فهو استدعاء، وقد يأتي في حشو البيت ما هو زيادة في حسنه وتقوية لمعناه "(٢).

وقال ابن سنان مفصلاً لباب الحشو: " أن لكل كلمة وقعت هذا الموقع من التأليف فلا تخلو من قسمين:

الأول: إما أن تكون أثرت في الكلام تأثيرًا لولاها لم يكن يؤثر.

الثاني: لم يؤثر، بل دخولها فيه كخروجها منه، وإذا كانت مؤثره فهي على ضربين:

أحدهما: أن تفيد فائدة مختارة، يزداد بها الكلامُ حسنًا وطلاوة.

ثانيهما: أن تؤثر في الكلام نقصًا، وفي المعنى فسادًا، ومثال للضرب الأول وهو أن تفيد الكلمة فائدة مختارة، وتقع حشوًا وتفيد معنى حسنًا قول أبي الطيب:

وتحتقرُ الدُنيا احتِقارَ مُجربٍ يرى كل ما فيها– وحاشَاكَ– فانيا(٣)

لأن " حاشاك " هاهنا لفظةٌ لم تدخل إلا لكمال الوزن، لأنك إذا قلت احتقار مجربٍ يرى ما فيها فانيا كان كلامًا صحيحًا مستقيمًا، فقد أفادت مع إصلاح الوزن دعاءً حسنًا للمدوح في موضعه "(٤).

ونجد أن القزويني قد جعل كلمة " حاشاك " من الاعتراض ويقول: " وإما بالاعتراض وهو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة سوى ما ذكر في تعريف التكميل كالتنزيه والتعظيم في قوله تعالى: ﴿ **وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ** ﴾(٥). والدعاء في قول أبي الطيب.

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٢.

(٢) العمدة، ابن رشيق القيرواني، دار صادر بيروت، ص٣٥٥.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢٦/١.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٣.

(٥) سورة النحل، الآية(٥٧).

وتحتقـرُ الـدنيا احتقـارَ مُجـربٍ   يـرى كـلَّ مـا فيهـا وحاشـاكَ فانِيَـا[١]

فإن قوله: "وحاشاك" دعاء حسن في موضعه "[٢].
ومثله قول أبي محلم[٣]:

إن الثمَـــــانِينَ- وبُلِغْتَهَـــــا   قد أَحْوَجَتْ سَمْعِي إلـى ترجُمـانْ[٤]

لأن " وبلغتها " تجري مجرى " وحاشاك " في الفائدة، ولو ألغيت من البيت لصح المعنى دونها على حد ما قلناه في البيت الأول، وليس يخفى على المتأمل حُسنُ المقصود "بحاشاك" و " بُلغتها " في هذين الموضعين "[٥].

وأيضًا قول أبي الطيب[٦]:

نَـهَبْتَ من الأعمارِ ما لوْ حَوَيتَهُ   لَهُنِّئَـــتِ الـــدنيا بأنـــكَ خالِـــدُ

---

(١) ديوان أبي الطيب المتنبي، أبو البقاء العكبري، تحقيق: مصطفى السقا إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي ٢٦/١.
(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، جلال الدين الخطيب القزويني، ص١٩٤.
(٣) هو عوف بن محلم الخزاعي بالولاء، يكنى أبا المنهال، وهو أحد الندماء، جمع العلم والأدب والشعر والرواية، وأصله من حران، انتقل إلى العراق فاختص بطاهر بن الحسين، ثم قربه عبدالله بعد موت أبيه وظل معه إلى أن قارب الثمانين، وحن إلى أهله، ففارق عبد الله بن طاهر، ولكنه مات في طريقه إلى خران سنة ٢٢٠هـ.
معجم الأدباء، ياقوت بن عبد الله الحموي ٥١٤/٤، معاهد التنصيص على شواهد التخليص، عبدالرحيم بن أحمد العباسي، ص٣٧٥، لسان العرب، ابن منظور الإفريقي ٢٦٠/٩.
(٤) انظر: عوف بن محلم الخزاعي حياته وشعره، رشدي حسن، مؤتة للبحوث والدراسات، مجلة علمية محكمة ومفهرسة تصدر عن عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة مؤتة، الأردن-١٤١٤هـ-١٩٩٣م، العدد الثاني، ص٤١.
(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٤.
(٦) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢٧٧/١.

لأن قوله: " لهنئت الدنيا " بمنزلة الحشو، إذا كان المعنى يتم دونه، ولو استوى له أن يقول: نهبت من الأعمار ما لو حويته لخلدت في الدنيا، لكان المعنى مستقيمًا، لكنه لما احتاج إلى ألفاظ يصح بها الوزن جاء بقوله: " لهنئت الدنيا " فأتى بزيادة من المدح، وفضله من التقريظ والوصف لا خفاء بحسن موقعها، فهذا وما أشبهه هو الحشو المحمود المختار "[١].

وقال الواحدي في شرحه للبيت: " هذا من أحسن ما مدح وهو مديح موجه ذو وجهين وذلك أنه مدحه في المصراع الأول بالشجاعة وكثرة قتل الأعداء فقال: نهبت من أعمار الأعداء بقتلهم ما لو عشته لكانت الدنيا مهنأة ببقائك فيها خالدًا وهذا هو الوجه الثاني من المدح أنه جعله جمالاً للدنيا تهنأ الدنيا ببقائه فيها ولو قال ما لو عشته لبقيت خالدًا لم يكن المدح موجهًا "[٢].

أما مثال الكلمة التي تقع حشوًا وتؤثر في المعنى نقصًا وفي الغرض فسادًا، فكقول أبي الطيب[٣] يمدح كافورًا[٤]:

تَرَعـرَعَ الملـكُ الأُسـتاذُ مُكـتَهِلاً ... قَبلَ اكتِهالٍ أديبًا قبلَ تأدِيبِ[٥]

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٥.

(٢) انظر شرح ديوان أبي الطيب المتنبي للواحدي، سر الفصاحة، ٥١٥.

(٣) سبق ترجمته، ص ٣٩

(٤) كافور الإخشيدي سبق ترجمته. ٤٠

(٥) ديوان المتنبي، نشر ناصيف اليازجي ١/٣١٦.

لأن قوله: " الأستاذ " بعد "الملك" نقص له كبير، وبين تسميته له بالملك والأستاذ فرقٌ واضح، فـ " الأستاذ " هاهنا قد وقع حشوًا، ونقص به المعنى، إذ كان الغرض في المدح تفخيم أحوال الممدوح وتعظيم شأنه لا تحقيره وتصغير أمره "[١] ويريد أن شب وارتفع مكتهلاً أي في حلب الكهول قبل أن يكتهل وأديبًا قبل أن يؤدب، يعني أنه نشأ على طبع الحلم والأدب ولم يستفد هما من مر الليالي "[٢].

وقول أبي الطيب:

ولا فضلَ فيها للشجاعةِ والندَى وصبرِ الفتَى لولَا لقاءُ شَعُوبِ[٣]

فإن " الندى " هاهنا حشوٌ يُفسد المعنى، وذلك أن مقصوده أن الدنيا لا فضل فيها للشجاعة والصبر لولا الموت، لأن الشجاع إذا علم أنه يُخلد فأي فضل لشجاعته، وكذلك الصابر، فأما " الندى " فمخالف لذلك، لأن الإنسان إذا علم أنه يموت هان عليه بذلُ ماله، وكذلك يقول: إذا عوتب في بذلِهِ كيف لا أبذل مالاً أبقى له، ومن أين أثق بالتمتع بهذا المال ؟ والأمر في هذا ظاهر "[٤].

رأى العلماء ومنهم الجرجاني أن الحشو إنما أنكر وذم لأنه يخلو من الفائدة، وأشار الخفاجي إلى أنه أنكر لعيبه في التأليف، وعدم وضع الألفاظ في مواضعها، ونقصاً في المعنى، وفساداً في الأغراض، ونراه قد عرض له بصورة شاملة ومتكاملة.

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٧.
(٢) شرح ديوان المتنبي ٣١٦/١.
(٣) شعوب: علم للمنية المصدر السابق ٨٢/٢.
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٩.

المبحث الرابع

المعاظلة

حدّد ابن سنان مفهوم المعاظلة قائلاً: " ومن وضع الألفاظ موضعها اللائق بها ألا يكون الكلام شديد المداخلة يركب بعضه بعضاً، وهذا هو المعاظلة التي وصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهير بن أبي سلمى بتجنبها فقال: كان لا يعاظل بين الكلام، لأن المعاظلة المداخلة "(١).

ونجد الخفاجي قد خطأ قدامة بن جعفر في تمثيل هذا اللون متبينًا بذلك برأي الآمدي لأن أبا الفرج قال: إن المداخلة التي تكره ووصف عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهيرًا بتجنبها أن يدخل بعض الكلام فيما ليس من جنسه "(٢).

ومثّل لذلك قول أوس بن حجر(٣) ":

وذاتُ هِـــدمٍ عَـــارٍ نَوَاشِـــرُهَا   تُصمِّتُ بالماءِ تَولَباً جَدِعَا(٤)

فسمى الصبي تولبًا والتولب: ولد الحمار "(٥).

وقول الآخر(٦):

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣١.

(٢) المصدر نفسه، ص٥٣١.

(٣) أوس بن حجر بن مالك التميمي، يكنى أبا شريح، وهو زوج أم زهير بن أبي سلمى شاعر جاهلي، عمر طويلاً، ولم يدرك الإسلام، وكان غزلاً مغرمًا بالنساء. طبقات ابن سلام الجمحي ٩٧/١، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٧٠/١١، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي ٣٧٩/٤.

(٤) ديوان أوس بن حجر، دار صادر بيروت، ص٣٦.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣١.

(٦) نسب البيت إلى مزَّرد بن ضرار في أسرار البلاغة ٢٨/١، واسمه يزيد وهو أخو الشماخ بن ضرار وكان عريضًا أي شديد العارضة.

=

ومـا رَقَـدَ الولـدَانُ حتـى رأيتُـهُ   على البَكرِ يَمريـهِ بساقٍ وحافِرِ

فسمى رجلَ الإنسان حافراً، وهذا ليس من المعاظلة التي هي ركوب بعض الكلام بعضًا ومداخلة بعضه في بعض "[١].

قال صاحب الصناعتين: " فسمى قدم الإنسان حافرًا، وهذا غلط من قدامة كبير لأن المعاظلة في أصل الكلام إنما هي ركوب الشيء ببعضه بعضًا، وسمي الكلام به إذا لم ينضد نضدًا مستويًا، وأركب بعض ألفاظه رقاب بعض، وتداخلت أجزاؤه...، وتسمية القدم بحافر ليست بمداخلة كلام في كلام وإنما هو بعد في الاستعارة "[٢].

واستحسن الخفاجي من تمثيل ذلك ما ذكره أبو القاسم الآمدي لأمثلة المعاظلة من قول أبي تمام[٣]:

خانَ الصفاءَ أخٌ خانَ الزمانُ أخًا   عنهُ فلم يتَخوَّنْ جسمَهُ الكمدُ[٤]

قال: " لأن ألفاظ هذا البيت يتشبث بعضها ببعض، وتدخل الكلمةُ من أجل كلمة أخرى تجانسها وتشبهها، مثل "خان" و"خان" و"يتخون" و"أخ" و"أخا" فهذا هو حقيقة المعاظلة "[٥].

وكذلك قول أبي تمام:

يـا يـومَ شـرَّدَ لَهـوِي لَهـوُهُ   بصَـبَابتي وأَذَلَّ عِـزَّ تَجَلُّـدِي[٦]

ا انظر الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٥٨/٢، طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي ١٠٥/١.

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣١.

(٢) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ١٦٣/١.

(٣) سبقت ترجمته، ص ١٧

(٤) ديوان أبي تمام، دار المعارف ٤٠٥/١.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣٢.

(٦) ديوان أبي تمام ٨٣/١.

فقوله: "يا يومَ شرَّد يوم لهوى لهوه" شديد التعاظل حتى كأنه سلسلة(١)، ويرى بعض العلماء " أن خطأ قدامة أنه أغفل الذوق العربي الذي يفهم من المعاظلة ما لا يفهمه، والغرض الذي استهدفه مثل عمر بن الخطاب في مدح زهيرابن أبي سلمى "(٢).

كما لا يخفى ما في نقد الآمدي من الموضوعية، وإن كل ما أخذ على أبي تمام يقره عليه صاحب الذوق الأدبي السليم إلا أن ذلك الإقرار لا يؤدي إلى رفض فكرة قدامة، أو المعنى الذي بان له والاتجاه الذي رضيه منه مفهوم المعاظلة(٣).

ويعلل ابن سنان ما استند إليه الآمدي في مخالفته لقدامة: فيقول: وقال أبو القاسم فإن قال قائل: إن هذا الذي أنكرته من تشبُّث الكلام بعضه ببعض، وتعلقِ كل لفظة بما يليها، وإدخال كلمة من أجل أخرى تشبهها وتجانسها هو المحمود من الكلام، وليس من المعاظلة في شيء، ألا ترى أن البلغاء والفصحاء لما وصفوا ما يُستجاد ويُستحَب من النثر والنظم قالوا: هذا كلام يدل بعضُه على بعض، ويأخذ بعضُه بِرقابِ بعض! قيل: هذا صحيح من قولهم، ولم يريدوا به هذا الجنسَ من النظم والنثر، ولا قصدوا هذا النوعَ من التأليف، وإنما أرادوا المعاني إذا وقعت ألفاظُها في مواقعها، وجاءت الكلمةُ مع أختها المشاكلة لها التي تقتضي أن تجاورها بمعناها: إما على الاتفاق، أو التضاد، حسبما تُوجِبُهُ قسمة الكلام "(٤).

ومن ذلك نرى أن النقاد اتفقوا على نبذ المعاظلة لأنها تؤدي إلى التعقيد، ورأى ابن الأثير أن خطأ قدامة يعود إلى أنه لم يقسم المعاظلة إلى لفظيه ومعنوية، ولكنه ضرب لها مثالاً كقول الفرزدق(٥):

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣٢.

(٢) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان، الدكتور إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٣٧١هـ-١٩٥٢م، ص٢٢٤.

(٣) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، الدكتور بدوي طبانة، ص٢٢١.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣٣.

(٥) سبقت ترجمته، ص ٩٤

وما مثلُهُ في الناسِ إلا مُمَلَّكاً　　　أبُو أمِّه حيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ[١]

وهذا من القسم المعنوي لا من القسم اللفظي، ألا ترى إلى تراكب معانيه بتقديم ما كان يجب تأخيره، وتأخير ما كان يجب تقديمه، لأن الأصل في معناه، وما مثله في الناس حي يقاربه إلا مُمَلَّكًا أبو أمه أبوه "[٢].

(١) ديوان الفرزدق ١/١٠٨.

(٢) المثل السائر، ضياء الدين ابن الأثير ١/٢٨٦.

المبحث الخامس

الإيجاز والمساواة والإطناب والتذييل

عُنِيَ ابن سنان بدراسة كل من الإيجاز والمساواة والإطناب حيث تناولها في مبحث واحد ووضع لها تعريفات دقيقة حيث حد الإيجاز المحمود بقوله: " هو إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ "(١) كما ذهب إلى أن تعريفه أصح من تعريف الرماني للإيجاز قائلاً: " وهذا الحد أصحُ من حد أبي الحسن الرُماني: بأنه العبارة عن المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ، وإنما كان حدُّنا أولى لأنا قد احترزنا بقولنا: "إيضاح" من أن تكون العبارةُ عن_المعنى وإن كانت موجَزَةً_غيرَ موضِحةٍ له "(٢).

وجعله من شروط الفصاحة والبلاغة حيث قال: " ومن شروط الفصاحة والبلاغة الإيجازُ والاختصارُ وحذف فضول الكلام، حتى يعبَّر عن المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، وهذا الباب من أشهر دلائل الفصاحة وبلاغةِ الكلام عند أكثر الناس "(٣).

واستحسن الخفاجي كلام جعفر بن يحيى بن خالد(٤) قائلاً: " كان يقول لكتَّابه: "إن استطعتُم أن يكون كلامُكم كلُّه مِثلَ التوقيع فافعلوا" فهذا أمرٌ لهم بالإيجاز، وتجنُّب الإطالة "(٥) كما أورد للإيجاز أمثلة من القرآن الكريم.

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٣١٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٣٠٧.

(٤) جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، يكنى أبا الفضل، كان من رجال العلم، توصل إلى أعلى المراتب، وكان ابنه يحيى كامل السؤدد بحيث أن المهدي ضم إليه ابنه الرشيد وكان من ذوي الفصاحة والمشهورين باللسن والبلاغة، ت عام ١٨٧هـ. تاريخ بغداد، أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، ١٠/٤٤٠، سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي، ٢٧٦/٨، وفيات الأعيان، أبو بكر بن خلكان ٣٢٨/١.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣١١.

يقول: " ومن أمثلة الإيجاز والاختصار في القرآن الكريم قولُ الله تبارك وتعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾[١] . لأن هذه الألفاظ على إيجازها قد عُبِّر بها عن معنى كثير، وذلك أن المراد بها أن الإنسان إذا علم أنه متى قَتل قُتِل كان ذلك داعيًا له قويًا إلى ألا يُقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو قصاص كثيرٌ من قتل الناس بعضهم لبعض، فكان ارتفاعُ القتل حياةً لهم، وهذا معنى إذا عبّر عنه بهذه الألفاظ اليسيرة في قوله تعالى: ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ كان ذلك من أعلى طبقات الإيجاز "[٢].

ذكر ابن سنان أن علي بن عيسى الرُماني قد جعل الإيجاز على ضربين، القِصَر، والحذف، والحذف عنده هو إسقاط كلمة لدلالة فحوى الكلام عليها، أما القصر فهو بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف "[٣].

مثال إيجاز القصر قول الإمام علي بن أبي طالب: "قيمة كلِ امرئٍ ما يحسن "[٤]، فإن هذه الألفاظ على غاية الإيجاز وإيضاح المعنى، وظُهور حُسنها يُغني عن وصفه "[٥].

ومن أمثلة إيجاز القِصَر في النظم قول امرئ القيس:

عل هيكلٍ يُعطيكَ قبلَ سُؤالِهِ ... أفانينَ جريٍ غيرَ كزٍ[٦] ولا وانِ[٧]

---

(١) سورة البقرة، الآية(١٧٩).

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٣١٤ انظر النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ص٧٦.

(٤) البيت ضمن قصيدة لعلي بن أبي طالب من الشعر المنسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب جمع وشرح، عبدالعزيز سيد الأهل، دار صادر بيروت ١٤٠٠هـ- ١٩٥٠م من البيت

وقيمة المرءِ ما قد كان يحسنه ... والجاهِلُونَ لأهل العلم أعداءُ

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣١٦.

(٦) الكز: الضّنين والمتفيض.

(٧) الواني: الفاتر المبطئ، يقول: هبطتُ هذا الغيث على فرسٍ عظيم الهيكل يُعطيك ما عنده من الجري قبل أن تُكلفه ذلك وتسأله إياه، ديوان امرئ القيس، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل، ص٨٩.

قال الخفاجي: " لأنه جمع بقوله: "أفانين جري" ما لو عُدَّ كان كثيرًا،وأضاف إلى ذلك أوصافَ الجودة في الفرس بقوله: إنه يعطي" قبل سؤاله" أفانين جَريه، ولا يحتاج إلى حَثٍ، ونفى عنه بقوله: " غير كزٍ ولا وان" أن تكون معه الكزازةُ من قِبلِ الجِمَاح والمنازعة، والوَنىَ من قِبلِ الاسترخاء والفتور فكان في هذا البيت جملةٌ من وصفِ الفرس قد عُبِّرَ بها عن معانٍ كثيرة "[١].

ومن ذلك أيضًا قول الشريف الرضي[٢]:

مَالُوا على شُعبِ الرحَالِ وأسنَدُوا　　　أيدي الطِّعَانِ إلى قُلُوبٍ تَخفِقُ[٣]

لأنه لما أراد أن يصفَ هؤلاء القومَ بالشجاعة في نَعتِهم بالغرام والصبابة، عبّر عن ذلك بقوله: أيدي الطِعان فأتى بأخصر ألفاظ وأوجزها "[٤] أما من أمثلة إيجاز الحذف قال الخفاجي: " ولقصد الإيجاز فيما وقع فيه حذفٌ كثير حتى حُذفت الأجوبةُ لدلالة لكلام عليها كقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى** ﴾[٥] كأنه يريد لكان هذا القرآن ولم يقل ذلك "[٦].

وقوله تعالى: ﴿ **وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ** ﴾[٧] كأنه يريد لما كان هذا كله حصلوا على النعيم الذي لا يَشُوبُهُ كدرٌ أو غير ذلك من الألفاظ ولم يقله.

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣١٨.
(٢) الشريف الرضي سبقت ترجمته، ص ٦٥
(٣) ديوان الشريف الرضي، طبعة وزارة الإرشاد، إيران ٣٩/٢.
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣١٩.
(٥) سورة الرعد، الآية(٣).
(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣١٣.
(٧) سورة الزمر، الآية(٧٣).

وفي هذا الحذف في الكلام مع الدلالة على المراد فائدة، لأن النفس تذهب فيه كل مذهب،ولو ورد ظاهراً في الكلام لاقتصر به على البيان الذي تضمنه، فكان حذف الجواب أبلغ لهذه العلة"[١].

ومما قُصد به الإيجاز حذفُ المضاف وإقامةُ المضاف إليه مقامه، بحيث يقع العلم، ويزول اللبس، كقوله تبارك وتعالى: ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا** ﴾[٢] والمعنى أهل القرية، وأصحاب العير "[٣].

ولِحَمدِ الإيجاز فُضِّل أَحَدُ الشاعرين على صاحبه إذا كانا اشتركا في معنىً، وأوجزَ أحدُهما في ألفاظه أكثر من الآخر، ولهذا قدموا قولَ الشماخِ ابن ضرار "[٤].

إذا ما رايةٌ رُفِعتْ لِمجدٍ   تلقاهَا عَرَابةُ باليَمينِ[٥]

على قول بشر بن أبي حازم[٦]:

إذا ما المَكرُماتُ رُفِعنَّ يومًا   وقصَرَ مُبتغُوهَا عن مدَاهَا[٧]

وَضَاقت أذرُعُ المُثرينَ عنها   سما أوسٌ إليها فاحتَوَاهَا

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣١٣.

(٢) سورة يوسف، الآية(٨٢).

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣١٤.

(٤) الشماخ بن ضرار هو حرملة بن سنان المازني الذبياني، شاعر مخضرم وهو من طبقة لبيد والنابغة، كان أوجز الناس على البديهة، توفي سنة ٢٢هـ-٦٤٣م، انظر خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي ٥٢٦/١.

(٥) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، حققه وشرحه صلاح الدين الهادي، دار المعارف، مصر، ص٣٣٦.

(٦) بشر بن حازم هو عمرو بن عوف الأسدي أبو نوفل شاعر جاهلي فحل من الشجعان من أهل نجد من بني أسد بن خزيمة هجا أوس بن حارثة الطائي بخمس قصائد وأسره بنو نهيان الطائيون، له قصائد في الفخر والحماسة توفي قتيلاً في غزوة أغار بها على بني صعصعة سنة ٥٩٨م.
الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ص٨٦، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، البغدادي ٢٩٢/٢.

(٧) ديوان بشر بن حازم الأسدي، شرح، دكتور: صلاح الدين الهوادري، دار مكتبة الهلال، طبعة ١٩٩٧م، ص٢٢٢.

وإذا كان ابن أبي حازم سبق الشماح إلى المعنى، إلا أنه جاء به في بيتين واختصره الشماخ، فأتى به في بيت واحد "(١).

أما عن الإطناب فقد ذكر الخفاجي قائلاً: " أن علي بن عيسى كان يُسمي العبارة عن المعنى بالكلام الكثير الذي يُستفاد منه إيضاحُ ذلك المعنى وتفصيله" الإطناب"، ويجعل "التطويل" عيبًا وعيًا، والإطناب حسنًا ومحمودًا، وهذا المذهب من أبي الحسن موافق لما اخترناه،لأنه يذهب إلى حُسن الإطناب الذي هو عنده طولُ الكلام في فائدة وبيان، وإخراج للمعنى في معاريض مختلفة، وتفصيل له،ليتحققه السامع، ويستقر عنده فَهمُهُ"(٢).

ويرى العلماء ومنهم العسكري: " أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام، وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ "(٣).

ويرى أيضًا أن الإطناب " ينبغي أن يستعمل في المواطن الجامعة والمواقف الحافلة، لأن تلك المواطن تجمع البطيء الفهم، والبعيد الذهن والثاقب القريحة، والجيد الخاطر، فإذا تكررت الألفاظ على المعنى الواحد تؤكد عند الذهن اللقن، وصح للكليل البليد "(٤).

لذا نجد ابن سنان لا يفضل الإطناب على الإيجاز بقوله: " فإن كان الكلامُ الموجز لا يدل على معناه دلالةً ظاهرةً فهو عندنا قبيحٌ مذموم، لا من حيث كان مختصرًا بل من حيث كان المعنى فيه خافيًا، وإن كان يدلُ على معناه دلالةً ظاهرةً إلا أنها تخفي على البليد، والبعيد الذهن، ومن لا يسبق خاطرُه إلى تصوُر المعنى.

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٢٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٣١٥، انظر النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ص٨٣.
(٣) الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ص١/١٩٠.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٧٣/١.

ولو كان الكلام طويلاً لجاز أن يقع لهم الفهم، فليس هذا عندنا بموجب أن يكون الإسهابُ في موضع من المواضع أفضلَ من الإيجاز، كما أن النقوشَ الغليظةَ في كثير من الصناعات لا تكون أحسنَ من النقوش الدقيقة، لأن تلك يدركها الضعيفُ البصر، ويتعذر عليه إدراكُ هذه، ولو اعتبرنا هذا في الكلام وفَهمِ البليد له لاعتبرنا ذلك في النقوش وإدراك الضعيف البصر لها وهذا فاسد "(١).

أما عن المساواة فقال الخفاجي: " وقد قسموا دلالةَ الألفاظِ على المعاني ثلاثةَ أقسام: أحدها: المساواة، وهو أن يكون المعنى مساويًا للفظ،والثاني: التذييل وهو أن يكون اللفظ زائدًا على المعنى وفاضلاً عنه، والثالث: الإشارة، هو أن يكون المعنى زائدًا على اللفظ، أي أنه لفظ موجز يدُل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة... والمساواة هي الوسط بين هذين الطرفين من الإشارة والتذييل، تصلح للوسط بين الطرفين اللذين هما الملوك وعوامُ الناس "(٢).

واستحسن ابن سنان المساواة بقوله: " بحيث يكون المعنى مساويًا للفظ أو زائدًا عليه، وأعني بقولي زائدًا عليه أن يكون اللفظُ القليلُ يدل على المعنى الكثير دلالةً واضحةً ظاهرةً، لا أن تكون الألفاظ لفرط إيجازها قد أَلبست المعنى وأغمضته حتى يُحتاج في استنباطه إلى طرف من التأمل ودقيق الفكر "(٣).

أما المساواة المحمودة فحدّها الخفاجي بقوله: " هو إيضاحُ المعنى باللفظ الذي لا يزيد عنه ولا ينقُصُ "(٤).

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٠٨.
(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ٣٠٩.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠٩.
(٤) المصدر نفسه، ص ٣٢٦.

وعلق على هذا التعريف قائلاً: " ولقد احترزتُ بقولي: " إيضاح" مما احترزتُ منه في حدّ الإيجاز لِما أذهب إليه من قُبح العبارة عن المعنى باللفظ الذي لا يوضحه "(١).

ومن أمثلة المساواة بين اللفظ والمعنى ما قاله الخفاجي: " فكما وصفَ بعضُ الأدباء رجلاً فقال: كانت ألفاظُه قوالبَ لمعانيه، أي هي مساويةٌ لها، لا يفضل أحدُهما على الآخر "(٢).

فرق الخفاجي بين كل من المساواة والتذييل، والمساواة والإيجاز قائلاً: " وفرقتُ بين المساواة والتذييل بقولي: "لا يزيد عنه"، لأن التذييل لفظٌ يزيد على المعنى، وفرقتُ بين المساواة والإيجاز والإخلال بقولي: "ولا ينقص" لأن الإيجازَ على ما ذكرناه إيضاح المعنى بأقل ما يمكن من اللفظ، والإخلال هو نقص المعنى باختصار اللفظ "(٣) وأورد ابن سنان كثيراً من الأمثلة للمساواة منها قول زهير(٤):

ومَهَما تكُن عِندَ امرئٍ من خليقةٍ ... وإن خالَهَا تخفَى على الناسِ تُعلَمِ(٥)

وقوله أيضًا:

إذا أنتَ لم تُقصِر عن الجهلِ والخَنَا ... أصَبتَ حَليمًا أو أصَابَكَ جاهِلُ(٦)

وقول طَرَفة بن العبد(٧):

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٢٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٢٦.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ٣٢٦.

(٤) زهير بن أبي سلمى سبقت ترجمته، ص ٤٠

(٥) ديوان زهير ابن أبي سلمى، دار صادر بيروت، ص٨٨.

(٦) ديوانه، شرح الدكتور محمد حمود، دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى، ص٨٧.
تعصر: تكف، الخنا: الفحش من الفعل والقول، يقول: إذا أنت لم تكف عن الجهل أصبت حليمًا أو جاهلاً بجهلك، شرح الديوان، دار الفكر العربي، ص٨٧.

(٧) طرفة بن العبد هو عمرو بن عبد بن سفيان، ولُقب طرفة ببيت شعر قاله وكان هو والمتلمس ينادمان عمرو بن هند، ثم هجياه، فلما علم بذلك أرسل مع كل منهما كتابًا إلى عامله على "هجر" بقتلهما، وأخبرهما أنه كتب لهما بحباء،
=

ستُبدِي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتِيكَ بالأخبارِ مَنْ لَم تُزَوّدِ(١)

وقول أبي الطيب(٢):

أَتـى الزمـانَ بنُـوهُ فـي شَـبَيبتِهِ فَسَـرّهُمْ وأتينَـاهُ علـى الهَـرَمِ(٣)

أما التذييل فحده بقوله: " فهو العبارةُ عن المعنى بألفاظٍ تزيدُ عليه "(٤)، ونجد الخفاجي ذكر أنه لم يشترط له الوضوح كما فعل في حد الإيجاز والمساواة، وأوضح ذلك قائلاً: " وإنما لم نقل في التذييل إيضاح المعنى، كما قلنا في حدِّ المساواةِ والإيجاز، لما نذهب إليه من حَمدِ الإيجاز والمساواة إذا كان المعنى فيهما واضحًا، فاحترزنا بالإيضاح من أن يدخل في الحدّ ما لا نحمدُه من المساواة والإيجاز اللذين يكون المعنى فيهما غامضًا خفيًا، فأما التذييل فإنا على ما قدمناه لا نحمدُه في موضع من المواضع، فلا معنى لاحترازنا بذكر الإيضاح في حدّه "(٥).

ونجد الخفاجي قد أنكر التذييل قائلاً: " والذي عندي في هذا الباب أنعم إن كانوا يريدون بالإطالة تكرر المعاني والألفاظ الدالة عليها وخروجها في معاريض مختلفة ووجوه متباينة،وإن كان الغرض في الأصل واحدًا، فليس هذا مما نحن بسبيله لأنه بمنزلة إعادة كلام واحد مرارًا عدة فإن تلك الإعادة لا تؤثر فيه حسنًا ولا قبحًا "(٦).

وقد علم المتلمس بما في الكتاب بعد أن قرأه له أحد الغلمان، وطلب من طرفة أن لا يذهب إلى هجر فرفض، وأصر على السفر فقتل ولم يتجاوز العشرين من عمره.

طبقات ابن سلام الجمحي ١٣٨/١، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ص٩٧٧٤/٢، خزانة الأدب البغدادي ٤١٩/٢.

(١) ديوانه طرفة بن العبد، دار صادر بيروت، ص٤١.
(٢) المتنبي سبقت ترجمته، ص ٣٩
(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي، دار مكتبة الهلال، ٣١٧/٢.
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٢٨
(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٢٨.
(٦) المصدر نفسه، ص٣٢٨.

ومن أمثلة التذييل قول الشاعر(١):

فقـــدمَتِ الأديـــمَ لِرَاهشَـــيْهِ وأَلْقَــى قَولَهَــا كَـذِبًا ومينَــاْ(٢)

قال الخفاجي: " فالكذب والمين واحد ".

أما مثاله في النثر فقوله: فكما وقفتُ لبعض الكتّاب المتأخرين على فصلٍ من كتاب له شفاعةً وهو: وفلان ابن فلان الرّجل المشهور بالفروسية والرُّجلة والشجاعة والنجدة وله السنُّ والحُنكةُ والتجاربُ والدُربةُ ... فهذا كله تطويلٌ بإيراد ألفاظ كثيرة تدل على معنى واحد "(٣)

نرى أن الخفاجي قد وفق في تناوله لهذا المبحث حيث عُنِيَ بدراسته دراسة دقيقة ووضع له التعريفات والتقسيمات،والإيجاز أشاد الجاهليون به كثيراً ودعوا إليه ومارسوه في أدبهم على اختلاف ألوانه،حتى تطور مفهومه ونظر إليه على أنه مطلب بلاغي في حد ذاته حتى ود بعضهم لو كان الكلام كله توقيعات مصبوبة في قوالب من الإيجاز،وأوضح الخفاجي أنَّ هنالك أغراضاً بلاغية تتطلب الإطناب أيضاً، كما احتفى به بمثل ما احتفى بالإيجاز، وعني بكل من المساواة والتذييل واستحسن كل هذه الأساليب وحدد مفاهيمها وجلىَّ صورها مما كان أساساً لعمل المتأخرين أمثال الخطيب القزويني، وجاءت دراسته لهذا المبحث في سياق ذكره شروط تحقيق الفصاحة.

(١) الشاعر هو عدي بن زيد بن حمار بن زيد مناة، كان يسكن الحيرة ويدخل الأرياق، وكان ترجمان أبروَاز ملك فارس وكاتبه بالعربية وهو تميمي نصراني جاهلي، وأحد فحول الشعر الجاهلي، وكان شاعرًا فصيحًا من شعراء الجاهلية. طبقات ابن سلام، ابن سلام الحمجي ١/١٣٧، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٢/٩٧ معاهدة التنصيص، عبد الرحيم بن أحمد العباسي ١/٣١٥.

(٢) ديوان عدي بن زيد الأنصاري، تحقيق: محمد جبار المعيبيد منشورات وزارة الثقافة، العراق، بغداد، ص١١٢، ١٨٣.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٢٨.

المبحث السادس

التحرز مما يوجب الطعن

عرّف الخفاجي التحرُّز مما يوجب الطعن بقوله: " وأما التحرُّز مما يوجب الطعن فأن يأتي بكلام لو استمر عليه لكان فيه طَعنٌ فيأتي بما يتحرز به من ذلك الطعن، كقول طرفة[١]:

فسقَى ديارك غيرَ مُفسدِها[٢] صوبُ الربيعِ وديمةٌ تَهمِي

فلو لم يقل " غير مفسدها " لظُن به أنه يريد توالي المطر عليها، وفي ذلك فسادٌ للديار ومحوٌ لرسومها، كما عابوا قول ذي الرُمة:

ألا يا أسلَمِي يا دارَ ميّ على البِلىَ ولا زالَ مُنهلاً بِجَرعائِكِ القَطْرُ[٣]

وقالوا: إذا لم يزل القطر منهلاً عليها عفَى آثارها، ودَرسَ معالمها، فاحترز طرفة بقوله " غير مفسدها " من هذا الطعن، على أن ذا الرُّمة قد احترز بقوله ألا يا أسلَمِي يا دارَ ميّ على الْبِلَى "[٤].

ونجد هذا اللون عند الجاحظ يطلق عليه إصابة المقدار فقال: " وقال طرفة في المقدار وإصابته "[٥]:

فسقَى ديارَكَ غيرَ مُفسِدها صَوبُ الربيعِ وديمةٌ تَهمِي

(١) طرفة بن العبد سبقت ترجمته، ص ١٥٦

(٢) غير مفسدها: احتراس للديار من أن تفسدها كثرة المطر، انظر الديوان، دار صادر، ص٨٨.

(٣) ديوان ذي الرُمة غيلان بن عقبة، كارليل هنري هيس مارتني، عالم الكتب، ص٢٠٦، الجرعاء: الرمل المنبسط، انظر الديوان، ص٢٠٦.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٩.

(٥) ديوان طرفة بن العبد، دار صادر، ص٨٨.

طلب الغيث على قدر الحاجة، لأن الفاضل ضار "(١).

وأيضًا ذكر الجاحظ حديث النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه: اللهم حوالينا ولا علينا "(٢).

وهذا اللون عند العلماء يقصد به " الاحتراس " وقد أورد له الزركشي من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ **وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاء مِنْ غَيْرِ سُوءٍ** ﴾ (٣) فاحترس سبحانه بقوله: ﴿ **مِنْ غَيْرِ سُوءٍ** ﴾ عن إمكان أن يدخل في ذلك البهق والبرص "(٤) وقوله تعالى: ﴿ **لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ (٥) فقوله: ﴿ **وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** ﴾ احتراس بين أن من عدل سليمان وجنوده وفضله وفضل جنوده، أنهم لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا بها "(٦).

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، دار صعب ١٢٧/١.

(٢) الحديث عن أنس بن مالك قال: أصابت الناس سنةٌ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فبينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطبُ في يوم الجمعة قام إعرابيٌ فقال: يا رسول الله هلكَ المالُ وجاع العيالُ فادعُ الله لنا فرفعَ يديه وما نرى في السماء قزعةً فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحابُ أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحاذر على لحيته صلى الله عليه وسلم فمُطِرنا يومنا ذلك ومن الغدِ وبعد الغدِ والذي يليه حتى الجُمعة الأخرى وقام ذلك الأعرابي أو قال غيرُهُ فقال يا رسول الله تهدمَ البناءُ وغرقَ المالُ فادعُ الله لنا، فرفع يديه فقال: اللهم حوالينا ولا علينا فما يُشيرُ بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت وصارت المدينة مثل الجوبة وسال الوادي قناةُ شهرًا ولم يجيء أحدٌ من ناحية إلا حدثَ بالجود " انظر الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة- بيروت- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م الطبعة الثالثة ٣١٥/١.

(٣) سورة النمل، الآية(١٢).

(٤) البرهان في علوم القرآن، محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي أبو عبدالله، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت ٦٥/٣.

(٥) سورة النمل، الآية(١٨).

(٦) المصدر نفسه ٦٥/٣.

ومن أمثلة الاحتراز عند الخفاجي قولُ عبدالله بن المعتز [١] بالله في صفة الخيل:

صَببنَا عليهَا ظالمينَ سِياطَنا   فطارَتْ بها أيدٍ سِرَاعٌ وأرجُلُ [٢]

فإنه لو لم يقل " ظالمين " لكان للمعترض عليه أن يقول: إنماُ ضربت هذه الخيل لبُطئها، كما عابوا قولَ امرئ القيس[٣]:

فللزَّجرِ أُلهوبٌ[٤] وللساقِ دِرَّةٌ[٥]   وللسَّوط منهُ وقعُ أخرَجَ[٦] مُهذِبِ[٧]

وقالوا: إذا أحوج إلى هذا كُله فليس بسريع، فقال عبدالله " ظالمين " تحرزًا من هذا الطعن "[٨].

ومن الاحتراز أيضًا قول عبادة[٩]:

أقَمنَا أكلُنَا أكلُ استلابٍ   هُناكَ وَشُرْبُنا شُربٌ[١] بِدارُ [٢]

---

(١) عبد الله بن المعتز الخليفة العباسي، ولد ببغداد ولقب بالمرتضى بالله، إلا أن خلافته لم تدم إلا يومًا وليلةً، فقتل ودفن قرب داره سنة ٢٩٦هـ كان شاعرًا مطبوعًا جيد القريحة، رقيق الألفاظ والمعاني.
البداية والنهاية، ابن كثير القرشي مكتبة المعارف ١٠٩/١١، الكامل في التاريخ، ابن مكرم الثيباني ٤٤١/٦ تاريخ بن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، دار القلم، بيروت ١٩٨٤م الطبعة الجامعة ٢٩٢/٤.

(٢) ديوان عبدالله بن المعتز، دار صادر بيروت، ص٣٦٤.

(٣) امرئ القيس سبقت ترجمته، ص ٢١

(٤) الألهوب: اجتهاد الفرس في عدويه حتى يثير الغبار.

(٥) الدرة: حث الفرس على العدو.

(٦) الأخرج: ما خالط بياضه سواد.

(٧) المهذب: المسرع، انظر الديوان، دارالجيل، بيروت، ص٨٠ وجاء البيت:

للساق الهوبٌ وللسوط درةٌ   وللزجر منه وقعُ أهوج مِتعَبِ

قال هذه الفرس بطيئة، لأنها تحوج إلى السوط وإلى أن تركض بالرجل وتزجر " ويقال أول من عابه بهذا البيت زوجته لما احتكم إليها هو وعلقمة الفحل فغلبت علقمة، فطلقها عندما قالت له: سمعتك زجرت، وضربت، وحركت. انظر الديوان، دار الجيل، ص٧٠.

(٨) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤١١.

(٩) أبو عبادة البحتري سبقت ترجمته، ص ٥٢

وكأنه خاف أن يُقال هذا الذي فعلتم سُخف فقال:

ولـمْ يـكُ ذاكَ سُـخفًا غيـرَ أنّـي   رأيـتُ الشـربَ سُـخفُهُم وَقَـاُ َر[٣]

نرى أن العلماء تناولوا هذا الباب تحت مسمى " التتميم والتكميل"[٤] وبعضهم جعله ضرباً من "الإحتراس".[٥]

---

(١) بدار، مصدر بادره إلى الشيء: عاجله، أراد شربًا متسابقًا فيه. انظر الديوان، دار صادر- بيروت ٢/٣٣٠.

(٢) ديوانه، ٢/٣٣٠.

(٣) ديوانه ٢/٣٣١.

(٤) العمدة،ابن رشيق القيرواني ص١٢٦.نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص٢٤ الصناعتين،ابوهلال العسكري ص٣٨٩

(٥) البديع في نقد الشعر، لأسامة بن منقذ ص١٠

المبحث السابع

الاستدلال بالتعليـل

أول مـا وردت تسـمية " الاسـتدلال بالتعليـل " لـهـذا اللـون البلاغـي مـن ابـن سـنان يقـول دكتور حفني شرف: " إن هذه الصورة البلاغية من اكتشاف ابن سنان فإنه أول من اكتشفها ووضع لها اسمًا "[١].

وأورد له الأمثلة من القرآن الكريم والنظم، يقول الخفاجي " وأما الاستدلال بالتعليل فكقول التهامي[٢]:

لَوْ لَمْ تكن رِيقَتُـهُ خَمرةً لمـا تَثنَـىَّ عِطْفُهُ وهو صَاحِ[٣]

وقولـه:

لَوْ لم يكُن أُقحُوانًا ثَغرُ مَبَسمِها ما كانَ يزدادُ طيباً ساعةَ السَحَرِ[٤]

---

(١) التصوير البياني، دكتور حفني شرف، مكتبة الشباب، الطبعة الثانية ١٩٧٢م، القاهرة، ص٤٨٥.

(٢) ابن الحسن التهامي هو علـي بـن محمـد التهامي شـاعر مـن شـعراء القرن الرابـع الهجري وأوائل الخامس ولـد بمكـة المكرمـة عـام ٣٦٠هـ، زار طـرابلس والشـام وحلـب ومعـرة النعمـان مادحًـا الأمـراء اشـترك فـي ثـورة آل الجـراح ضـد الفاطميين حيث ذهب إلى مصر يحرض قبائلها على الثورة فقبض عليه وسجن في خزانة البنود بالقاهرة ثم قتل في سجنه في اليوم التاسع في جمادى الأولى عام ٤١٦هـ. وفيات الأعيان وأنباء أبنـاء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بـن محمد بـن خلكـان ٣٧٨/٣، سير أعـلام النبلاء، بـن قايمـاز الـذهبي ٣٨٢/١٧، كشف الظنون، مصـطفى القسطنطيني ٧٧١/١.

(٣) ديوان علي بن محمد التهامي، تحقيق الدكتور محمد بن عبدالرحمن الربيـع، دار مكتبـة المعارف، الرياض ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م، الطبعة الأولى، ص١٥١.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٥٥.

وقد ورد هذان البيتان في كتاب نفحة الريحانة حيث قال صاحبه: هذا النوع من البديع بديع "[١].

وقول ابن هاني الأندلسي[٢]:

ولو لَم تُصافِحْ رِجلُها صفحَةَ الثرى لَمَا كُنتُ أدرِي عِلةً للتيممِ[٣]

جعل ابن أبي الإصبع المصري هذا البيت في باب التعليل حيث ذكر: " وهو أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع فيُقدم قبل ذكره علة وقوعه، لكون رتبة العلة أن تقدم على المعلول، كقول بن هاني الأندلسي:

ولو لَم تصافِحْ رجلُها صفحةَ الثرى لما كُنتُ أدري علةً للتيممِ

فعلل درايته علة التيمم بمصافحة رجل صاحبته صفحه الثرى وقال: " أراد ابن هاني الإغراب في المعنى، فوقع فيما عادته أن يقع فيه من الغلو "[٤].

أما ما جاء في القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾[٥] حيث أورد العلماء هذه الآية مثالاً للمذهب الكلامي وقال صاحب الكليات: "والفرق بينه وبين حسن التعليل اشترط البرهان في الأول دون الثاني "[٦].

---

(١) نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة، تحقيق: عبدالفتاح الحلو، ١٩٦٧م- ١٣٨٧هـ- ٤١٧/١.

(٢) ابن هاني الأندلسي، هو أبو القاسم محمد بن هاني الأزدي الأندلسي، كان أبوه هاني من قرية المهدية " في أفريقية، كان شاعرًا أديبًا فانتقل إلى الأندلس فولد له محمد حيث نشأ على حظ وافر من الأدب ومهر في الشعر، كان حافظًا لأشعار العرب وأخبارهم. كان يلقب بمتنبي العرب، توفى ولم يتجاوز السادسة والثلاثين.
البداية والنهاية، ابن كثير القرشي ٢٧٤/١١، وفيات الأعيان، أبو بكر بن خلكان ٤٢١/٤.

(٣) لم أجد البيت في ديوانه، دار صادر بيروت، طبعة ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م، ونسبه ابن سنان لابن هاني الأندلسي كما نسبه ابن حجة الحموي في خزانة الأدب ٣٩١/٢ إلى ابن هاني الأندلسي.

(٤) تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري ٣١٠/١.

(٥) سورة الأنبياء، الآية(٢٢).

(٦) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أبو البقاء بن موسى الحسيني الكفومي، تحقيق: عدنان دروش، محمد المصري، دار مؤسسة الرسالة، بيروت-١٤١٩هـ-١٩٩٨م ٨٦٨/١.

وقد أورد الخطيب القزويني هذا اللون ويسميه المذهب الكلامي يقول: " هو أن يورد المتكلم حجة لما يدعيه على طريق أهل الكلام[١] نحو: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ .

وممّن عرض للمذهب الكلامي بعد القزويني ابن حجة الحموي ففي مستهل حديثه عنه يقول: " المذهب الكلامي نوع كبير نُسبت تسميته إلى الجاحظ. وهو في الاصطلاح أن يأتي البليغ على صحة دعواه وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية تصح نسبتها إلى علم الكلام، إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة "[٢].

ثم يستطرد إلى المناقشة والرد على قول ابن المعتز بقوله: " ما أعلم أني وجدتُ في القرآن منه شيئًا، وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا "[٣] يقول ابن حجة: " وليس عدم علمه مانعًا علم غيره، إذ لم استشهد على هذا المذهب الكلامي بأعظم من شواهد القرآن، وأصح الأدلة في شواهد هذا النوع وأبلغها قوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ وهذا دليل قاطع على وحدانية الله جلّ جلاله، وتمام الدليل أن تقول: لكنهما لم تفسد، فليس فيهما آلهة غير الله "[٤].

ومن ذلك نجد أن أقرب ما يمكن إلى ما أورده ابن سنان فيما سماه الاستدلال بالتعليل هذا اللون البديعي الذي تناقله العلماء وهو المذهب الكلامي.

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني ٣٤١/١.سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي ص٤١٥

(٢) خزانة الأدب وغاية الأدب، تقي الدين أبي بكر علي المعروف بابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو، دار مكتبة الهلال- بيروت-١٩٨٧م، الطبعة الأولى، ص٣٦٤.

(٣) البديع لابن المعتز، طبعة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م باب التعريض والكتابة، ص٦٤.

(٤) خزانة الأدب وغاية الأرب، بن حجة الحموي، ٣٦٤.

قال السيوطي: " أن حسن التعليل عند العلماء أن يدعي لوصف علة مناسبة له باعتبار لطيف غير حقيقي، أي بأن ينظر نظرًا مشتملاً على لطف ودقة، ولا تكون علة له في الواقع "[١].

ويأخذ السيوطي بمذهب ابن حجة حيث أورد قوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾[٢] ضمن أمثلة المذهب الكلامي حيث قال: " والمذهب الكلامي إيراد حجة للمطلوب على طريقتهم أي أهل الكلام بأن يكون بعد تسليم المقدمات مستلزمة للمطلوب كقوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ أي خرجنا بنظامها المشاهد بوجود التمانع بينهم على وفق العادة عند تعدد الحاكم مع التمانع في الشيء وعدم الاتفاق عليه ".

ونلاحظ أن ابن سنان اكتفى في هذا اللون البلاغي بوضع الأمثلة من الشعر والقرآن الكريم، ولم يحظ هذا اللون عنده بكثير من الشرح والتحليل.

---

(١) إتمام الدراية لقراء النقاية، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: الشيخ إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية، بيروت-١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م الطبعة الأولى ١٤٠/١، دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي عبدالنبي بن عبدالرسول الأحمد فكري، تحقيق: وتعريب عباراته الفارسية حسن هاني فحصا، دار الكتب العلمية- لبنان-بيروت ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، الطبعة الأولى ٢٥/٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية(٢٢).

المبحث الثامن

الاستحالـة والتناقض

ذهب الخفاجي إلى أن " من صحة المعاني تجنُب الاستحالة والتناقض، وذلك أن يُجمع بين المتقابلين من جهة واحدة، والتقابلُ يكونُ على أربع جهات: إما على طريق المضاف، وهو الشيء الذي يقال بالقياس إلى غيره، مثل الضِّعف بالقياس إلى نصفه، والأب إلى ابنه، والمولى إلى عبده، وإما على طريق التضاد مثل الأبيض والأسود، والشِّرير والخيّر، وإما على طريق العدم والقِنْيَة، كالأعمى والبصير، والأمرَدِ وذي اللحية، وإما على طريق النفي والإثبات، مثل أن يقال: زيد جالسٌ زيد ليس بجالس "(١).

وقال: " وإذا كان هذا مفهومًا فالذي يقع في النظم والنثر من هذا التناقض على هذا النحو عيبٌ في المعاني بغير شك، وإن كانوا قد تسمحوا في الشعر بأن يكون البيت شيٌء، وفي بيت آخر ما ينقُضه حتى يُذم في بيتٍ شيٌء من وجهٍ، ويمدح في بيت آخر من ذلك الوجه بعينه "(٢).

اهتم نقاد العرب بهذا اللون البلاغي وعنوا به عناية كبيرة، فنوه القاضي الجرجاني بأن هذا الباب " يحتاج إلى إنعام الفكر، وشدة البحث، وحسنِ النظر، والتحرز من الإقدام قبل التبيّن، والحكم إلا بعد الثقة، وقد يغمُض حتى يخفى، وقد يذهب منه الواضح الجلي على من لم يكن مرتاضًا بالصناعة، متدربًا بالنقد "(٣).

ونلاحظ أن هذا اللون يتجه إلى النواحي النقدية التي تتبع الصحة في المعاني.

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٥٧.

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، المكتبة العصرية، صيدا، ص١٨٠.

يقول دكتور بدوي طبانة: " أساسه البحث العقلي، والدراسة المنطقية، فإنه مع هذه الحقيقة فصل يعد من صميم البحوث النقدية التي تبحث في خطأ المعاني وصوابها "(١).

ودرس قدامة بن جعفر هذا اللون دراسة دقيقة ومستفيضة، حيث إن ابن سنان تأسى بقدامة وأفاد من هذه الدراسة إفادة كبيرة "(٢).

وقد استحسن الخفاجي قول ابن عثمان الجاحظ " إن العرب تمدح الشئ وتذمه لكنهم لا يمدحون الشيء من الوجه الذي يذمونه به "(٣) ولذا نجده نَفَى التناقض في قول أبي تمام لما وصف يوم الفراق بالطول فقال:

يومَ الفراقِ لقد خُلقتَ طويلاَ — لم تُبقِ لي جَلَدًا ولا معقُولا(٤)

قالُوا الرحيلُ فما شككتُ بأنَهَا — نفسي من الدنيا تُريدُ رحِيلا

علل طوله بما لقي فيه من الوجد لرحيل أحبابه عنه "(٥).

وقول أبي عبادة(٦) لما وصفه بالقصر فقال:

ولقد تأملتُ الفراقَ فلم أجِدْ — يومَ الفراقِ على امرِئٍ بطويلِ(٧)

قَصُرَتْ مسافتُهُ على مُتزوِدٍ — منهُ لدهرِ صبابةٍ وغَليلِ

---

(١) قدامة بن جعفر والنقد الأدبي، دكتور بدوي طبانة. ص٥٦

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٣٧.

(٣) المذكور في كتاب سر الفصاحة ليس كما نص عليه الجاحظ في كتابه الحيوان، طبعة دار الجيل، لبنان–بيروت ١٧٤/٥، وقوله: " والعربي يعاف الشيء ويهجو غيره فإن ابتُلي بذلك فَخَر به ولكنه لا يفخرُ به لنفسه من جهةٍ ما هجا به صاحبه فافهم هذه فإن الناس يَغلطُونَ على العرب ويزعمون أنهم قد يمدحون الشيء قد يهجون به وهذا باطلٌ فإنه ليس شيءٌ إلا وله وجهان وطرفان وطريقان ".
انظر سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٨.

(٤) ديوان أبي تمام، تحقيق عبده عزّام، الطبعة الرابعة ٦٦/٣.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٨.

(٦) أبو عبادة البحتري سبقت ترجمته، ص ٥٢

(٧) ديوان البحتري، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٤٠٠هـ– ١٩٨٧م، ٢٣٨/٢.

علل قِصَرهُ بأنه اجتمع فيه بمن يُحبه للوداع وتزود منه لأيام البعد عنه، فَهُما وإن كان كل واحد منهما قد خالف صاحبه في مدح الفراق وذمِّه، فقد ذكر لِمَا ذهب إليه وجهاً يصح به.

وعلى هذا الطريق يحسن وقوع الخلاف في أغراض الشعراء لا أن يكون أحد القولين صحيحاً والآخر فاسداً "[١].

وأورد الخفاجي مثال المتناقض من قول عبدالرحمن ابن عبدالله[٢] القس:

أرَى هجرَهَـا والقتـلَ مثلـينِ فاقْصِـرُوا ... مَلاَمكُـمُ فالقتـلُ أعفـىَ وأيسَـرُ[٣]

فقال هذا الشاعر إن الهجرَ والقتل مثلان، ثم سلبهما ذلك فقال: إن القتل أعفى وأيسر، فكأنه قال: إن القتل مثلُ الهجر وليس هو مثله، وذلك متناقض، ولو كان استوى له أن يقول: بل القتل أعفى وأيسر لكان الشعر مستقيمًا، لأن لفظة " بل " تنفي الماضي، وتثبت المُستأنف [٤].

كقول زهير [٥]:

حَيِّ الديارَ التي لم يَعفُهَا القِدمُ ... بَلَـى وغيرَهَـا الأروَاحُ والـدِيَمُ[٦]

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٨.

(٢) عبدالرحمن بن عبدالله، هو عبدالرحمن بن أبي عمار من بني جشم بن معاوية، لُقب بالقس لعبادته، وكان منزله بمكة، وهو أحد قارئها، كان من أعبد أهل مكة، وكان يشبه بعطاء بن رباح، وشغف بسلامة وشهر فغلب عليها لقبه وكانت مغنية وتقول الشعر. الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٣٤٨/٨.

(٣) نسب البيت في نقد الشعر، قدامة بن جعفر ٢١٢، إعجاز القرآن، الباقلاني، ص١٠١ إلى عبدالرحمن بن عبدالله القس.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٩.

(٥) زهير بن أبي سلمى سبقت ترجمته. ص٤٠

(٦) ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر بيروت، ص٩٠.

قال الخفاجي: " قد عابوا هذا البيت على زهير لكنه بمجيء " بلى " فيه لم يكن عندي فاسدًا، وقد يمكن فيه من التأويل وجهٌ آخرُ وهو أن زهيرًا قال: لم يَعْفُها القِدَمُ وغيَّرتها الريحُ والأمطارُ، وليس ذلك بمُتناقض، لأن التغير دون أن تعفو، والقدم غير الريح والمطر، ومن قال: لم يقتل زيدٌ عمرًا بل ضربه بكرٌ، لم يكن متناقِضًا وإنما المناقضة أن يقول: لم يقتل زيدٌ عمرًا وَقتَلهُ زيدٌ، ويكون الأول هو الثاني وهذا واضحٌ "[١].

وقد خالف الخفاجي قدامةَ بن جعفر في بيت بن هرمة في صفة الكلب:

تَراهُ إذا ما أبصرَ الضيفَ مُقبلاً يُكلمُـهُ مـن حُبـهِ وهوَ أعجمُ[٢]

من المتناقض، لأنه أقنى الكلب الكلام في قوله " يكلمه " ثم أعدمه إياه عند قوله إنه " أعجمُ " وهذا غلطٌ من أبي الفرج طريفٌ، لأن الأعجم ليس هو الذي قد عدم الكلام جملةً كالأخرس، وإنما هو الذي يتكلم بعُجمة، ولا يُفصح، قال تعالى: ﴿ **لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** ﴾[٣] وإذا قيل: فلان يتكلم، وهو أعجم لم يكن ذلك متناقضًا"[٤].

وكذلك رد الخفاجي على أبي القاسم الآمدي عندما ذهب إلى تناقض بيت أبي تمام في صفة الفرس:

وَبِشَعلةٍ تبدُو كأنَّ فُلُولَهَا في صهوتَيهِ بُدُوُّ شَيبِ المَفرَقِ[٥]
مُسودُ شطرٍ مثلَ ما اسودَّ الدُجَى مُبيَضُ شطرٍ كابيِضَاضِ المُهرَقِ

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٩.
(٢) ديوان ابن هرمة، تحقيق: محمد جبار المعيبد، مطبعة الآداب، دار النجف ١٣٨٩هـ- ١٩٦٩م، ص٢٠٩.
(٣) سورة النحل، الآية(١٠٣).
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦١.
(٥) ديوان أبي تمام ٤١١/٢.

قال: لأنه ذكر في البيت الأول أنه أشعل، ثم قال في الثاني: إن نصفه أسودُ ونصفه أبيض، وذلك هو الأبلقُ فكيف يكون فرس واحدٌ أشعلَ أبلقَ، وهذا من أبي القاسم تحاملٌ على أبي تمام، لأنه يصف فرسًا أشعلَ ويريد بقوله: إنه مسودُ شطرٍ ومبيضُ شطرٍ أن سواده وبياضَهُ متكافئان، فلو جُمع السوادُ لكان نصفَه، وكذلك البياض، وهذا الوصف من تكافُؤِ السوادِ والبياض في الأشعل محمودٌ، حتى إن النخاسين يقولون: أشعل شعرةً وشعرةً، فعلى هذا لا يكون شعرُ أبي تمام من المُتناقض "[١].

وبذا ينتقد الخفاجي الآمدي ويفند رأيه ومذهبه، حيث برزت آراؤه النقدية التي تتسم بالدقة.

وأيضًا برزت صوره النقدية في هذا اللون في نقد قدامة بن جعفر الذي ذهب إلى تناقض قول أبي نواس[٢] في صفة الخمر:

كأنَّ بقايَا ما عَفَا عن حَبابِهَا   تفاريقُ شَيبٍ في سوادِ عِذَارِ[٣]

تَرَدتْ به ثُم انفرَى عن أديمِهَا   تَفري ليلٍ عن بياضِ نهارِ

وقال: إنه وصفَ في البيت الأول الحباب بالبياض، حين شبهه بالشيب ولن يشبه الشيب في شيء إلا في بياضه، ووصف الخمر بالسواد حين شبهها بسواد العذار، ثم وصف الحباب في البيت الثاني بالسواد، حين شبهه بتفري الليل، ووصف الخمر بالبياض حين قال: بياض نهار، وكون كل واحد من الحباب والخمر أسود وأبيض مستحيل "[٤].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦١.

(٢) أبو نواس سبقت ترجمته، ص ٩٨

(٣) ديوان أبي نواس، شرح الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م، ص٢٥٨.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦٢.

أشار الخفاجي إلى أن: من الصحة ألا يضع الجائزُ موضع الممتنع، فإنه يجوزُ أن يوضع الممتنع موضع الجائز، إذا كان في ذلك ضربٌ من الغلو والمبالغة، ولا يحسن أن يوضع الجائزُ موضع الممتنع، لأنه لا علة لجواز ذلك، وهو ضد ما يُحمد من الغلو والمبالغة في الشعر.

ومن أمثلة هذا قول الشاعر[١]:

فإنَّ صورةٌ راقتكَ فاخبُر فرُبما ... أَمَرَّ مذاقُ العُودِ والعُودُ أخضَرُ[٢]

فبنى الكلامَ على أن العود في الأكثر يكون حُلوًا بقوله " فرُبما " وليس الأمر كذلك، بل العود الأخضرُ في الأكثر مُرٌ، وكأن هذا الشاعر وضع الأكثر موضع الأقل وذلك غلط في المعنى"[٣].

وساق أيضًا ما أنكره أبو القاسم الآمدي على أبي تمام في قوله يمدح الواثق بالله[٤]:

جعلَ الخلافَةَ فيهِ ربٌّ قولُهُ ... سُبحانَهُ للشيءِ كُن فيكُونُ[٥]

---

(١) جاء البيت بنسبته إلى خالد بن صفوان في نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٢١٥، وجاء في أسرار البلاغة، الجرجاني دون نسبة، ص٩٩، ودلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني، ص٤٠١ دون نسبه " فإن صورة راقتك ".

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦٥.

(٣) المصدر نفسه، ٣٦٥.

(٤) الواثق بالله الخليفة هو أبو جعفر هارون ابن المعتصم أمير المؤمنين الواثق بالله ابن محمد المعتصم بالله ابن هارون الرشيد ابن محمد المهدي بن عبدالله المنصور بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب يكنى أبا جعفر، استخلف بعد أبيه المعتصم وكان يسكن سر من رأى. وكان أبيض يعلوه صفرة، حسن اللحية في عينيه نكت، مات بالقصر الهاروني في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين.

تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٢١/١٥/١٤، نزهة الألباب في الألقاب ابن حجر العسقلاني ٢٧٢/٢ تاريخ مدينة دمشق، الشافعي ١٢٠/٦ البدء والتاريخ، المقدسي ١٢٠/٦ الكامل في التاريخ، ابن عبدالكريم الشيباني ٧٢/٦.

(٥) ديوان أبي تمام ٣٢٦/٣.

قال: لأن مثل هذا إنما يقال في الأمر العَجب الذي لم يكن يُقدَّر ولا يُتوقع، ولا يُظنُ أن مثله يكون،فيقال إذا وقع ذلك: قُدرةُ قادر واحد وفعلُ من لا يُعجزه أمرٌ، ومن يقول للشيء: كن فيكون، فأما الأمور التي لا يُتعجبُ منها ولا تُستغربُ، والعادات جارية بها وبما يشبهها فلا يقال فيها مثل هذا، وإنما يُسبَّح الله تبارك وتعالى، وتذكر قدرتُه على تكوين الأشياء "[١].

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٦٦.

المبحث الأول

المحسنات المعنويَّة

المطلب الأول: الإيغال

عرض ابن سنان لهذا اللون البلاغي عندما تحدث عن الحشو فجاء حديثه عنه على غاية الإيجاز والاختصار فقال: " ورَوَى أبو الفرج قدامةُ بنُ جعفر عن محمد بن يزيد المبرد[١] عن التَّوَّزِيِّ[٢] قال: قلت للأصمعي[٣]: من أشعرُ الناس؟ فقال: ما يأتي إلى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه كبيرًا،أو الكبير فيجعله بلفظه خسيسًا، أو ينقضي كلامُه قبل القافية إذا احتياج إليها أفاد بها معنى، قال: نحو مَنْ ؟ قال نحو ذي الرُمة[٤] حيث يقول:

---

(١) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الشمالي، يكنى أبا العباس، ويعرف بالمبرد، كان حسن المحاضرة، مليح الأخبار، كثير النوادر، وكان شيخ علماء النحو في عصره بعد الجرمي والمازني ت(٢٨٥هـ). تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٣٨٠/٣، سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ٥٧٦/١٣ معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١١١/١٩ الفهرست، ابن النديم، ص٦٤.

(٢) هو عبدالله بن محمد بن هارون التوزي، يكنى أبا محمد، مولى قريش، كان من أكابر علماء اللغة، توفي سنة ٢٣٣هـ- وقيل ٢٣٨هـ. الفهرست، ابن النديم، ص٦٣، الوافي بالوفيات، ابن أيبك الصفدي ٢٨٢/١٧ معجم البلدان، ياقوت بن عبدالله الحموي، ٥٨/٢ تاريخ الإسلام، الإمام الذهبي ٢٤٤/١٦.

(٣) الأصمعي تقدمت ترجمته، ص ٥٦

(٤) ذي الرمة، الشاعر هو غيلان بن عقبة بن يعيش، يكنى أبا الحارث ولقب بذي الرمة ببيت شعر قاله، وقيل لقبته به محبوبته " ميه " وضعه ابن سلام في الطبقة الثانية من فحول الشعراء وله مدائح في الأمير بلال ابن أبي بردة، مات بأصبهان كهلاً سنة سبع عشرة ومئة. انظر سير أعلام النبلاء، الذهبي ٢٦٧/٥.
الأغاني – أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان ٥٧/٨.

قِفِ العِيسَ في أطلالِ ميَّةَ فاسألِ رُسُـومًا كـأخلاقِ الـرداءِ[١]

فتم كلامُه ثم قال: " المُسَلسَلِ" فزاد شيئًا ثم قال:

أَظُن الذي يُجدِي عليكَ سُؤالُهَا دُمُـوعًا كتبريـدِ الجُمـانِ

فتم كلامُه ثم قال " المُفصَّلِ " فزاد شيئًا قال: قلت: ونحو مَنْ قال: الأعشى[٢] حيث يقول:

كناطحٍ صخرةً يومًا ليَفلِقَهَا[٣] فلم يضِرْهَا وأَوهَى قَرنَهُ الوَعِلُ[٤]

فزاد معنى قال: قلت: وكيف صار الوعِلُ مفضلاً على كل ما ينطح قال: لأنه ينحطُ من أعلى الجبل على قرنيه فلا يضيره "[٥].

وذكر الخفاجي: " أن أصحاب صناعة الشعر قد سموا هذا المعنى " الإيغالَ " وأرادوا بذلك أن الشاعر يوغل بالقافية في الوصف إن كان واصفًا، وفي التشبيه إن كان مشبهًا"[٦].

وتحدث عنه ثعلب في معرض حديثه عن الأبيات الغُر قائلاً[٧]: " وهو ما نجم من صدر البيت بتمام معناه، دون عجزه، وكان لو طرح آخره لأغنى أوله بوضوح دلالته.

ومثل ذلك بقول الخنساء[١]:

---

(١) ديوان ذي الرمة، تحقيق: كارليد هنري هيتس مكارتني، عالم الكتب، ص٥٠١.

(٢) الأعشى تقدمت ترجمته، ص ٥٨

(٣) ليفلقها: ليكسرها.

(٤) الوعل: الإبل، أي إنك تكلف نفسك ما لا تصل إليه ويرجع ضرره عليك. انظر ديوان الأعشى، شرح دكتور يوسف شكري فرحان، دار الجيل، بيروت، الطبعة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م، ص٢٢٣.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٢٧.

(٦) المصدر نفسه، ص٢٢٧.

(٧) قواعد الشعر، أبو العباس أحمد بن يحيى بن ثعلب، تحقيق رمضان عبدالتواب، دار مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٩٩٥م، ص٧٢.

وإن صخرًا لتأتمُ الهداةُ به كأنه علمٌ في رأسهِ نارُ[٢]

وأوضح الخطيب القزويني: " أنه أُختلف في معنى الإيغال فقيل هو ختم البيت بما يفيد نكته يتم المعنى بدونها كزيادة المبالغة في قول الخنساء:

وإن صخرًا لتأتمُ الهداةُ به كأنه علمٌ في رأسهِ نارُ[٣]

لم ترض أن تشبهه بالعلم الذي هو الجبل المرتفع المعروف بالهداية حتى جعلت في رأسه نارًا "[٤].

ويرى ابن رشيق الإيغال ضرباً من المبالغة، ونجده مقصوراً على القوافي، يعني أن الشاعر إذا انتهى إلى آخر البيت استخرج قافية يريد بها معنىً زائداً.

المطلب الثاني: التسهيم

تحدث الخفاجي عن هذا اللون في إيجاز واختصار، وذلك لأنه تناوله في معرض حديثه عن المعاظلة عندما فرق بينها وبين هذا اللون، حيث قال:

" وقال أبو القاسم[٥]: فإن قال قائل إن هذا الذي أنكرتَهُ من تشبُث الكلام بعضه ببعض، وتعلُقِ كل لفظة بما يليها، وإدخال كلمة من أجل كلمة أخرى تشبهها وتجانسها، هو المحمود من الكلام، وليس من المعاظلة في شيء.

---

(١) الخنساء هي تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد بن رياح بن يقظة، ابن عصية بن خفاف بن امرئ االقيس بن بعثة، وهي شاعر، رثت أخويها، صخراً ومعاوية، والخنساء لقب غلب عليها. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٧/٥٤٤، مصدر سابق.

(٢) ديوان الخنساء، دار صادر بيروت، ص٤٩.

(٣) ديوان الخنساء، ص٤٩.

(٤) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص١٨٩.

(٥) أبو القاسم الآمدي صاحب كتاب الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أحد تصانيف الإمام النقادة أبي القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي، البصري المتوفى في عام ٣٧٠هـ.

ألا ترى أن البلغاءَ والفصحاءَ لما وصفوا ما يُستجاد ويُستحب من النثر والنظم قالوا: هذا كلام يدل بعضُه على بعض، ويأخذ برقاب بعض.

قيل: هذا صحيح من قولهم: ولم يريدوا به هذا الجنسَ من النظم والنثر، ولا قصدوا هذا النوعَ من التأليف، وإنما أرادوا المعاني إذا وقعت ألفاظُها في موقعها وجاءت الكلمة مع أختها المشاكلة التي تقتضي أن تجاورها بمعناها: إما على الاتفاق أو التضاد، حسبما تُوجِبُهُ قسمةُ الكلام "(١).

ويقول: " أما الذي قاله من دلالة بعض الكلام على بعض حتى يُمكن استخراجُ قوافيه إن كان شعرًا، ويكون بعضُ البيت شاهدًا لبعض فهو من النعوت المحمودة... وبعضُ الناس يُسمي هذا الفنَّ من الشعر التوشيح، وبعضهم يسميه التسهيم "(٢).

ونجد من أوائل الذين عرضوا لفن " التسهيم " ثعلب فذكره في معرض حديثه عن الأبيات المحجلة حيث قال: " ما نُتج قافية البيت عن عروضه، وأبان بغية قائله، وكان كتحجيل الخيل، والنور يعقب الليل "(٣).

أما قدامة ابن جعفر فقد سماه "التوشيح" وعرّفه بقوله: " وهو أن يكون أول البيت شاهدًا بقافيته، ومعناها متعلقًا به، حتى إن الذي يعرف قافية القصيدة التي البيت منها، إذا سمع أول البيت عرف آخره وبانت له قافيته مثال ذلك قول عبّاس بن مرداس(٤):

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٣٤.

(٣) قواعد الشعر، أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، تحقيق، رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي–القاهرة–١٩٩٥م، ص٧٦.

(٤) عباس بن مرداس سبقت ترجمته، ص ٥٧

هُـمُ سـودُوا هجنًـا وكـلُ قبيلـةٍ　　　يُبـينُ مـن احسَابِهَا مَنْ يسُـودُهَا[١]

فمن تأمل البيت، وجد أوله يشهد بقافيته "[٢].

ومن ذلك نرى أن "التسهيم" و"التوشيح" مترادفان عند علماء البلاغة ونوه الخفاجي بذلك عندما قال: " وبعضُ الناسِ يُسمي هذا الفن من الشعر "التوشيح" وبعضهم يسميه "التسهيم "[٣].

ويقول ابن رشيق معللاً التسميتين لهذا الفن: " وما أظن هذه التسمية إلا من تسهيم البرود، وهو أن ترى ترتيب الألوان فتعلم إذا أتى أحدها ما يكون بعده. وأما تسميته توشيحًا فمن تعطُف أثناء الوشاح بعضها على بعض، وجمع طرفيه، ويمكن أن يكون من وشاح اللؤلؤ والخرز، وله فواصل معروفة الأماكن، فلعلهم شبهوا هذا به "[٤].

وأورد الخفاجي من شواهد التسهيم قول الشاعر[٥]:

عَجِبتُ لِسعي الدهرِ بيني وبينَهَا　　　فلمَّا انقضَى ما بينَنَا سَكَنَ الدهرُ[٦]

---

(١) ديوان العباس بن مرداس، تحقيق الدكتور يحيى الجبوري، مؤسسة الرسالة، ١٤١٢هـ-١٩٩١م، الطبعة الأولى، ص٩٧، هجنًا جمع هجين والهجنة إنما تكون من قبل الأم فإذا كان الأب عتيقًا، والأم ليست كذلك كان الولد هجينًا. انظر الديوان، ص٩٧.

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، دار مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ص١٦٨.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣٤.

(٤) العمدة، ابن رشيق القيرواني، ص٣٢٣.

(٥) الشاعر أبو صخر الهذلي سبقت ترجمته ص ٥٠

(٦) ديوان صخر الهذلي، تأليف الدكتور عبدالجواد الطيب، منشورات جامعة الفاتح، ١٩٨١م، ص٩٤.

وقول عمرو[١]:

وكنتُ سَنَامًا في فَزَارةَ تامِكًا ... وفي كُلِ حي ذِروَةٌ وَسَنَامُ[٢]

وقوله أيضًا:

إذا لَم تَستطِع شيئًا فَدَعهُ ... وَجَاوِزهُ إلى ما تَستَطِيعُ[٣]

وقول أبي عبادة[٤]:

مَشيبٌ كبثِّ السرِ عَيَّ بِحَملِهِ ... مُحَدثُهُ أو ضَاقَ صدرُ مُذِيعِهِ[٥]

تلاحَقَ حتى كادَ يأتي بطِيئُهُ ... بحثِّ الليالِي قبلَ أَتِي سَرِيعِهِ

وقوله[٦]:

أبكيكُما دمعًا ولو أَنِي علَى ... قَدرِ الجَوَى أَبكِي بكَيتُكُمَا دَمَا[٧]

وقال الخفاجي: " لأن هذه الأبيات كلها إذا سمع الإنسانُ صدورَها وكان قد عرف الرويَّ المقصود فيها عرف الكلمةَ التي تكون قافية قبل الوصول إليها "[٨].

تناول ابن سنان هذا المبحث بإيجاز بالرغم من احتفائه به واكتفى بضرب الأمثلة والشواهد،بينما نرى علماء البلاغة قد أسهبوا في تناوله وتقسيمه وتعريفه.

---

(١) عمرو بن معد يكرب بن ربيعة بن عبدالله الزبيدي فارس اليمن وفد على المدينة سنة ٩هـ في عشرة من بني زبيد فأسلموا، ولما توفي النبي صلى الله عليه وسلم ارتد عمرو في اليمن ثم رجع إلى الإسلام فبعثه أبو بكر إلى الشام فشهد اليرموك وذهبت فيها إحدى عينيه فبعثه عمر إلى العراق فشهد القادسية، انظر خزانة الأدب، البغدادي ٤٢٥/١.

(٢) ديوان عمرو بن معد يكرب، دار صادر بيروت–لبنان، ص١٩٨.

(٣) ديوانه، ص٢٩.

(٤) البحتري سبقت ترجمته، ص ٥٢

(٥) ديوان البحتري، دار صادر بيروت ٤٢١/١.

(٦) البحتري سبقت ترجمته، ص ٥٢

(٧) ديوان البحتري، دار صادر بيروت ٢٦٠/١.

(٨) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣٥.

المطلب الثالث: الترصيع

تناول ابن سنان الترصيع في كلامه عن التناسب بين الألفاظ في الصيغ فقال: " ومن التناسب أيضًا الترصيع: وهو أن يعتمد تصيير مقاطع الأجزاء في البيت المنظوم، أو الفصل من الكلام المنثور مسجوعة، وكأن ذلك شُبه بترصيع الجوهر في الحلى "(١).

بينما تناول ثعلب هذا اللون تحت الأبيات الموضحة حيث قال: " وهي ما استقلت أجزاؤها، وتعاضدت وصولها، وكثرت فقرُها، واعتدلت فصولها، فهي كالخيل الموضحة والفصوص المجزعة، والبُرود المحبرة "(٢).

أما قدامة بن جعفر فأورده عند حديثه عن نعوت الوزن فقال: " ومن نعوت الوزن الترصيع، وهو أن يتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف "(٣).

وقد نبّه الخفاجي إلى أنه " لا يحسن إذا تكرر وتوالى، لأنه يدل على التكلف وشدة التصنع، وإنما يحسن إذا وقع قليلاً غير نافر "(٤).

وقد سبقه قدامة بن جعفر إلى هذا المذهب قائلاً: " إنما يحسن إذا اتفق له في البيت موضع يليق به، فإنه ليس في كل موضع يحسن، ولا على كل حال يصلح، ولا هو أيضًا إذا تواتر واتصل في الأبيات كلها بمحمود، فإن ذلك إذا كان، دل على تعمل وأبان عن تكلف "(٥).

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٧٩.

(٢) قواعد النشر، أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب، ص٨١.

(٣) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٤٠.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٧٩.

(٥) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٦.

وأورد ابن سنان لهذا اللون من النثر قول أبي علي البصير [١] في بعض كلامه: حتى عاد تعريضُك تصريحًا، وتمريضُك تصحيحًا "[٢] ومن النظم قول الخنساء:

حامي الحقيقةِ محمودُ الخليقةِ مهديُ الطريقةِ نفاعٌ وضَرَارُ [٣]

جوابُ قاصيةٍ جزارُ ناصيةٍ عقادُ ألويةٍ للخيلِ جرَارُ

وقول امرئ القيس[٤]:

فَتُورُ القيامِ[٥] قطيعُ الكلامِ[٦] تَفْتَرُّ[٧] عن ذِي غُرُوبٍ[٨] خَصِرْ[٩]

وقال أبو العلاء أحمد ابن عبدالله[١٠]:

أَلِفتِ المَلاَ حتى تَعَلِّمتِ بالفَلاَ رُنُوَّ الطلاَ أو صنعةَ الآلِ في الخَدْعِ[١١]

قال الخفاجي: " فهذا وأمثاله إذا كان قدرًا يسيرًا حسن على ما ذكرناه "[١٢].

---

(١) أبي علي البصير، هو الفضل بن جعفر بن الفضل بن يونس، ويكنى أبا علي، كان أعمى، ولُقب بالبصير على عاداتهم في التفاؤل، وكان يتشيع تشيعًا فيه غُلُو، كان أديبًا بليغًا، وله من سائر العلوم حظوظ وافرة وحقوق ظهرة في علم النحو والقراءات توفى سنة ٢٥١. الفهرست، ابن النديم، ص١٧٨، الوافي بالوفيات، ابن أيبك الصفدي ٢٤/٢٤، لسان الميزان، ابن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ٤/٤٣٨.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٧٩ انظر القول منسوبًا لأبي علي البصير في كتاب مفاتيح العلوم، أبو عبدالله محمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي، دارالكتب العلمية–بيروت– لبنان ١/٤٧.

(٣) ديوان الخنساء، دار صادر بيروت–لبنان، ص٤٩.

(٤) سبقت ترجمته، ص ٢١ انظر ديوانه دار الجيل، بيروت، ص٢٣٣.

(٥) فتور القيام: ليست بوثابه في قيامها.

(٦) قطيع الكلام: أي نذرة الكلام، أي قليلته.

(٧) تفتر: تبسم.

(٨) عن ذي غروب: أكي عن ثغر ذي غروب، والغروب: حدة الأسنان وماؤها.

(٩) الخصِر: البارد.

انظر: ديوان امرئ القيس، تحقيق: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ص٢٣٣.

(١٠) أبو العلاء المعري، سبقت ترجمته، ص ٤

(١١) سقط الزند، أبي العلاء المعري، ص٣٣٦.

(١٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٨١.

ويرى أنه إذا توالى وكثر فإنه يقبح، لدلالته على التكلف، وإن كان كل منه بإنفراده جيدًا، وذلك مثل قول أبي صخر الهذلي[(١)]:

عَـذْبٌ مُقبلُهَـا خَـدلٌ مُخَلخَلُهَـا كالـدعصِ أسـفَلُهَا مَخصُـورَهُ القَـدمِ[(٢)]

سـودٌ ذوائِبُهـا بِـيضٌ ترائِبُهـا مَحضٌ ضَرائِبُها صِيغَتْ على الكرَمِ

فهذا لما توالى لم يحسن "[(٣)].

أشار ابن سنان إلى التناسب بين الألفاظ في الصيغ ومن خلاله يتناول " الترصيع" ويحتفي به ومع ذلك ينبه إلى عدم تكراره وتواليه لأن ذلك يدل على التكلف والصنعة ونراه ينادي بترك التكلف والاسترسال مع الطبع .

المطلب الرابع: التصريـع

قال ابن سنان معرفًا التصريع: " التصريع يجري مجرى القافية، وليس الفرق بينهما إلا أنه في آخر النصف الأول من البيت، والقافية في آخر النصف الثاني منه، وإنما شُبِّهَ مع القافية بمصراعي الباب "[(٤)].

قال: " وقد استعمله المتقدمون والمحدثون في أول القصيدة، وربما استعملوه في اثنائها، وممن كان يلهج من المتقدمين امرؤ القيس، فإنه صدع في أول قصيدته:

قِفَا نَبكِ من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ[(٥)]

---

(١) أبو صخر الهذلي، سبقت ترجمته، ص ٥٠

(٢) ديوان أبي صخر الهذلي، عبدالجواد الطيب، جامعة الفاتح ١٩٨١م، ص١٢١.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٨١.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٧٦.

(٥) ديوان امرئ القيس، دار الجيل، بيروت، ص٢٦.

ثم قال من بعد:

ألا أيهَا الليلُ الطويلُ ألا أنجلِي[(١)] بصُبحٍ وما إلا صباحُ فيكَ بأمثَلِ[(٢)]

وقال فيها:

أفاطم مهلاً لبعض هذا التذلل وإن كنت قد أزعمت هجري فأجملي

ويرى الخفاجي: " أن التصريعَ يحسن في أول القصيدة، ليميز بين الإبتداء وغيره، ويفهم قبل كمال البيت رَوِيُّ القصيدة وقافيتها، ولذلك قال أبو تمام[(٣)]:

... وإنمـــــــــــا يَروقُكَ بيتُ الشعرِ حِينَ يُصَرَعُ[(٤)]

وينبّه الخفاجي إلى أن إذا تكرر التصريعُ في القصيدة فلن يكون مختارًا ويقول: "وهو عندي يجري مجرى تكرُرِ الترصيع والتجنيس والطباق وغير ذلك، وإن هذه الأشياء إنما يحسن منها ما قل، وجرى منها مجرى اللُمعة واللمحة، فأما إذا تواتر وتكرر فليس عندي ذلك مرضيًا "[(٥)].

ويتساءل الخفاجي قائلاً: " فإن قال قائل: كيف يكون التصريعُ وغيره من الأصناف التي أشرتم إليها حسنًا إذا قل، وإن كَثُر لم يكن حسنًا ؟

قيل له: هذا غير مستتكر، ولا مستطرف وله أشباه كثيرة، فإن الخال يحسن في بعض الوجوه.

---

(١) الإنجلاء: الانكشاف، يُقال: جلوتَهُ فانجلى أي كشفتُه فانكشف.

(٢) الأمثل: الأفضل- يقول: قلت له ألا أيها الليل الطويل انكشِف وتنح بصبح، أي ليزل ظلامك بضياء من الصبح، ثم قال: وليس الصبح بأفضل منك عندي لأني أقاسي الهموم نهارًا كما أعانيها ليلاً. انظر هامش الديوان، ص٤٣.

(٣) أبو تمام تقدمت ترجمته، ص ١٧

(٤) ديوان أبي تمام ٣٢٢/٢ وتكملة الشطر الأول: " وتقفو إلى الجدوى بجدوى وإنما ".

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٧٨.

ولو كان في ذلك الوجه عدة خيلان لكان قبيحًا، ويكون في بعض النقوش يسيرٌ من سواد أو حمرة أو غيرهما من الألوان، فيحسن ذلك المزاج والنقش بذلك القدر من اللون. فإن زاد لم يكن حسنًا. وتُستحسن غرةُ الفرس، وهي قدرٌ مخصوص، فإن كان وجهه كله أبيض أو زاد ذلك القدر من البياض لم يحسن "(١).

وقد أفاد ابن الأثير ممّا ذهب إليه الخفاجي، وتأثر بفكرته حيث قال: " فأما إذا كَثُر التصريع في القصيدة فلست أراه مختارًا، إلا أن هذه الأصناف من التصريع، والترصيع، والتجنيس، وغيرها إنما يحسن منها الكلام ما قل وجرى مجرى الغرة من الوجه، أو كان كالطراز من الثوب، فأما إذا تواترت وكثرت فإنها لا تكون مرضية، لما فيها من أمارات الكلفة "(٢).

ويرى قدامة بن جعفر " أن تكون عذبة الحرف سلسة المخرج، وأن يقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها، فإن الفحول المجيدين من الشعراء القدماء والمحدثين يتوخون ذلك، ولا يكادون يعدلون عنه، وربما صرعوا أبياتًا أخر من القصيدة بعد البيت الأول، وذلك يكون من اقتدار الشاعر وسعة بحره، وأكثر ما كان يستعمل ذلك امرؤ القيس لمحله من الشعر "(٣).

المطلب الخامس: صحة التقسيم

بدأ ابن سنان كلامه في المعاني المفردة بصحة التقسيم قائلاً:

" أما الصحة في التقسيم فأن تكون الأقسامُ المذكورة لم يُخَل بشيء منها، ولا تكررت، ولا دخل بعضُها تحت بعض "(٤).

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٧٨.

(٢) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير ٢٣٧/١.

(٣) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، مكتبة الخانجي، ص٥١.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٠.

ومثال هذا في النظم قول نصيب[١].

فقالَ فريقُ القومِ لا، وفَريقُهُم   نَعم وفريقٌ قال: ويحَكَ ما ندرِي[٢]

فليس في أقسام الإجابة عن مطلوبٍ إذا سئل عنه غير هذه الأقسام "[٣] ومنه قول الشماخ يصف صلابةَ سنابك الحمار وشدة وطئه الأرض:

متىَ ما تقعْ أَرساغُهُ مُطمئنَّةَ   علـى حَجـرٍ، يـرفضُ أو

فليس في أمر الوطء الشديد إلا أن يكون الذي يوطأ رخوًا فيرفضُّ، أو صُلبًا فيُدفع "[٥] .

ونرى الخفاجي يحذو حذو قدامة بن جعفر وينقل عنه ما جاء به من الأمثلة والتعليق عليها، كما أن تعريفه لصحة التقسيم لا يبعد عن تعريف قدامة.

أما صحة التقسيم عند ابن الأثير فلا يريد بها ما تقتضيه القسمة العقلية،حيث يقول:

" كما يذهب إليه المتكلمون، فإن ذلك يقتضي أشياء مستحيلة كقولهم: الجواهر لا تخلو: إما أن تكون مجتمعة أو مفترقة، أو لا مجتمعة ولا مفترقة معًا، أو بعضها مجتمعة وبعضها مفترقة، ألا ترى أن هذه القسمة صحيحة من حيث العقل، لاستيفاء الأقسام جميعها وإن كان من جملتها ما يستحيل وجوده "[٦].

---

(١) نُصيب بن رباح، مولى عبدالعزيز بن مروان، وقيل هو من أهل وَدان، وكان عبدًا لرجل من بني كنانة هو وأهل بيته، يكنى أبا محجن، كان فصيحًا، مقدمًا في النسيب والمديح، مترفعًا عن الهجاء، كبير النفس عفيفًا، ت١٠٨هـ. الطبقات، ابن سلام الجمحي ٦٧٥/٢، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٣٢٤/١، معجم الأدباء، ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي ٥٥٦/٥، فوات الوفيات، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي ٥٥٢/٢، سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ٢٦٦/٥.

(٢) انظر الأمالي في لغة العرب للقالي ٢١٠/٢

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٠. انظر نقد الشعر قدامة بن جعفر، ص١٣١.

(٤) ديوان الشماخ، ص٩٢.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥١. انظر نقد الشعر قدامة بن جعفر، ص١٣١.

(٦) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير ٢٨٧/٢.

ويقول: " وإنما نريد بالتقسيم هاهنا ما يقتضيه المعنى مما يمكن وجوده من غير أن يترك منها قسم واحد، وإذا ذكرت قام كل منها بنفسه، ولم يشارك غيره، فتارة يكون التقسيم بلفظة " إما " وتارة بلفظة " بين " كقولنا: بين كذا وكذا، وتارة " منهم "، كقولنا: منهم كذا ومنهم كذا، وتارة بأن العدد المراد أولاً بالذكر، ثم يقسم، كقولنا: فانشعب القوم شعبًا أربعة، فشعبة ذهبت يمينًا وشعبة ذهبت شمالاً، وشعبة وقفت بمكانها، وشعبة رجعت إلى ورائها "(١).

ومثل ابن الأثير لهذا الفن من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ** ﴾(٢) وقال: " وهذه القسمة صحيحة، فإنه لا يخلو أقسام العباد من هذه الثلاثة فإما عاصٍ ظالم لنفسه، وإما مطيع مبادر إلى الخيرات وإما مقتصد بينهما "(٣).

ومن التقسيم الصحيح عند الخفاجي قول زهير بن أبي سلمى(٤):

يَطعنُهُمْ ما ارتَمَوا حتى إذا اَطعَنُوا ... ضَارَبَ حتىَ إذا ما ضارَبُوا اعْتَنَقَا(٥)

قال الخفاجي: " وهذا تقسيم صحيح "(٦).

وقال " ومن أمثلة ذلك في النثر قولُ بعضهم في كتاب له: فإنك لم تخلُ فيما بدأتني به من مجدٍ أثّلته، أو شُكر تعجّلته، أو أجر ادّخرته، أو متجَر أتّجرته، أو مِن أن تكونَ جمعتَ ذلك كُلهُ "(٧).

(١) المصدر نفسه ٢٨٧/٢.
(٢) سورة فاطر، الآية(٣٢).
(٣) المصدر نفسه ٢٨٧/١.
(٤) سبقت ترجمته. ص٤٠
(٥) ديوان زهير بن أبي سلمى دار صادر، ص٤٣.
(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥١.
(٧) المصدر نفسه، ص٣٥٢.

فلم يبق في هذا المعنى قسم لم يأت به ولا من الأقسام شيء تكرر "[١] أما الأقسام الفاسدة عنده كقول جرير [٢]:

صـارَتْ حنيفَـةٌ أثلاثًـا فَثُلـثُهُمْ   مـن العبيـدِ وثلـثٌ مـن مَواليهَـا[٣]

فهذه قسمةٌ فاسدةٌ من طريق الإخلال، لأنهُ قد أخلَ بقسم من الثلاثة، وقيل: إن بعض بني حنيفة سُئل من أي الأثلاث هو من بيت جرير ؟ فقال: من الثلث الملغى "[٤].

وقد أظهر الخفاجي فساد التقسيم من طريق التكرير وذلك بقول أبي تمام:

قسَمَ الزمـانُ ربُوعَهَـا بـينَ الصبـَا   وقبُولِهَـا ودَبُورِهَـا أثلاثَـا[٥]

فقال: " فهذا فاسدٌ من طريق التكرير، لأن القبولَ هي الصبا على ما ذكره جماعة[٦] من أهل اللغة "[٧].

ومن ذلك أيضًا قول هُذيل الأشجعي[٨]:

فمَـا بَرِحَـتْ تُـومِي إليـهِ بطَرفِهَـا   وَتُـومِضُ أَحيَانًـا إذا خَصْمُهَا غَفَلْ[٩]

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٥٢.

(٢) جرير سبقت ترجمته، ص ٤٣

(٣) ديوان جرير، الأستاذ مجيد طراد، دار الفكر العربي، بيروت–لبنان، ص٤١٢.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٢.

(٥) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، دار المعارف، مصر ٣١٢/١.

(٦) في شرح الديوان: القبول: الصبا ٣١٢/١.

(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٣.

(٨) هذيل بن عبدالله بن سالم، وقيل: سليم بن هلال بن الحراق...، أحد شعراء الكوفة ومُجانها، هجاء قضاة الكوفة، عبد الملك بن عمير، والشعبي، وابن أبي ليلى، البيان والتبيين، أبو عمرو الجاحظ ٥٩٧/١، معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق: دكتور إحسان عبّاس ١٤٧٦/٤.

(٩) نسب البيت إلى هذيل في نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص١٩٩.

لأن تومي بطرفها وتومضُ في معنىً واحد "(١).

أما ما رآه الخفاجي أنه يفسد المعنى لدخول أحد القسمين في الآخر فكقول الآخر(٢):

أُبَـــادِرُ إهـــلاكَ مُســـتَهلِكٍ   لمَـــاليَ أو عَبَـــثَ العَابِـــثِ

فقال: " فهذا فاسدٌ لِدُخول أحد القسمين في الآخر، لأن عَبثَ العابِثِ داخلٌ في إهلاك المُستهلِك "(٣).

قال الخفاجي مبينًا ما ذهب إليه أبو القاسم الآمدي إلى فساد القسمة من قول أبي عبادة البحتري(٤):

ولا بُـــدَّ تَـــرك إحـــدَى اثنتـــينِ   إمـــا الشـــبابِ وإمـــا العُمـــرُ(٥)

قال: لأن هاهنا قسمًا آخر، وهو أن يُتركا معًا فيموت الإنسانُ شابًا، وأجاب الشريف المرتضى(٦) رضي الله عنه عن ذلك بأن المراد بتركِ الشباب تركهُ بالشيبِ وبترك العمر تركه بالموت، وهذا هو المستعملُ المألوفُ في هذه الألفاظ، فمن مات شابًا فلا يقال عنه إنه ترك الشباب، لأنهُ لم يَشِب، وإنما يقال عنه إنه ترك العمر فدخل في أحد القسمين، ولي في هذا الموضع نظر وتأملٌ "(٧).

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٣.

(٢) جاء البيت في الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٤٧/٩ منسوبًا إلى عبيد الله بن عبدالله بن عُتبة بن مسعود.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٤.

(٤) سبقت ترجمته، ص ٥٢

(٥) ديوان البحتري، دار بيروت للطباعة والنشر ١١٥/١.

(٦) أبو القاسم علي بن الحسين المعروف بالشريف المرتضى الموسوي الشيعي البغدادي المتوفي سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وهو صاحب كتاب الأمالي.

(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٥٦.

ومن هذا الجنس في النثر ذكر الخفاجي: " أن بعضَ المتخلفين سأل مرةً، فقال: علقمةُ بن عبدة جاهليٌّ، أو من بني تميم ؟ فضحك منه، لأن الجاهلي قد يكون من بني تميم ومن بني عامر، والتميمي قد يكونُ جاهليًا وإسلاميًا "[١].

وكتب بعضُهم إلى عامل من قِبَلِهِ: ففكرتُ مرة في عذلك، وأخرى في صَرفك وتقليد غيرك "[٢].

وكتب آخر في فتحٍ، فقال: فمن بين جريح مُضرج بدمائه، وهاربٍ ما يلتفت إلى ورائه.

وهذان القسمان يدخل كل منهما في الآخر، لأن الجريح قد يكون هاربًا، والهاربُ قد يكونُ جريحًا "[٣].

المطلب السادس: صحـــة المقابلـــة

اهتم علماء البلاغة بهذا الجانب اهتمامًا كبيرًا وقد عرَّفها قدامة ابن جعفر فذكرها في معرض الحديث عن بعض الخصائص الأسلوبية التي تعلي من قيمة الشعر، ويعتبر قدامة من أوائل مَنْ تكلموا عن المقابلة فيقول: " وصحة المقابلة وهي أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض، أو المخالفة فيأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة "[٤].

ويرى دكتور شوقي ضيف " أن مما لا شك فيه أن قدامة استمد هذا المصطلح كما استمد غيره من أرسطو في الخطابة "[٥].

---

(١) المصدر نفسه، ٣٥٤.
(٢) المصدر نفسه، ٣٥٤.
(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ٣٥٤.
(٤) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ص١٣٣.
(٥) البلاغة تطور وتاريخ، ضيف، دار المعارف، مصر الطبعة الحادية عشرة، ص٨٧.

كما عرَّف العلماء هذا اللون بتعاريف مختلفة منهم أبو هلال العسكري[١] وابن رشيق القيرواني[٢]، والخطيب القزويني[٣]، ومن هذه التعاريف يمكن القول بأن المقابلة هي: " أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة، ثم بما يقابلها على الترتيب[٤].

أما الخفاجي فقد أفاد من قدامة بن جعفر وأورد تعريفه لهذا اللون عند حديثه عن صحة المقابلة في المعاني قائلاً: " ومن الصِحة صحةُ المقابلة في المعاني، وهو أن يضع مؤلف الكلام معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض، والمخالفة، فيأتي في الموافق بما يوافق، وفي المخالف بما يخالف على الصِحة، والأصل في هذه المناسبة، فإن لها تأثيرًا قويًا في الحسن "[٥].

وأورد الخفاجي أمثلة للمقابلة منها قول الطرماح[٦]:

أَسَــــرَناهُم وأَنعَمنَـــــا علَــــيهِمْ وأســــقَينَا دمــــاءَهُمُ التُرابَــــا [٧]

فمــا صَــبرُوا لبــأسٍ عنــدَ حــربٍ ولا أدوْا لِحُســـنِ يـــدٍ ثَوابَـــا

---

(١) إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة، الصناعتين أبو هلال العسكري، ص٣٣٧.

(٢) قال ابن رشيق: وهي أن يأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه، العمدة، ابن رشيق القيرواني، دار صادر بيروت، ص٣٠٤.

(٣) قال الخطيب: وهو أن يؤتي بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ثم بما يقابلها على الترتيب. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص٣٢٢.

(٤) علم البديع، عبدالعزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت–لبنان، ص٨٦.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٩٨.

(٦) الطرماح سبقت ترجمته، ص ٥٦

(٧) ديوان الطرماح، تحقيق: الدكتور عزة حسن، إيحاء التراث القديم، دمشق ١٣٨٨هـ– ١٩٨٦م، ص٥٦٤.

وقال وهذه مقابلة صحيحة "[١].

وقال قدامة بن جعفر: " فجعل بإزاء أن أسقوا دماءهم التراب وقاتلوهم: أن يصبروا، وبإزاء أن أنعموا عليهم: أن يُثِيبوا "[٢].

وقال الخفاجي: ومن أمثلة ذلك في النثر قول أبي إسحاق الصابي: " وأن يخلَّد في بطون الصحف غلطُنا وغلطُك، في إحسانَنا وإساءتك، وحِفظِنا وإضاعتك "، وكتب بعضُهم في كتاب له: ولو أن الأقدار إذ رَمَتْ بِك من المراتب إلى أعلاها، بلغَتْ من أفعال السؤدد إلى ما وازاها، فوازنْتَ بمساعيكَ مراقيكَ، وعادلت النعمة عليك بالنعمة فيك، ولكنكَ قابلتَ سموَّ الدرجة بدُنوِّ الهِمة، ورفيع الرتبة بوضيع الشيمة، فعاد علوُّك بالاتفاق إلى حال دُنُوِك بالاستحقاق، وصار جناحُك في الانتهاض إلى مثل ما عليه قدرُك في الانخفاض، فلا لومَ على القَدرِ إذ أذنب فيك فأناب، وغَلِطَ بك فعاد إلى الصواب "[٣].

وهذا كلام معانيه متقابلة على الصحة "[٤].

ومثّل الخفاجي لفساد المقابلة بقول أبي عدي القرشي[٥]:

يابنَ خَيرِ الأخيارِ من عبدِ شمسٍ … أنتَ زَينُ الدُّنَا وَغَيْثُ الجُنُودِ[٦]

وقال: " فليس غيث الجنود مقابلاً لزين الدنيا ولا موافقًا "[٧].

ونجد من العلماء مَنْ أدمج المقابلة في المطابقة فقال في معرض حديثه عن الطباق:

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٩٨.

(٢) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق: كمال مصطفى، ص١٣٤.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٩٩.

(٤) المصدر نفسه، ص٣٩٩.

(٥) أبو عدي القرشي سبقت ترجمته، ص ١٣٣

(٦) ورد البيت في نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٣٧، الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، ٣٤٠.

(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٠.

" الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع المقابلة لأنه لا يخلو الحال فيه من وجهين: إما أن يقابل الشيء بضده، أو يقابل بما ليس ضده وليس لنا وجه ثالث "(١).

وسار القزويني على هذا المذهب فقال: " ودخل في المطابقة ما يخص باسم المقابلة وهو أن يؤتي بمعنيين متوافقين أو معانٍ متوافقة ثم بما يقابلها أو يقابلها على الترتيب، والمراد بالتوافق خلاف التقابل "(٢).

وقد عالج الخفاجي المقابلة في باب مستقل عن الطباق(٣).

ونجد ابن أبي الإصبع المصري قد فرق بينهما قائلاً: " والفرق بين المقابلة والمطابقة من وجهين: أحدهما أن المقابلة لا تكون إلا بالجمع بين ضدين فذين، والمقابلة تكون غالبًا بالجمع بين أربعة أضداد: ضدان في صدر الكلام، وضدان في عجزه، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد: خمسة في الصدر، وخمسة في العجز.

والثاني: أن المطابقة لا تكون إلا بالأضداد، والمقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد"(٤).

ونجد الخفاجي يتجه دائمًا في معالجته لتلك الفنون، إلى النواحي الأدبية بعيدًا عن التقسيمات وتعدد الأنواع، بل يسوغ الأمثلة ويضفي عليها من القول رونقًا وبهجة، ويجلو الأفكار ويوضحها حتى يُقَوي الصلة بين المتذوق والشاهد.

---

(١) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير ٢/٢٦٥.
(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص٣٢١.
(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٩٨.
(٤) تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري، حفني محمد شرف ٢/١٧٩.

المطلب السابع: حســن التخلــص

قال الخفاجي: " ومن الصحة صحةُ النسق والنظم، وهو أن يستمَّر في المعنى الواحد فاذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلصَ إليه حتى يكون متعلقًا بالأول وغير منقطع عنه "[١].

وقد نبّه الخفاجي إلى أن هذا الأسلوب البلاغي هو عند المحدثين من الشعراء أكثر وأجود منه عند المتقدمين يقول:

" فإن المحدثين أجادوا التخلصَ حتى صار كلامُهم في النسيب متعلقًا بكلامهم في المدح لا ينقطع، فأما العرب المتقدمون فلم يكونوا يسلكون هذه الطريقة، وإنما كان أكثر خروجهم من النسيب إما منقطعًا وإما مبنيًا على وصف الإبل التي ساروا إلى الممدوح عليها، ومما يُستحسن من خروج المحدَثين قولُ أبي عبادة البحتري [٢] يصف الروضَ:

شــقَائِقُ يحملِــنَ النــدى فكأنـــهُ ... دُموعُ التصابي فـي خُدُودِ الخَرائـدِ[٣]
كـأن يـدَ الفـتحِ بـنِ خاقـانَ أقبلـتْ ... تَليِهـا بتلـكَ البارِقـاتِ الرَّواعِـدِ[٤]

وهذه النواحي الفنية التي يجب أن تكون في أبيات الشعر فقد تحدث عنها ابن طباطبا حيث يقول:

" وأحسنُ الشعر ما ينتظمُ فيه القول انتظامًا يتسق به أولُهُ مع آخره على ما يُنسقُهُ قائله، فإن قدَّم بيتُ على بيت دخله الخللُ كما يدخل الرسائل والخطب إذا نُقِضَ تأليفُها.

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٠.
(٢) البحتري تقدمت ترجمته، ص ٥٢
(٣) ديوان البحتري، دار بيروت للطباعة والنشر ٦٤/١.
(٤) ديوانه ٦٥/١.

فإن الشعر إذا أُسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفُسها وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها، والأمثالِ السائدةِ الموسومة باختصارها لم يحسن نظمُهُ، بل يجب أن تكون القصيدةُ كلها كلمةً واحدة في اشتباه أولِها بآخِرها، نسجًا وحسنًا وفصاحة، وجزالة ألفاظ ودقة معان وصوابَ تأليفٍ، ويكون خروجُ الشاعر من كل معنىً يضيفه إلى غيره من المعاني خروجًا لطيفًا... حتى تخرجَ القصيدةُ كأنها مفرغةُ إفراغًا "[١].

وتحدث عنه ابن الأثير قائلاً: " وهو أن يأخذ مؤلف الكلام في معنى من المعاني فبينا هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره وجعل الأول سببًا إليه فيكون بعضه آخذًا برقاب بعض، من غير أن يقطع كلامه ويستأنف كلامًا آخر، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغًا، وذلك مما يدل على حذق الشاعر، وقوة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه، ويكون متبعًا للوزن والقافية فلا تواتيه الألفاظ على حسب إرادته "[٢].

ونرى أن حقيقة التخلص أن ينتقل الأديب من كلام إلى آخر دون أن يخل بانسياب المعاني، لذا اهتم العلماء بهذا اللون البلاغي حرصًا على الكلام من الخلل،كما يقول دكتور طبانة: " إذا اضطر إلى الاستطراد أو الخروج عن الموضوع الذي أخذ فيه عليه أن يحسن التخلص أو الخروج بلطف، حتى لا يحس القارئ أو السامع بذلك الخروج ولتبدو القصيدة وكأنها أفرغت إفراغًا واحدًا تقتضي كل كلمة ما بعدها ويكون ما بعدها متعلقًا مقتصرًا إليها "[٣].

وقد استحسن الخفاجي في حسن التخلص قول الفرزدق[٤]:

---

(١) عيار الشعر، ابن الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، ت(٣٢٢هـ)، تحقيق: عبدالعزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة، مطبعة المدني، ص٢١٣.

(٢) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير ٢/٢٤٤.

(٣) قضايا النقد الأدبي، دكتور بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية ص٢٦.

(٤) الفرزدق تقدمت ترجمته، ص ٩٤

وَرَكبٍ كأنّ الريحَ تطلُبُ عندهُم لها تِرةً[١] من جَذبِهَا بالعصائِبِ[٢]

سَرَوْا يخبطُونَ الليلَ[٣] وهي تلفُهُمْ إلى شُعَبِ الأكوارِ[٤] من كلِ جانبِ

إذا آنسُوا نارًا يقولونَ ليتَهَا وقد خَصِرتْ أيديهِمُ نارُ غَالِبِ

ومثّل الخفاجي الخروج إلى الذم بقول إسحاق بن إبراهيم[٥]:

فما ذرَّ قرنُ الشمسِ حتى رأيتُنا من العِيّ نحكي أحمدَ بن هشامِ[٦]

وقولُ أبي عبادة يصف الفرس[٧]:

ما إن يَعافُ قذىً ولو أَوردتَهُ يومًا خلائِقَ حمدَوَيْهِ الأحوَلِ[٨]

فقال فأما الخروج المنقطعُ فكقول أبي عبادة أيضًا:

---

(١) الترة: الثار.

(٢) العصائب: العمائم.

يقول: إنهم يضعون عصيهم في أفواههم لأنهم لا يستطيعون حملها بأيديهم لشدة البرد، فكأنها إذا حملوها بأيديهم تدخل في شوك العقارب.

(٣) سروا يخبطون الليل: أي ساروا في الليل على غير هدى.

(٤) شعب الأكوار: نواحيها، والكور: رحل البعير.

انظر ديوان الفرزدق، دار الطباعة بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ٢٩/١.

(٥) إسحاق بن إبراهيم بن ميمون- أو ابن ماهان الموصلي، يكنى أبا محمد، ويعرف بابن النديم وكان الرشيد يكنيه أبا صفوان، كان من العلماء باللغة والأشعار، وأخبار الشعراء وأيام الناس، وكان من ندماء الخلفاء، ت عام ٢٣٥هـ.

الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٢٦٨/٥، الفهرست، ابن النديم ١٥٧.

تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٣٣٨/٦، معجم الأدباء، ياقوت الحموي ٥/٦. وفيات الأعيان، ابن محمد بن أبي بكر بن خلكان ٢٠٢/١.

(٦) نسب البيت إلى بشّار أبو هلال العسكري في الصناعتين، ص٤٠٠، ونُسب في بديع ابن المعتز، ١٦/١، والأغاني، ١١٩/١٦ إلى إسحاق بن إبراهيم.

(٧) البحتري تقدمت ترجمته، ص ٥٢

(٨) ديوان البحتري، دار بيروت للطباعة والنشر ٣٦٨/٢.

تـأبَى رُبـاه أن تجيـبَ ولـم يكُـنْ   مُسـتَخبِرٌ ليُجيـبَ حتـى يفهَمَـا[١]

الله جـارُ بنـي المُـدبِرِ كُلمـا   ذُكـرَ المكـارِمَ مـاأعفَّ وأكرَمَـا

وقول أبي تمام[٢]:

لـو رأى اللهُ أن فـي الشـيبِ فضـلاً   جاوَرَتـهُ الأبرارُ فـي الخُلدِ شِيْبَا[٣]

كـلَ يـومٍ تُبـدي صُـرُوفُ الليـالِي   خُلُقـاً مـن أبِـي سـعيدٍ غَرِيْبَـا

ونبّـه الخفـاجي بقولـه: " إذا ابتُدئ بالمديح أو بغيره من الأغراض فالأحسن أن يكون الابتداء دالاً على المعنى المقصود، كما ابتدأ أبو الطيب المتنبي قصيدته التي مدح بها سيف الدولة، واعتذر له عن ظَفَر الروم بجيشه، وقتلِهِم وأسرِهم جماعةً منهم فقال:

غَيـري بـأكثرِ هـذا النـاسِ يَنخـدعُ   إن قـاتَلُوا جَبُنُـوا أوْ حَـدَّثُوا شَـجُعُوا[٤]

فأتى بغرضه من أول القصيدة "[٥].

قال القرطاجني: " البيت الأول بمثابة الطليعة الدالة على ما بعدها، المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة تزيد النفس بحسنها ابتهاجًا ونشاطًا، تلقي ما بعدها ان كان بنسبة من ذلك، وربما غطت بحسنها على كثير من التخوف الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيها "[٦].

---

(١) المصدر نفسه ٢٦٠/١.

(٢) أبو تمام تقدمت ترجمته، ص ١٧

(٣) ديوان أبي تمام، بشرح الخطيب التبريزي، دار المعارف، مصر ١٦١/١.

(٤) ديوان المتنبي، دار مكتبة الهلال ٦٨/٢.

المعنى: غيري يغتر بأكثر الناس لقلة التجارب فإنهم يوهمونه الشجاعة عند الحديث ولكنهم يجبنون عند القتال. انظر شرح الديوان ٦٨/٢.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٣.

(٦) منهاج البلغاء، حاتم القرطاجني، ص٣٠٩.

المطلب الثامن: المبالغــة والغلـــو

تحدّث ابن سنان في المبالغة والغلو وعالجهما في مبحث واحد ولم يفرق بينهما كما فعل بعض علماء البلاغة ومما يدل على ذلك قوله: " والذي أذهب إليه المذهب الأول في حَمدِ المبالغة والغلو "[١] وقوله أيضًا: " ومنهم من يكره الغلو والمبالغة التي تخرج إلى الإحالة "[٢] وإذا نظرنا إلى المبالغة من الناحية التاريخية فإننا نجد أن عبدالله بن المعتز قد تحدث عنها، وعدها في كتابه " البديع " من محاسن الكلام والشعر، وعرّفها بإنها " الإفراط في الصفة "[٣] ثم جاء بعد ابن المعتز قدامة بن جعفر فتحدث عن إفراط الصفة وعدّه من نعوت المعاني، وأطلق عليه اسم " المبالغة " وقد عرّفها بقوله: " المبالغة أن يذكر الشاعر حالاً من الأحوال في شعر، لو وقف عليها لأجزاه ذلك في الغرض الذي قصده، فلا يقف حتى يزيد في معنى ما ذكره من تلك الحال ما يكون أبلغ فيما قصد، وذلك مثل قول عمير التغلبي[٤].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٤٠٥.

(٣) البديع، عبدالله بن المعتز، ص١٧.

(٤) عمير التغلبي ورد اسمه في كتاب العمدة، ابن رشيق، ص٣٤١ مع البيت باسم عمرو بن الأيهم التغلبي ولم أجد له ترجمة إلا بذكر اسمه في سمط الآلي في شرح أمالي القالي، تحقيق: عبدالعزيز اليمني ٩٦/١ وقيل: أن العمران أحدهما عمرو بن كلثوم، والآخر عمرو بن الأيهم التغلبي. وذكر في الفصول والغايات، أبو العلاء المعري ١٣٦/١. وذكر البيت باسم عمرو بن الأهتم في تحرير التحبير، ابن أبي الإصبع المصري، وفي الصناعتين، أبو هلال العسكري ذكر باسم عمير بن الأهتم التغلبي ص ٣٦٦، وعمرو بن الأهتم ابن سمي ابن خالد بن منقر بن عبيد ابن مقاعش بن عمرو بن كعب بن زيد بن مناة بن تميم التميمي المنقري أبو نعيم ويقال أبو ربعي، واسم أبيه الأهتم سنان، كان خطيبًا جميلاً بليغًا شاعرًا شريفًا في قومه، كان يدعي المكحل بجماله وهو شاعر محسن يقال أن شعره حللاً منتشرة.

الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني ٦٠٤/٤، نزهة الألباب، ابن حجر ١٩٣/٢، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، يوسف بن عبدالله بن عبد البر، تحقيق: علي محمد البيجاوي، دار الجيل، بيروت ١٤١٢هـ، الطبعة الأولى ١١٦٣/٣،

ونُكـــرِمُ جَارَنَـــا مـــا دَامَ فِينَـــا   ونُتبعُـــهُ الكرامَـــةَ حيـــثُ كَانَـــا

فإكرامهم للجار ما كان فيهم إلى مدة إقامته بينهم – من الأخلاق الجميلة الموصوفة، واتباعهم الكرامة حيث كان من المبالغة في الجميل "[١].

وإذا نظرنا إلى السكاكي ومَنْ جاراه من أمثال الخطيب القزويني فنجدهم يعدون " المبالغة المقبولة " من محاسن الكلام وبديعه، ويعرفونها بقولهم: " والمبالغة أن يُدَّعَى لوصف بلوغه في الشدة أو الضعف حدًا مستحيلاً أو مستبعداً، لئلا يظن أنه غير متناه وتنحصر في التبليغ والإغراق والغلو "[٢].

وقد التفت الخفاجي إلى بيان اختلاف الناس من المبالغة والغَلو قائلاً:

" وأما المبالغةُ في المعنى والغلو فإن الناس مختلفون في حَمدِ الغلو وذمه: فمنهم من يختاره ويقول: أحسن الشعر أكذبه.

ويستدل بقول النابغة وقد قيل له: مَنْ أشعر الناس فقال مَن استُجيد كَذِبُهُ، وأَضحَك رديئُه. وهذا هو مذهب اليونانيين في شعرهم.

ومنهم من يكره الغلو والمبالغة التي تخرج إلى الإحالة، ويختار ما قارب الحقيقة، ودانَى الصِحَة ويعيب قول أبي نواس[٣]:

وأَخَفـتَ أهْـلَ الشِـركِ حتـى إنَّـهُ   لَتخافُكَ النُطَفُ التي لم تُخلَقِ[4]

لما في ذلك من الغلو والإفراط الخارج عن الحقيقة "[٥].

---

(١) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، دار الخانجي، القاهرة، ص١٤١.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ص٣٤٠.

(٣) أبو نواس سبقت ترجمته، ص ٩٨

(٤) ديوان أبي نواس، تحقيق: أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت-لبنان، ص٤٠١.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٥.

وتحدّث قدامة بن جعفر عن اختلاف الناس في هذين المذهبين قائلاً: " وأكثر الفريقين لا يعرف من أصله ما يرجع إليه ويتمسك به، ولا من اعتقاد خصمه ما يدفعه ويكون أبدًا مضادًا له، لكنهم يخبطون في ظلماء فمرة يعمد أحد الفريقين إلى ما كان من جنس قول خصمه فيعتقده، ومرة يعمد إلى ما جانس قوله في نفسه فيدفعه ويعتقد نقضه، وقد شهدت أنا، ممن هذه سبيله، قومًا يقولون إن قول مهلهل بن ربيعة[١]:

فلولا الريحُ أسمعُ أهل حجرٍ   صليل البيضِ تقرعُ بالذكور[٢]

خطأ من أجل أنه كان بين موضع الوقعة التي ذكرها وبين حجر مسافة بعيدة جدًا... ثم رأيت هؤلاء بأعيانهم في وقت آخر يستحسنون ما يروون من طعن النابغة على حسّان بن ثابت[٣] رضي الله عنه في قوله:

لنا الجَفنَاتُ الغُرُ يلمعنَ بالضُحَى   وأسيافُنا يقطُرنَ من نجدةٍ دَمَا[٤]

وذلك أنهم يرون موضع الطعن على حسّان إنما هو قوله: الغر، وكان ممكنًا أن يقول: البيض، لأن الغرة: بياض قليل في لون آخر غيره كثير، وقالوا فلو قال: البيض، لكان أكثر من الغر. وفي قوله: يلمعن بالضحى، ولو قال: بالدجى، لكان أحسن.

---

(١) المهلهل بن ربيعة من شعراء الجاهلية وكان أولهم، وأول من قصد القصائد وذكر الوقائع في قتل أخيه كليب وائل الذي قتلته بنو شيبان، وكان اسم المهلهل عديًا وإنما سمي مهلهلاً لهلهلة شعره كهلهلة الثوب وهو اضطرابه واختلافه، وهو خال امرئ القيس بن حجر الكندي.
المعارف، ابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم ٩٦/١، طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي ٣٩/١، خزانة الأدب، البغدادي ١٤٥/٢، المزهر في علوم اللغة والأدب، جلال الدين السيوطي ٤٠٣/٢.

(٢) ديوان المهلهل بن ربيعة.ص١٨

(٣) حسّان بن ثابت سبقت ترجمته، ص ٥٦

(٤) ديوان حسّان بن ثابت، تحقيق: الدكتور وليد عرفات، دار صادر بيروت ٣٥/١.

وفي قوله: وأسيافنا يقطرن من نجدةٍ دمًا، قالوا: ولو قال: يجرين، لكان أحسن، إذ كان الجري أكثر من القطر. فلو أنهم يحصلون مذاهبهم لعلموا أن هذا المذهب في الطعن على شعر حسّان غير المذهب الذي كانوا معتقدين له من الإنكار على مهلهل "(١).

أما مذهب الخفاجي فقد بيّنه قائلاً: " والذي أذهب إليه المذهب الأول في حَمدِ المبالغة والغلو، لأن الشعر مبنيٌّ على الجواز والتسمُحِ لكن أرى أن يُستعملَ في ذلك" كاد" وما يجري في معناها، ليكون الكلامُ أقربَ على حيز الصحة كما قال أبو عبادة:

أتاكَ الربيعُ الطلقُ يختالُ ضاحِكًا ... من الحُسنِ حتى كادَ أن يتكلَّما(٢)

وقول أبي الطيب:

يُطمعُ الطيرَ فيهِم طُولُ أَكلِهِمُ ... حتى تكادُ على أحيائِهِم تَقَعُ(٣)

فهذان البيتان قد تضمنا غلوًا، لكن لما جاءت فيها " كاد " قربتهما إلى الصحة "(٤).

ومثّل للمبالغة بغير كاد بقول أبي العلاء أحمد بن سليمان المعري:

وَنَبالَةٍ مِن بُحتُرٍ لو تعمدُوا ... بليلٍ أناسِيَّ النواظِرِ لم يُخْطُوا(٥)

وقول النمر (٦) يصف السيف:

---

(١) نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٩.

(٢) ديوان البحتري، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٧/١.

(٣) ديوان أبي الطيب المتنبي، دار المعرفة، بيروت ٣٨٠/٣.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٦.

(٥) شروح سقط الزند ١٦٣٩/٤.

(٦) النمر بن تولب بن زهير بن قيس العُكلِي، وهو أحد الشعراء المخضرمين، أدرك الإسلام وهو شيخ كبير، ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من ذوي النعمة والوجاهة، وكان أبو عمرو بن العلاء يسميه " الكيّس " لحسن شعره ت سنة ١٤هـ.
طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي ١٥٩/١، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٢٧٣/٢٢، خزانة الأدب، الخطيب البغدادي ٣٢١/١.

تَظَـلُ تحفِـرُ عنــهُ إنْ ضَـرَبْتَ بــهِ بَعـدَ الـذِراعَينِ والسـاقَينِ والهـادِي(١)

وقول النابغة(٢):

تَقُدُ(٣) السلُوقِيَّ(٤) المضاعَفَ نَسجُهُ ويُوقِدنَ بالصُفَّاحِ(٥) نارَ الحُباحِبِ(٦) (٧)

وقول ابن هاني الأندلسي(٨):

أمُـدِيرَهَا مـن حيـثُ دارَ لَشَـدَّ مـا زَاحَمْـتَ تحـتَ ركابِـهِ جِبـرِيلاَ(٩)

ونوّه الخفاجي إلى أن استعمال الغلو الخارج إلى الإحالة في النثر قليلٌ، وأكثر ما يستعملُ فيه المبالغة التي تقارب الحقيقة، كقول بعضهم: " لهم جودُ كرامٍ اتسعت أحوالُها، وبأسُ ليوثٍ تتبعها أشبالُها، وهممُ ملوكٍ انفسحت آمالُها، وفخرُ صميمٍ شَرُفَتْ أعمامُها وأخوالُها ".

فبالغ لما جعل لهم جود الكرام مع اتساع الحال، وبأس اللُيوث مع اتباع الأشبالِ، وكذلك ما بعده من الكلام "(١٠).

وجعل ابن سنان من المبالغة قولِ النابغة الذبياني:

ولا عيبَ فيهم غيرَ أن سُيُوفَهُم بِهِن فُلُولٌ(١١) من قراعِ(١٢) الكتائِبِ(١)

---

(١) انظر الشعر والشعراء ٣١١/١، ونقد الشعر ص٥٩.

(٢) النابغة سبقت ترجمته، ص ٨٩

(٣) تقد: تقطع.

(٤) السُلوقيَّ: دروع منسوبة إلى مكان تنسب إليه الدروع والكلاب.

(٥) الصُفَّاح: حجارة عراض.

(٦) الحُباحب: دويبة تضيء بالليل كالنار. انظر ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: كرم البستاني، دار صادر بيروت، ص١١.

(٧) المصدر نفسه، ص١١.

(٨) ابن هاني الأندلسي سبقت ترجمته، ص ١٦٤

(٩) ديوان ابن هاني الأندلسي، دار صادر بيروت ١٤١٤هـ-١٩٩٤م، ص٢٦٧.

(١٠) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٨.

(١١) فلول: الثلوم.

(١٢) قراع: المجالدة.

وإنما كان هذا الاستثناءُ من المبالغة في المدح لأنه دل به على أنه لو كان فيهم عيبٌ غيره لذكره، وأنه لم يقصد إلا وصفهم بما فيهم على الحقيقة "[٢].

ومنه أيضًا قول أبي هفان[٣]:

ولا عيــبَ فينَــا غيــرَ أن سَــمَاحَنَا ... أضَرَّ بنـا واليـأسَ مـن كـلِ جانِـبِ[٤]

فـأفنَى الـرَّدَى أعمَارَنَـا غيـرَ ظـالِمٍ ... وأفنــى النـدَى أموَالَنَـا غيـرَ عَائِـبِ

أبوُنــا أبٌ لــو كــانَ للنــاسِ كُلِّهِــمْ ... أبَــا واحــدًا أغنــاهُمُ بالمَنَاقِــبِ

ومنه قول النابغة[٥]:

فتــىً كَمُلــت ... جــــواْد فمـــا يُبقِـــى مِـــنَ المـــالِ

---

(١) الكتائب: الجيوش، ديوان النابغة الذبياني، ص١١.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٨.

(٣) هو عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي، يكنى أبا هفان، كان أحد غلمان أبي نواس، وأخذ عن الأصمعي، فكان ذا حظ وافر من الأدب، وشعره جيد، إلا أنه مقل. ت ٢٥٧هـ.
تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٣٧٠/٩، معجم الأدباء، ياقوت الحموي ٥٤/١٢، الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ٢٧٠/١٧.
الفهرست، محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم، ص١٦١.

(٤) وردت الأبيات دون نسبة في العمدة بن رشيق القيرواني ٦٥٠/٢، معاهدة التنصيص ١٠٩/٣، خزانة الأدب، الخطيب البغدادي ١٢٢/٧.

(٥) النابغة الذبياني، سبقت ترجمته، ص ٨٩

(٦) ديوان النابغة، دار صادر بيروت، ص١٢٧.

نرى الخفاجي احتفى واستحسن المبالغة والغلو ولكن مع ذلك نادى بإستعمال "كاد" حتى يكون الكلام أقرب إلى الصحة وذلك ما نادى به البلاغيون"[(١)] عندما جعلوا المقبول من الغلو أن يدخل عليه ما يقربه إلى الصحة، كقول الله عز وجل في سورة النور في وصف زيت شجرة الزيتون " يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ" النور ٣٥، فعبارة يكاد قربت فكرة إضاءة الزيتِ ببريقهِ الشديد إلى الصحة وجعلت المبالغة مقبولة.

المطلب التاسع: صحـــة التفسيـــر

عرّف ابن سنان هذا اللون البلاغي بقوله: " وهو أن يذكر مؤلفُ الكلام معنىً يحتاج إلى تفسيره فيأتي به على الصِحَة من غير زيادة ولا نقص "[(٢)].

وعرّفه قدامة بن جعفر بأنه: " أن يضع الشاعر معاني يريد أن يذكر أحوالها في شعره الذي يصنعه، فإذا ذكرها أتى بها من غير أن يخالف معنى ما أتى به منها، ولا يزيد ولا ينقص مثل بقول الفرزدق[(٣)]:

لَقَد خُنتَ قومًا لَو لَجأتَ إليهِمُ ... طَرِيدَ دَمٍ أو حاملاً ثِقلَ مَغرَمِ[(٤)]

فلما كان هذا البيت محتاجًا إلى تفسير قال:

لألفَيتَ فيهِمْ مُعطِياً ومُطاعِنًا ... وَرَاءكَ شزراً بالوشِيجِ المُقَوَّمِ[(٥)]

---

(١) العمدة،ابن رشيق ١٣١/١ الإيضاح في علوم البلاغة، القزويني ص ٣٤١ خزانة الأدب ابن حجة،١٢/٢.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٣

(٣) الفرزدق سبقت ترجمته، ص ٩٤

(٤) ديوان الفرزدق، الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت–لبنان ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م، ٥١٩/٢ المغرم: الثأر انظر شرح الديوان ٥١٩/٢.

(٥) المصدر نفسه ٥١٩/٢، الشذر: الحدة والغضب، الوشيج: الرماح، الديوان ٥١٩/٢.

ففسر قوله: حاملاً ثقل مغرم: بأنه يلقي فيهم من يعطيه، وفسّر قوله: طريد دم بقوله: إنه يلقى من يطاعن دونه ويحميه "(١).

وقد أورد الخفاجي قول الفرزدق مما يدل أنه أفاد من قدامة ابن جعفر وقال الخفاجي: " وهذا تفسير للأول موافق "(٢)

ولكن ابن الأثير يرى أن الفرزدق: " أصاب في التفسير وأخطأ في الترتيب، وذاك أنه أتى بتفسير ما هو أول في البيت الأول ثانيًا في البيت الثاني، والأولى أن كان أتى بتفسير ذلك مرتبًا، ففسر ما هو أول في البيت بما هو ثان في البيت الثاني "(٣).

مع ذلك نجد أنه جيد في معناه ولكنه كما قال ابن رشيق " إلا أنه غريب مريب، لأنه فسّر الآخر أولاً والأول آخرًا، فجاء فيه بعض التقصير والإشكال، على أن من العلماء من يرى أن ردَ الأقرب على الأقرب والأبعد على الأبعد أصحُ في الكلام "(٤).

أما فساد التفسير عند الخفاجي فكقول بعضهم(٥):

فيا أيُهَا الحيرانُ في ظُلَمِ الدُجَى ... ومَنْ خَافَ أنْ يَلقَاهُ بَغيٌ من العِدىَ

تعالَ إليهِ تلقَ من نُورِ وجهِهِ ... ضِياءً ومن كفيهِ بحرًا من الندىَ

قال: " فإن هذا الشاعر لما قّدم في البيت الأول الظلَمَ وبغي العِدىَ كان الوجهُ في التفسير أن يأتي في البيت الثاني بما يليق به فأتى بالضياء بإزاء الظلم وذلك صواب وكان يجب أن يأتي بإزاء بغيِ العدىَ بالنُصرة أو العصمة، أو ما جرى مجرى ذلك، فلما جعل مكانه ذِكر الندىَ كان التفسيرُ فاسدًا "(٦).

---

(١) نقد الشعر قدامة بن جعفر، ص٢٤.
(٢) سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي ص ٤٠٤
(٣) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير ٢٩٦/٢.
(٤) العمدة في نقد الشعر، ابن رشيق القيرواني ٣٢٣.
(٥) ورد البيتان دون نسبه في نقد الشعر، قدامة بن جعفرص٣٧
(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٠٤

ومـن العلمـاء الـذين علقـوا علـى هـذين البيتـين حـازم القرطـاجني حيـث قـال: " والمتسامح في إيراد التفسير على هذا مخل بوضع المعاني ومذهب لطلاوة الكلام فينبغي أن يحرز منه ولا يتسامح في مثله "[١].

(١) منهاج البلغاء، حازم القرطاجني، ص٩٣.

المبحث الثاني

المحسنات اللفظية

المطلب الأول: المجانــس

عرّف ابن سنان" المجانس" بقوله: " هو أن يكون بعضُ الألفاظ مشتقًا من بعض إن كان معناهما واحدًا، أو بمنزلة المشتق إن كان معناها مختلفًا، أو تتوافق صيغتا اللفظتين مع اختلاف المعاني "(١).

وقد استحسن الخفاجي هذا اللون فقال: " إنما يحسن في بعضِ المواضعِ إذا كان قليلاً غير متكلف ولا مقصود في نفسه "(٢).

وقد أولى العلماء هذا اللون عناية كبيرة ومنهم الجرجاني الذي تحدّث عن حسنه فقال: " فإنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً ولا سجعًا حسنًا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، ومن هاهنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن، وأولاهُ ما وقع من غير قصدٍ من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهُب لطلبه "(٣).

وذكر الخفاجي أنّ: " بعض البغداديين يُسمي تساوي اللفظتين في الصيغة مع اختلاف المعنى "المماثل" "ككاهل" "وكاهل" في بيت زياد الأعجم(٤):

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٨٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٨٤.

(٣) أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني ٧/١.

(٤) زياد الأعجم، قيل ان اسم والده زياد بن سلمى وزياد بن جابر بن عمرو بن عامر وزياد بن سليمان وزياد بن سليم، ويكنى " أبو أمامة " وكان أعجميًا ويروى أنه كان بلفظ " الحاء " هاءً، ولقب بالأعجم، وهو من شعراء الدولة الأموية وكان هجاء يتحاشاه الناس ت سنة ١٠٠هـ.

=

وَنُبِئْتُهُم يستنصِرُونَ بكاهلٍ　　　وَلِلّؤْمِ فِيهِمْ كَاهِلٌ وَسَنامُ(١)

و"هوجل" و"هوجل" في قول الأفوه الأودي(٢):

وأَقطَعُ الهَوَجَلَ مُستأنِسًا　　　بهوجَلٍ عيرَانَةٍ(٣) عَنْتَريسْ(٤)

لأن لفظة "الهوجل" واحدةٌ، والمراد بالأولى: الأرض البعيدة،وبالثانية الناقة العظيمة الخَلقَ، ويسمى المجانس ما توافقت فيه اللفظتان بعض الاتفاق "(٥).

وذكر ابن سنان أن قدامة بن جعفر سمى هذا الفن المطابق، ويسمي المطابق المتكافئ، وأن أبا القاسم الآمدي أنكر عليه ذلك "(٦).

وأورد الخفاجي أمثلة من النظم لهذا اللون منها قول أبي تمام:

الطبقات، ابن سلام الجمحي ٦٩٣/٢، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٣٨٠/١٥، معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١٦٨/١١، معاهدة التنصيص، عبد الرحيم بن أحمد العباس ١٧٣/٢، فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي ٤١٦/١.

(١) ديوان زياد الأعجم، تحقيق الدكتور: يوسف حسين بكّار، دار الثقافة والإرشاد القومي، دمشق ١٩٨٣م، ص١٦٨.
كاهل الأول اسم رجل، وكاهل الآخر: ما بين الكتفين، وهو مقدم أعلى المظهر مما يلي العنق، وهو كناية عن بلوغ اللؤم فيهم غايته، انظر الديوان، ص١٦٨.

(٢) الأفوه الأودي هو صلاءة بن عمرو بن مالك، من بني أَوْد من مذحج، يكنى أبا ربيعة، ولُقب بالأفوه لأنه كان غليظ الشفتين، ظاهر الأسنان، كان سيد قومه، وقائدهم في حروبهم، وهو أحد الحكماء والشعراء في الجاهلية. الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٩٦/١٢، معاهدة التنصيص، عبدالرحيم بن أحمد العباس ١٠٧/٤.

(٣) عيرانة: الناقة الصلبة، تشبيهًا بعير الوحش، انظر لسان العرب، ابن منظور الأفريقي ٦٢٣/٤.

(٤) عنتريس: الناقة الوثيقة، وقد يوصف به الفرس الجواد، والناقة الصلبة الشديدة الكثيرة اللحم الجواد الجريئة. انظر لسان العرب ١٣٠/٦ معجم العين، الخليل ابن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي مخدومي، إبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال ٣٢٩/٢.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٨٧.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٨٧.

يَمُـدُونَ مـن أيـدٍ عَـوَاصٍ عَوَاصِـمِ تطُولُ بأسيافٍ قواضٍ قواضِـبِ(١)

وقولـه:

أَرامَـــةُ كُنــتِ مـــأْلَفَ كُــلِ رِيْـــمِ لَـوِ اسـتَمتَعتِ بـالأنُسِ المُقِـيمِ(٢)

ومن قبيح تجنيسه قولُه:

قَرَّت بِقرَّانَ عينُ الدينِ وانشَتَرتْ بالأشتَرَينِ عُيُونُ الشِّركِ فَاصْطَلَما(٣)

قال الخفاجي: " السبب في ذلك أنه أحب الإكثارَ ولم يقنع باليسير الذي يسمح به خاطره ويقع بغير تكلف ولا تعمل "(٤).

ومما ورد في القرآن العظيم من هذا الفن قوله تعالى: ﴿ **ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم** ﴾(٥) وقوله تعالى: ﴿ **يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** ﴾(٦) وقوله عزّ وجلّ: ﴿ **يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ** ﴾(٧).

---

(١) ديوان أبي تمام، شرح الخطيب التبريزي، دار المعارف، مصر ٢٠٦/١ وفي الديوان، عواصم "جمع عاصمة"، أي يعتصم من استجار بها وقوله " عواصٍ عواصم " يسميه أهل النقد تجنيس المقاربة لأن اللفظين متقاربان ليس بينهما فرق إلا في الميم وكذلك قوله " قواضٍ قواضب " والقواض التي تقض على الأعداء بما تريد، والمعنى: يمدون أيديًا تعص العاذلين في الجود، وتعصم المستغيث الخائف بأسياف هذه صفتُها. انظر الشرح ٢٠٦/١.

(٢) ديوان أبي تمام، تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف مصر الطبعة الرابعة ١٦٠/٣.

(٣) ديوان أبي تمام، دار المعارف–مصر– ١٦٩/٣.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٩٠.

(٥) سورة التوبة، الآية(١٢٧).

(٦) سورة النور، الآية(٣٧).

(٧) سورة البقرة، الآية(٢٧٦).

أما ما أورده من الحديث النبوي الشريف فقال الخفاجي:

" ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم: " عُصيةُ عَصَتِ الله، وغفارُ غفرَ الله لها، وأَسلَمُ سالمَهَا الله "[١].

وذكر ابن سنان أن هناك أنواعاً لهذا الفن منه ما سماه قدامة بن جعفر "المضارعة"، وهي إذا كانت إحدى اللفظتين تماثل الأخرى بأكثر الحروف، ولا تشابهها في الجميع، ومثَّل لذلك بقول نوفل بن مساحق[٢] للوليد وقد اعتَّد عليه بالإذن له على نفسه وهو يلعب بالحمام،وقال: خصصتُك بهذه المنزلة، فقال له نوفلٌ: ما خصصّتني، ولكن خسستَني، لأنك كشفتَ لي عورةً من عوراتك "[٣].

(١) الحديث: عن نافع أن عبدالله أخبره أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال على المنبرِ غِفارُ غفرَ الله لها وأسلمُ سالمَهَا الله وعُصَيهُ عصتْ الله ورسوله ".
صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق دكتور، مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة بيروت-١٤٠٧هـ-١٩٩٧م، الطبعة الثالثة، باب ذكر اسلم وغفار ١٢٩٣/٣.

(٢) نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرمة أبو سعيد القرشي العامري المدني القاضي، أحد بني مالك ابن حسلٍ، واحد بني عامر بن لؤي، ولي القضاء بالمدينة، كان من أشراف قريش مات في زمن عبد الملك بن مروان سنة ٧٤هـ، التاريخ الكبير، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبد الله البخاري الجعفي، ت(٢٥٦هـ)، تحقيق السيد هاشم الندوي، دار الفكر، ١٠٨/٨، تقريب التهذيب، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، ت(٨٥٢هـ)، تحقيق: محمد عوامة، دار الرشيد- سوريا ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م الطبعة الأولى ٥٦٧/١، تهذيب التهذيب، ابن حجر، دار الفكر-بيروت، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م الطبعة الأولى ٤٣٧/١٠ تهذيب الكمال، يوسف بن الذكي عبدالرحمن أبو الحجاج المزي، ت(٧٤٢هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة-بيروت-١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، الطبعة الأولى ٦٧/٣٠.

(٣) القول في تهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني الشافعي ٤٣٧/١٠ تهذيب الكمال، يوسف بن الذكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي، تحقيق دكتور بشار، دار مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م، الطبعة الأولى ٦٩/٣٠، تاريخ مدينة دمشق، ابن عبدالله الشافعي ٣٠١/٦٢.
انظر سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي، ص٢٩٢.

ومنه" مجانس" التركيب لأنه يركب من الكلمتين ما يجانس به الصيغتان وقال: وقد ورد ذلك في شعر أبي العلاء أحمد بن سليمان[١]:

مطايَا مطايَا وَجْدَكُن منازِلٌ   منىً زلَّ عنهَا ليسَ عني بمُقلِعِ[٢]

وما أحفظ لأحد من الشعراء شيئًا من قبيله، وهو عندي غير حسن، ولا مختار، ولا داخل في وصفٍ من أوصاف الفصاحة والبلاغة "[٣].

ومنه" مجانس التصحيف" فقد ورد في شعر أبي عبادة كقوله[٤]:

ولَمْ يكُنِ المُغترُّ باللهِ إذ سَرَى   ليُعجِزَ والمُعتَزُّ باللهِ طالِبُهْ[٥]

وكقوله:

وكأنَّ الشَّلِيلَ والنثرَةَ الحصداءَ   مِنهُ على سَلِيلِ غَرِيفِ[٦]

وهذا أقلُ طبقات المجانس، لأنه مبني على تجانس أشكال الحروف في الخط، وحُسنُ الكلام وقبحُه لا يستفاد من أشكال حروفه في الكتابة، إذ لا عُلْقة بين صيغة اللفظ في الحروف وشكله في الخط "[٧].

---

(١) أبو العلاء المعري سبقت ترجمته، ص ٤

(٢) سقط الزند، أبو العلاء المعري، ص٢٣٦.

مطا: مد، اتصل بياء النداء، فصار اللفظ " مطايا " جمع مطية، وهذا تجنيس التركيب. ومَنى: أي قدرٌ. زل عنها: أي لم يصبها. والمعنى أن هذه المطايا لما وصلت إلى منازل أحبابه التي كان قاصدًا لها ذهب عنها الأعياء والكلال، لأنها أقامت بها، وهو لما وصل إليها لم تزده رؤيتها إلا تذكيرًا وشجوًا. فهذا وجه. وفيه وجه آخر، وهو أنها بقيت فيها بقية زل عنها القدر، فلم ينلها وأمكنها الوصولُ، وهو عن القائل غير مُقلِعِ. انظر شروح سقط الزند ٣/٣٤٥.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٩٣.

(٤) البحتري سبقت ترجمته، ص ٥٢

(٥) ديوان البحتري ١/٢١٥.

(٦) ديوانه ٣/٣٦٥.

(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٩٤.

المطلب الثاني: السجـع والازدواج

تحدّث الخفاجي عن المناسبة بين الألفاظ في الصيغ ومنها السجع والازدواج وحد السجع بأنه: " تماثلُ الحروفِ في مقاطع الفصول "(١).

ويقول: " أن السجع محمودٌ إذا وقع سهلاً متيسرًا بلا كلفة ولا مشقة "(٢).

وعد الخفاجي أن السجع والازدواج مترادفان لذا تناولهما في مبحث واحد وذلك من قوله بعد أن ساق للسجع أمثلة من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ﴾(٣) وجميع هذه السور على هذا الازدواج وهذا جائز أن يسمى سجعًا لأن فيه معنى السجع ولا مانع في الشرع يمنعُ ذلك "(٤).

ونجد هذا في مذهب ابن الأثير حيث كان يذهب إلى أن السجع والازدواج مترادفان فيقول: " أن تكون كل واحدة من السجعتين المزدوجتين مشتملة على معنى غير المعنى الذي اشتملت عليه أختها "(٥).

ومن العلماء من يعده تجنيسًا(٦)، ومنهم من يسميه المزاوجة(٧).

وذكر ابن سنان الفرق بين الفواصل في القرآن فقال:

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٥٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٣.

(٣) سورة القمر، الآيات (١-٢).

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٥٥.

(٥) المثل السائر، ضياء الدين ابن الأثير ١/١٩٩.

(٦) ثلاث رسائل في إعجازالقرآن، علي بن عيسى الرماني، باب التجانس، ص٩٩، يقول: التجانس على وجهين، مزاوجة ومناسبة.

(٧) خزانة الأدب، ابن حجة الحموي ٢/٤٣٥.

" وأما الفواصلُ التي في القرآن فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعًا، وفرقوا وقالوا: إن السجع هو الذي يُقصد في نفسه، ثم يُحمل المعنى عليه، والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصودة في أنفسها "(١).

ويذكر أيضًا أن الفواصل تقع على ضربين فيقول: " والفواصل على ضربين: ضرب يكون سجعًا، وهو ما تماثلت حروفُه في المقاطع، وضرب لا يكون سجعًا، وهو ما تقاربت حروفُه في المقاطع ولم تتماثل، ولا يخلو كلُ واحد من هذين القسمين أعني المتماثل والمتقارب من أن يكون يأتي طوعًا سهلاً، وتابعًا للمعاني، أوبالضد من ذلك حتى يكون متكَلفًا يتبعه المعنى، فإن كان من القسم الأول فهو المحمودُ الدالُ على الفصاحة وحسن البيان، وإن كان من الثاني فهو مذموم مرفوض "(٢).

وأوضح الخفاجي ذلك قائلاً: " فأما القرآن الكريم فلم يرد فيه إلا ما هو من القسم المحمود، لعلوه في الفصاحة، وقد وردت فواصلُه متماثلةً ومتقاربةً فمثالُ المتماثلة: قوله تعالى: ﴿ **وَالطُّورِ. وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ. فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ** ﴾(٣).

وقوله عزّ اسمه: ﴿ **طه. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى. تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى. الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى** ﴾(٤).

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٥٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٤.
(٣) سورة الطور، الآيات (١-٤).
(٤) سورة طه، الآيات (١-٥).

ومثالُ المتقارب في الحروف من القرآن الكريم قوله تبارك وتعالى: ﴿ **الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ** ﴾[١] وقوله تعالى: ﴿ **ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ. بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ** ﴾[٢] وهذا لا يسمى سجعًا لأنا قد بينا أن السجع ما كانت حروفه متماثلة "[٣].

ويستحسن الخفاجي السجع ثم يقول: " إنما دل به على حسن ما ورد منه في كتاب الله تعالى، وكلام النبي صلى الله عليه وسلم، والفصحاء من العرب، وكان يحسن الكلام، ويبين آثار الصناعة،ويجري مجرى القوافي المحمودة، والذي يكون بهذه الصفات هو الذي حمدناه واخترناه، أنه يكون سهلاً غير مستكره ولا متكلف "[٤].

ويدعم الخفاجي حديثه هذا بذكر وصية بشر بن المعتمر[٥] التي جاء فيها: " إذا لم تجدِ اللفظةَ واقعةً موقعها، ولا صائرةً إلى مستقرها، ولا حالَّةً في مركزها، بل وجدتها قلقةً في مكانها، نافرةً في موضعها، فلا تكرِهها على القرار في غير موطنها، فإنك إذا لم تتعاطَ قريضَ الشعرِ الموزون، ولم تتكلفِ اختيار الكلام المنثور. ولم يَعِبكَ بترك ذلك أحد، وإذا أنت تكلَّفتهما ولم تكن حاذقًا فيهما عابَكَ من أنت أقل عيبًا منه، وأَزرَى عليك من أنت فوقه " وهذا كلام صحيح يجب أن يُقتدى به في هذه الصناعة "[٦] .

---

(١) سورة الفاتحة، الآيات(٣-٤).

(٢) سورة، ق، الآيات(١-٢).

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٥٥.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٥٥.

(٥) بشر بن المعتمر كوفي يقال بغدادي يكنى أبا سهل من كبار المعتزلة انتهت إليه رياستهم ببغداد وكان صاحب التصانيف، وكان من القراء الكبار وكان راويًا للشعر والأخبار، وكان أبرص، توفي سنة ٢١٠هـ.
سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ٢٠٣/١٠، تاريخ الإسلام، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ٧٩/١٤، الوافي بالوفيات، ابن أيبك الصفدي ٩٦/١٠، لسان الميزان ابن حجر العسقلاني الشافعي ٣٣/٢.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٥٤. البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ ١٣٨/١.

ونجد الباقلاني قد نفى السجع في القرآن الكريم، حيث أفرد له بحثًا مطولاً في كتابه إعجاز القرآن، ومن ذلك أنه رأى أن " الذي يقدرونه أنه سجع فهو وهم، لأنه قد يكون الكلام على مثال السجع، وإن لم يكن سجعًا، لأن ما يكون به الكلام سجعًا يختص ببعض الوجوه دون بعض، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن، لأن اللفظ يقع فيه تابعًا للمعنى "[١]. كما أورد كثير من الأدلة والحجج لنفيه من القرآن.

ونجده قد تابع الرُماني فيما ذهب إليه في " أن السجع عيب والفواصل بلاغة "[٢] وقد رد عليه ابن سنان قائلاً: " فأما قول الرُماني: إن السجعَ عيبٌ والفواصل بلاغة،على الإطلاق فغلط،لأنه أراد بالسجع ما يكون تابعًا للمعنى، وكأنه غير مقصود فذلك بلاغةٌ والفواصل مثله، وإن كان يريد بالسجع ما تقع المعاني تابعةً له، وهو مقصود متكلف، فذلك عيبٌ والفواصل مثله، وكما يَعرض التكلف في السجع عند طلب تماثل الحروف، كذلك يعرض في الفواصل عند طلب تقارب الحروف "[٣].

أوضح ابن سنان الدوافع التي دفعت العلماء إلى تسمية ما في القرآن فواصل ولم يسموا ما تماثلت حروفه سجعًا فقال: " أظن ذلك رغبةً في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنة وغيرهم، وهذا غرض في التسمية قريب. فأما الحقيقة فيما ذكرناه،لأنه لا فرق بين مشاركة بعض القرآن لغيره من الكلام في كونه مسجوعًا، وبين مشاركة جميعه في كونه عرضًا، وصوتًا، وحروفًا، وكلامًا، عربيًا، ومؤلفًا، وهذا مما لا يخفى فيحتاج إلى زيادة في البيان، ولا فرق بين الفواصل التي تتماثل حروفها في المقاطع وبين السجع "[٤].

---

(١) إعجاز القرآن، الباقلاني، دار المعارف مصر، ١٩٩٧م، ص٥٨.
(٢) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ص٩٧.
(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٥٦.
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٥٦.

ويجيب الخفاجي على ما افترضه من سؤال لتوضيح فكرته قائلاً: " فإن قال قائل إذا كان عندكم أن السجع محمودٌ فهلا ورد القرآنُ كلُه مسجوعًا ؟ وما الوجهُ في ورودِ بعضِه مسجوعًا وبعضه غير مسجوع ؟

قيل: إن القرآن أُنزل بلغة العرب، وعلى عُرفَهم وعادتهم، وكان الفصيحُ من كلامهم لا يكون كله مسجوعًا، لما في ذلك من إمارات التكلف والاستكراه، والتصنع، لا سيما فيما يطول من الكلام، فلم يرد مسجوعًا جريًا به على عُرفهم في الطبقة العالية من كلامهم، ولم يَخْلُ من السجع، لأنه يَحسن في بعض الكلام على الصفة التي قدمناها، وعليها ورد في فصيح كلامهم، فلم يَجز أن يكون عاليًا في الفصاحة وقد أُخل فيه بشرط من شروطها، فهذا هو السبب في ورود القرآن مسجوعًا وغير مسجوع "[١].

وينوه الخفاجي إلى عدم الإكثار من السجع في الكلام فيقول: " ومما يجب اعتماده في هذا ألا تُجعل الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد لأن ذلك يقع تعرضًا للتكرار وميلاً إلى التكلف "[٢].

وأورد ابن سنان أمثلة للسجع الواقع موقعه: قائلاً: " ومنه قول أبي الفرج عبد الواحد بن نصر الببغا[٣] في أول رسالة له: إذا كانت حقيقةُ الشكر - أطال الله بقاءَ سيدنا الأمير سيف الدولة - في متعالم العُرف والعادة، إنما هي علةٌ موضوعةٌ لاستجلاب الزيادة، فقد لَزِمَ بدليل العقل، وحُجةِ الفضل، أن يُسمى الشاكرُ مستزيدًا، لا مكافيًا، ومستديمًا، لا مجازيًا، وتبقى النعمةُ مطالبة بواجِبها، والمنَّة مقتضة عن صاحبها "[٤].

---

(١) المصدر نفسه، ص٢٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٦٢.

(٣) هو عبد الواحد بن نصر بن محمد المخزومي، من أهل نصيبين، يكنى أبا الفرج، ولُقب بالببغاء للثقة فيه، وكان في عنفوان أمره وريعان شبابه متصلاً بسيف الدولة مقيمًا في حملته ، فورد الموصل، وبغداد ونادم بهما الملوك والرؤساء، ت(٣٩٨هـ). تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ١١/١١ وفيات الأعيان ابن خلكان ١٩٩/٣.

(٤) وردت هذه الرسالة في سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٦٠.

ذكر الخفاجي قول بعضهم[١]: سَلِ الأرض من شق أنهاركِ، وغرس أشجاركِ، وجني ثماركِ ؟ فإن لم تُجبك حوارًا، أجابتك اعتبارًا "[٢].

فقال: " هذا كله سجع يتبع المعاني غير متكلف ولا مستكره وأمثاله أكثر من أن تحصى "[٣].

ومن العلماء الذين أشادوا بمبحث السجع عند ابن سنان – الذي تميَّز فيه وأبدع في بيان خصائصه الجمالية – الأستاذ الجندي حيث يقول:

" نرى الخفاجي قد بسط رأيه شافيًا كافيًا في دقة ووضوح بعيدًا عن منطق المتكلمين الجدلي وفلسفتهم العقلية، وفي أدلته لمحات فنية تحمل في ومضاتها الهادئة أسباب التسليم والاقتناع "[٤].

المطلب الثالث: لزوم ما لا يلزم

تحدّث الخفاجي عن هذا اللون في معرض كلامه عن التناسب بين الألفاظ في الصيغ فقال:

" وقد التزم بعض الشعراء في القوافي إعادة ما لا يلزمه طلبًا للزيادة في التناسب والإغراق في التماثل كقول الحطيئة[٥]:

ألاَ مَـنْ لِقَلْـبٍ عَـارِمِ النظَـراتِ ... يُقطِّـعُ طُـولَ الليـلِ بـالزَّفَرَاتِ[١]

---

(١) القائل هو الفضل بن عيسى الرقاشي، كان من أخطب الناس وكان متكلمًا وقاصًا مجيدًا، وكان سجاعًا في قصصه. البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ ١/١٥٥، ١٦٢، المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي، ت (٣٦٤هـ)، دار ابن حزم، لبنان–بيروت–١٤٢٣–٢٠٠٢م، الطبعة الأولى ١/٣٧٩.

(٢) ورد القول في الصناعتين، أبو هلال العسكري ١/١٤ منسوبًا للرقاشي وأسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني ١/٩ منسوبًا للرقاشي.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٦٠.

(٤) صور البديع، علي الجندي، دار الفكر العربي، ٢/١٨١.

(٥) الحطيئة تقدمت ترجمته، ص ١٣٥

إذا ما الثُريا آخرَ الليلِ أعنَقَت   كواكِبُهَا كالجَزعِ مُنحدِراتِ

فالتزم الراءَ في جميعها قبل حرف الرويّ وهي غير لازمة "[٢] . وقال ابن المعتز في بديعه: " هو من إعنات الشاعر نفسه في القوافي، وتكلفه من ذلك ما ليس له "[٣].

وهنالك من العلماء من نوّه بأنه يحتاج إلى جهد في صياغته ومنهم ابن الأثير، إذ يقول: " وهو من أشق هذه الصناعة مذهبًا، وأبعدها مسلكًا، وذاك لأن مؤلفه يلتزم ما لا يلزمه، فإن اللازم في هذا الموضع وما جرى مجراه، إنما هو السجع الذي هو تساوي أجزاء الفواصل من الكلام المنثور في قوافيها وهذا فيه زيادة على ذلك، وهو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفًا واحدًا وهو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قيل روي الأبيات الشعرية "[٤].

ونجد ابن سنان قد وضع لاستعمال هذا الفن مذهبًا أساسيًا بقوله: " وليس يُعَفرُ للشاعر إذا نظم على هذا الفن لأجل ما ألزم نفسه، ما لا يلزمه شيءٌ من عيوب القوافي، لأنه إنما فعل ذلك طوعًا واختيارًا من غير إلجاءٍ ولا إكراهٍ، ونحن نريد الكلام الحسن على أسهل الطرق، وأقرب السبل، وليس بنا حاجةٌ إلى المتكلف المطَّرَح، وإن إدعى علينا قائلُه أنَّ مشقةً نالته، وتعبًا مر به في نظمه "[٥].

(١) ديوان الحطيئة، تحقيق: دكتور نعمان محمد أمير طه، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، ص١١٢.
(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٦٣.
(٣) البديع لابن المعتز، ص١٩.
(٤) المثل السائر، ضياء الدين بن الأثير، ص ٢٦٢/١.
(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٦٥.

وأورد ابن سنان كثيرًا من الأمثلة كقول حسّان:

بكُلِ كُمَيتٍ جَوزُهُ[١] نصفُ خلقِهِ   وقُبٍّ[٢] طِوالٍ مُشْرِفَاتِ الحَوارِكِ[٣]

فالتزمَ الراءَ التي تسميها أصحاب القوافي" الدخيل" بين ألف التأسيس وحرف الروّي "[٤].

وأما أبوعبادة البحتري فإنه التزم الدال في قصيدته التائية التي مدح فيها المهتدي بالله[٥] وفيها يقول:

أَسِفتَ لأقوامٍ ملكتَ بُعَيدَهُمْ   وكانت دَجَت أَيامُهُم واسوأدَّتِ[٦]

مَضَوا لم يرْوا من حُسنِ عَدلِكَ   ولَم يَلبَسُوا نُعمَاكَ حينَ استُجِدتِ

قال الخفاجي ورود القوافي متمكنة في الأشعار المختارة موجود ومنه قول أبي عبادة:

---

(١) وجوزُهُ: وسطه.

(٢) وقُبّ: ضامر.

(٣) الحوارك جمع حارك: وهو أعلى الكاهل. ديوان حسّان بن ثابت، تحقيق الدكتور وليد عرفات، دار صادر بيروت ٨٥/١.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٦٤.

(٥) المهتدي بالله أمير المؤمنين أبو إسحاق محمد بن الواثق بن هارون ابن المعتصم بالله محمد بن الرشيد العباسي، وكانت دولته سنة ثمان وثلاثين، وكان أسمر رقيقًا مليح الصورة، ورعًا، تقيًا، متعبدًا، عادلاً، فارسًا شجاعًا قويًا في أمر الله خليفاً للإمارة ولكنه لم يجد ناصرًا ولا معينًا، وقيل إنه سرد الصوم مدة إمارته، وكان يقتنع بعض الليالي بخبز وخل وزيت وكان يتشبه بعمر بن عبدالعزيز، مات مقتولاً في يوم الاثنين لأربع عشرة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين.

العبر في أخبار من غبر، شمس الدين محمد بن أحمد عثمان الذهبي ١٧/٢، البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء ٢٤/١١، البدء والتاريخ، المطهر بن طاهر المقدسي ١٢٣/٦، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، عبدالرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبوالفرج، دار صادر – بيروت، ١٣٥٨هـ، الطبعة الأولى ٨٠/١٢.

(٦) ديوان البحتري، دار صادر بيروت ٣٩٢/٢.

أخيالَ علوةَ كيف زُرتَ وعندَنَا … أَرَقٌ يُشرِدُ بالخيالِ الزائرِ[١]

طيفٌ ألم لها ونحنُ بمهَمَةٍ … قفرٍ يشُقُ على المُلمِ الخاطِرِ

وقول أبي الطيب المتنبي:

يا مَنْ يَعِزّ علينا أن نُفارِقَهمُ … وِجدَانُنَا كل شيءٍ بعدكُم عَدمُ[٢]

إن كان سَركُمُ ما قال حاسِدُنَا … فما لجُرحٍ إذا أرضاكُمُ ألَمُ

ونوّه الخفاجي إلى " مما يجب أن يُعتمد في القافية أن لا تكون كلمةً إذا سُكتَ عليها كانت محتملةً لمعنى يقتضي خلافَ ما وُضع الشعرُ له، مثل أن يكون مديحًا فيقتضي بالسكوتُ عليها وقطعِ الكلام بها وجهًا من الذمِ أو معنىً يتطيَّر منه الممدوحُ "[٣].

ومثّل لذلك بما حكى عن الصاحب إسماعيل بن عبّاد[٤] أنه أنشد عضد الدولة[٥] قصيدة مدحه بها فقال فيها:

ضَمَمْتَ على أبناءِ تغْلِبَ تَاءَهَا … فَتَغلِبُ ماكرَّ الجَدِيدَانِ تُغْلَبُ[١]

---

(١) ديوان البحتري، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، ٢٨٢/٢.

(٢) ديوان المتنبي، دار مكتبة الهلال ٩٦/٢.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٦٧.

(٤) الصاحب بن عبّاد هو إسماعيل بن أبي الحسن عباد بن العبّاس بن عبّاد، يكنى أبا القاسم، ولقب بالصاحب، لأنه كان يصحب ابن العميد، أو لأنه صحب مؤيد الدولة البولهي منذ الصبا.

الفهرست، محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم ١٩٨/١، معجم الأدباء، أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي ٢٣٨/١، وفيات الأعيان، أبو العباس بن خلكان ٢٢٨/١.

(٥) عضد الدولة أبو شجاع بن ركن الدولة أبو علي الحسين بن بويه الديلمي صاحب ملك بغداد وغيرها، وهو أول من تسمى " شاهنشاه " ومعناه ملك الملوك امتدحه الشعراء بمدائح هائلة منهم المتنبي. حكم بلاد فارس وكرمان وأرجان، توفى سنة ٣٧٣هـ.

الكامل في التاريخ، محمد بن مكرم الشيباني ١٢٦/٧، العبر في أخبار من غبر، شمس الدين الذهبي ١٣/٣، البداية والنهاية، ابن كثير القرشي ٢٩٩/١١.

فتطيَّر عضد الدولة من مواجهته إياه بتُغلب، وقال: يكفي الله ذلك. ولو قال في وسط البيت " تُغْلَب " لم يكن في ذلك من القبح ما يكون في القافية، لأنها موضعُ قطعٍ وسكوتٍ ووقوفٍ على ما مضى واستئنافٍ لما يأتي "[٢].

وروي أن أبا الطيب لما أنشد قصيدته التي ودع بها عضد الدولة فقال فيها:

وأَيّـاً شِـئتِ يـا طُرقُـي فكُـوني أذاةً أو نجـــاةً أو هلاكًــا[٣]

قال عضد الدولة: يوشك أن يصاب في طريقه، وكانت منيته فيه، وقال أبو الفتح عثمان بن جني: جعل القافية هلاكًا فهلك ".

(١) ديوان الصاحب بن عبّاد، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة، بيروت–لبنان، دار القلم، بيروت ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م الطبعة الثانية، ص١٩١.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٦٧.

(٣) ديوان المتنبي، دار مكتبة الهلال ٢/٤١٠.

المعنى: كوني كيف شئت فإني سأسرع في قطعك فلا يدركني ما فيك من المخاوف.

انظر شرح الديوان، ناصف اليازجي ٢/٤١٠.

المبحث الأول

قضية النظــم

النظم عند ابن سنان هو المنظوم من الكلام،وكان اهتمامه بهذا المنظوم من حيث اللفظ والمعنى والصياغة، حيث إنه جعل جل جهوده في اللفظة المفردة التي جعلها أساسًا للفصاحة، وكان يرى أن فصاحة المنظوم من الكلام لا تتأتى إلا بفصاحة اللفظة المفردة.

ويرى أن اللفظة الصحيحة يُؤثِر موقعها في النظم فيقول:

" وليس لأحد أن يتخيل أن العذرَ في إيراد هذه الألفاظ وأمثالها تَعذُّرُ ما يقع موقعها من النظم، كما يظن بعضُ المتخلفين في هذه الصناعة، وذلك أنه ليس يجب على الإنسان أن يكون شاعرًا، ولا كاتبًا، ولا صاحب كلام يُؤثر، ولفظ يُروى، ولا يجب عليه لو وجب هذا أن ينظم تلك القصيدة التي وردت فيها هذه اللفظةُ ولا البيت من القصيدة، فكيف نَعذِره إذا أورد لفظةً قبيحةً جاريةً مجرى ما ذكرناه، وهو قادر على حذف البيت كلِّه وإطِّراح ذِكِر جميعه إن لم يكن قادرًا على تبديل كلمة منه "[١].

ومن هذا المنطلق أخذ الخفاجي يعرض حسن اللفظة وفصاحتها في ثمانية من الشروط والمقاييس، التي هي أساس فصاحة المنظوم من الكلام، كما يعرض لفصاحة الألفاظ المنظومة بعضها مع بعض، فيذكر تأليف اللفظة من حروف متباعدة المخارج.

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٩٤.

وأن تجد لها في السمع حسنا ومزية، وأيضًا أن لا تكون متوعرة وحشية، ولا ساقطة عامية، ولا مبتذلة، وأن تكون اللفظة جارية على العرف العربي الصحيح،، وألا تكون الكلمة قد عُبر بها عن أمر آخر يكره ذكره، وأن تكون معتدلة غير كثيرة الحروف، وأن تكون مصغرة في موضع عبّر بها فيه عن شيء لطيف أو خفي أو قليل "[١].

ونرى أن الجرجاني يقرر أن الكلمات قبل دخولها في التأليف لا يتصور أن يكون بينها تفاضل في الدلالة يقول: " وإن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظٌ مجردةٌ ولا من حيث هي كلم مفردة، وإن الألفاظ تثبتُ لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقلُ عليك وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأخدع في قول الشاعر[٢]:

تلَفّتُ نحو الحيِ حتى وجدتُني   وجِعتُ من الإصغاءِ ليتاً وأخدعا

وبيت البحتري:

وإني وإن بلَّغتني شرف الغِنى   وأعتَقْتَ من رِقِّ المطامع أخدَعي[٣]

فإن في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام:

يا دهرُ قوِّم من أخدعيك فقد   أضججتَ هذا الأنام من خُرقِكَ[١]

---

(١) تقدم كلام ابن سنان في هذه الشروط مستوفي بشواهده في ص٣٤ –٧٤

(٢) الشاعر هو الصمة بن عبدالله بن الطفيل بن قرة بن هبيرة بن عامر بن سلمة الخير بن قشير، ينتهي نسبه إلى نزار، شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية شعره قليل أغلبه في الغزل وغزله عذب رقيق .
انظر: المدهش،تأليف: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن هادي بن أحمد الجوزي، تحقيق: مروان قباني،دار الكتب العلمية بيروت_ لبنان ١٤٠٥_١٩٨٥م الطبعة الثانية ٢٣٩/١. الشعور بالعور، تأليف أبو الصفا صلاح الدين خليل بن عز الدين بن عبدالله الألبكي الصفدي تحقيق: الدكتور عبد الرازق حسين،دار عمار – عمان– الأردن ١٤٠٩ –١٩٨٨م الطبعة الأولى ٢٥٤/١
ورد البيت في الكتب السابقة،وورد في كتاب الأغاني أبو الفرج الأصبهاني ١١٧/٢،ديوان الحماسة االتبريزي٣٧٣/١.المثل الساير لإبن الأثير ١٠١/١.

(٣) ديوان البحتري ٢٦

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الرَّوح والخفة والإيناس والبهجة "[٢]

ونجد الخفاجي استبعد كلمة "أخدعيك" وأستقبحها لأن أبا تمام جعلها استعارة للدهر يقول: فإن أخدع الدهر من أقبح الاستعارات وأبعدها مما استعيرت له وليس بقبح ذلك خفاء ولا يعرف أبو تمام الوجه الذي لأجله جعل للدهر أخادع إلا سوء التوفيق في بعض المواضع"[٣]

وهذا ما قرره الآمدي حين قال: وإنما قبح الأخداع لما جاء به مستعاراً للدهر ولو جاء في غير هذا الموضع أو أتى به حقيقة ووضعه في موضعه ما قبح"[٤]

ونلاحظ أن الخفاجي لم يعرف النظم بمعناه الذي عرف به عند معاصره الجرجاني إلا أن هناك تقارباً في بعض وجهات نظر كل منهما فبينما قرر الجرجاني " أن النظم ليس إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله،ويعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنهما وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تُخل بشي منها"[٥]

وعرفه في موضع آخر: "النظم هو عبارةٌ عن توخي معاني النحو وأحكامه، وفروقه ووجوهه والعمل على قوانينه، وأصوله"[٦].

فنرى أن الخفاجي تصب جهوده أيضاً في بيان ما يقتضيه النحو في فصاحة الكلمة وجريانها على العرف العربي الصحيح فيقول:

---

(١) ديوان أبي تمام ٦٣٥/١

(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني ص٥٤

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي ص ١٧٩

(٤) الموازنة للأمدي ص٩٢

(٥) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني ص٧٧

(٦) المصدر نفسه ص ٣٢٨

" ويدخل في هذا القسم كل ما ينكره أهل اللغة، ويرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة،وقد يكون ذلك لأجل الكلمة بعينها غير عربية،...وقد تكون عربية إلا إنها قد عبر بها عن غير ما وضعت له في عرف اللغة، وقد تكون على جهة الحذف من الكلمة أو الزيادة،وقد يكون إيراد الكلمة على الوجه الشاذ القليل وهو أردأ اللغات لشذوذه"(١)

ويقول في موضع أخر: "فيما يحتاجه مؤلف الكلام إلى معرفته علم النحو وفيه يحتاج إلى معرفة إعراب ما يقع له التأليف حتى لا يذكر لفظة إلا موضوعة حيث وضعتها العرب من إعراب أو بناء"(٢)

لذا نرى جهود الخفاجي لا تقل عن جهود الجرجاني في قضية النظم، لكن الجرجاني أفرد كتابيه "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" لهذه القضية بينما الخفاجي تناول النظم من منظور فصاحة اللفظة المفردة وفصاحة المنظوم، ووضع شروطا لهذه الفصاحة، وبعد تنقيته لهذه الألفاظ واستحسانه لها أخذ ينادي بوضعها في موضعها وذلك ألا يكون في الكلام تقديم وتأخير حتى لا يؤدي إلى فساد معناه،وألا يكون الكلام مقلوباً فيفسد المعنى ويصرفه عن وجهه،ومن وضع الألفاظ موضعها حسن الإستعارة،وألا يكون الكلام شديد المداخلة أو المعاظلة، وألا يعبرعن المدح بالألفاظ المستعملة للذم ولا العكس،وألا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم والألفاظ التي يختص بها أهل المهن والعلوم"

ونظر الخفاجي أيضاً إلى صحة النظم عندما تحدث عن المعاني في الألفاظ المؤلفة، وجعل من الصحة صحة النسق والنظم يقول:

(١) سر الفصاحة ابن سنان الخفاجي ص ٩٦،٩٧،١٠٤،١٠٥

(٢) المصدر نفسه ص ٤٢٩

" هو أن يستمر في المعنى الواحد وإذا أراد أن يستأنف معنى آخر أحسن التخلص إليه حتى يكون متعلقًا بالأول وغير منقطع عنه ومن هذا الباب خروج الشعراء من النسيب إلى المدح. فإن المحدثين أجادوا التخلص حتى صار كلامهم في النسيب متعلقًا بكلامهم في المدح لا ينقطع، فأما العرب المتقدمون فلم يكونوا يسلكون هذه الطريقة وإنما أكثر خروجهم من النسيب إما منقطعًا وإما مبنيًا على وصف الإبل التي ساروا إلى الممدوح عليها، وما يستحسن من خروج المحدثين قول أبي عبادة البحتري يصف الروض[١]:

شقائِقُ يَحمِلنَ الندَى فكأنهُ — دُموعُ التصابي في خُدُودِ الخَرائدِ[٢]

كأن يدَ الفتحِ بن خاقانَ أقبَلتْ — تليهَا بتلك البارِقاتِ الرواعِدِ

ونجد هذا اللون عند المتأخرين يعرف بحسن التخلص وهو الخروج مما ابتدئ به الكلام من نسيب أو غيره إلى المقصود، مع رعاية الملاءمة بينهما كما أنه أراد بمقابلة الشعر بالنثر إبراز خصائص النظم فيقول: " وأما التفضيل بين النظم والنثر فالذي يصلح أن يقوله من يُفضل النظم أن الوزن يحسِن الشعر، ويحصل للكلام به من الرونق ما لا يكون للكلام المنثور، ويحدث عليه من الطرب في إمكان التلحين والغناء به ما لا يكون للكلام المنثور، ولهذه العلة ساغ حفظُه أكثر من حفظ المنثور، حتى لو اعتبرتَ أكثر الناس و لم تجد فيهم من لا يحفظ البيت أو القطعة إلا اليسير، ولولا ما انفرد به من الوزن الذي تميل إليه النفوس بالطبع لم يكن لذلك وجهٌ ولا سببٌ، ويقول أن الشعر يدخل في جميع الأغراض كالنسيب والمديح والذم والوصف والعتب، والنثر لا يدخل في جميع ذلك، فإن التشبيبَ لا يحسُن في غير الشعر، وكذلك غيره من الأغراض، وما صلح لجميع ضروب الكلام وصنوفه أفضلُ مما اقتصر على بعضه "[٣].

---

(١) البحتري سبقت ترجمته، ص ٥٢

(٢) ديوان البحتري، دار بيروت للطباعة والنشر ٦٤/١.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٢٨.

المبحث الثاني

التلاؤم بين اللفظ والمعنى

تحدث العلماء عن قضية اللفظ والمعنى وهي من أقدم القضايا التي عرض لها النقد الأدبي، يقول دكتور بدوي طبانة: " فقد نظر أول ما نظر إلى الألفاظ ودلالتها، وإلى التفاوت في القدرة على تركيبها وصياغتها، وإلى ما استطاعت أن تتحمله من التجارب وتتضمنه من المعاني والأفكار، وما امتازت به من ضروب التصوير والتخييل، إذ أن هذه هي الدعائم التي تقوم عليها الأعمال الأدبية وتتجه إليها عناية الناقد الأدبي "(١).

ومما لا شك فيه أن اللفظ والمعنى من عناصر العمل الأدبي، ومن الخصائص التي تؤخذ في الاعتبار عند تقديره والحكم عليه، وخير ما يمثل ذلك قول ابن رشيق: " اللفظُ جسمٌ، وروحُه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم، يضعف بضعفه، ويقوي بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصًا للشعر وهجنة عليه، ... وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ، كالذي يعرض للأجسام من المرض بمرض الأرواح، فإن اختل المعنى كله وفسد، بقي اللفظ مواتًا لا فائدة فيه "(٢).

ونجد الخفاجي قد استبعد من دائرة الألفاظ التي توصف بالفصاحة، تلك الألفاظ التي قد عبّر بها عن أمر آخر يكره ذكرُه، فإذا أُورِدَتْ وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت، وإن كملت فيها أسباب الفصاحة، ومثل لذلك بما ورد في بيت لعروة بن الورد(٣) العبسي وهو قوله:

قلتُ لقومٍ في الكنيفِ تَروحُوا   عشيةَ بِتنَا عِندَ ما وَانَ رُزَّحِ(١)

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب، دكتور أحمد بدوي، دار نهضة مصر، ص٣٦٣.

(٢) العمدة، ابن رشيق القيرواني، ص١١١.

(٣) سبقت ترجمته، ص ٦٤

فكلمة "الكنيف" أبعدها الخفاجي لأن أصلها الساتر، وأيضاً قيل للتُّرس كنيف، غير أنه قد استعمل في الآبار التي تستر الحدث، وشُهِرَ بها، لذلك كان الخفاجي ينادي بإبعاد تلك الألفاظ لقبحها في موقعها حتى إنه كان يكرهه في شعر عروة وإن ورد موردًا صحيحًا. وقول أبي تمّام[2]:

مُتفجـــرٌ نادمتُـــــهُ فكـــأنني للــــدَّلوِ أو للمِـــرزَمَينِ نَـــدِيمُ

وأيضاً قد أبعد كلمة"الدلو" وقال إنها أحد البروج، ولا أختاره لموافقته اسم الدلو المعروف، وقال موضحاً: "وأنت تجد بأقرب تأمل فَرقَ ما بين قولِ القائل لمن يمدحه: " أنت المِرزَمُ[3] جوادًا، والجُنةُ لمن تقصده الأيامُ عزًا، وبين قوله: " أنت الدَلوُ كرمًا، والكنيفُ لطريد الدهر مَنَعَةً "، والمعنيان صحيحان، وحُسنُ أحدهما وقُبحُ الآخر لا خفاء به ".

ومن ذلك أيضًا قول الشريف الرضي[4]:

أعـذِر علـيَّ بـأن أراكَ وقـدْ خلـت مــن جانِبَيــكَ مقاعِـدُ العُــوادِ[5]

واستقبح الخفاجي كلمة "مقاعد" يقول: "فإيراد كلمة " مقاعد "، في هذا البيت صحيح إلا أنه موافق لما يكره ذكره في مثل هذا الشأن، لا سيما وقد أضافه إلى من يحتمل إضافته إليهم، وهم العواد، ولو انفرد كان الأمر فيه سهلاً، فأما إضافته إلى ما ذكره ففيها قبحٌ لا خفاء به "[6].

---

(١) ديوان عروة بن الورد، دار الكتاب العربي، ص٢٦.
(٢) سبقت ترجمته، ص ١٧
(٣) ديوان أبي تمّام. والمرزمان: نجمات ينسب إليهما المطر. انظر شرح الديوان ٣٩١/٣.
(٤) الشريف الرضي سبقت ترجمته، ص ٦٥
(٥) ديوان الشريف الرضي منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى ٣٨٢/١.
(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١١٣.

ورأى الدكتور بدوي طبانة: " إن هذه الأمور كلها ترجع إلى دلالة اللفظ وأدائه لمعناه، ولا شيء فيها للفظ بذاته، أي من حيث هو حروف وأصوات، ومن الواضح أنه لن تتعدد قيمة اللفظ أو قيمة معناه وحده إلا بمقدار ما يوحي به من المعنى، ويحدد القيمة فيزيد في استحسانها أو استهجانها عند المتلقي معرض سياقها، الذي يتكشف بانضمام اللفظ إلى اللفظ، أو بعبارة أدق انضمام مضمونات الألفاظ بعضها إلى بعض، وهذا هو الذي دعى الناقد عبدالقاهر الجرجاني إلى الإصرار إلى فكرة " النظم " ورواية أن الكلمة المفردة لا قيمة لها قبل دخولها في التأليف، وقبل أن تصير إلى الصورة التي يفيد بها الكلام غرضًا من أغراضه... وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل إلى إفادتها إلا بانضمام كلمة إلى كلمة، وبناء لفظة على لفظة، وليس بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون إحداهما أدل على معناها الذي وضعت له من الأخرى ". ونرى أقدم رأي في هذا التفكير النقدي هو رأي الجاحظ الذي كان واضحًا وصريحًا إذا يقول: " المعاني مطروحة في الطريق وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتمييز اللفظ، وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من الصبغ وجنس من التصوير "[١].

ويذهب الخفاجي إلى أن المحمود من الكلام ما دل لفظه على معناه دلالة ظاهرة ولم يكن خافيًا مستغلقاً ".

وقال: " وقد قسموا دلالة الألفاظ على المعاني ثلاثة أقسام:

أحدها: المساواة وهو أن يكون المعنى مساويًا للفظ.

والثاني: التذييل، وهو أن يكون اللفظ زائدًا على المعنى وفاضلاً عنه.

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٠٨.

والثالث: الإشارة، وهو أن يكون المعنى زائدًا على اللفظ أي أنه لفظ موجز يدل على معنى طويل على وجه الإشارة واللمحة ... وأن المختار في الفصاحة، والدال على البلاغة هو أن يكون المعنى مساويًا للفظ، أو زائدًا عليه، وأعني بقولي زائدًا عليه أن يكون اللفظُ القليلُ يدل على المعنى الكثير دلالة واضحة ظاهرة، لا أن تكون الألفاظ بفرط إيجازها قد ألبست المعنى وأغمضته حتى يحتاج في استنباطه إلى طرف من التأمل ودقيق الفكر، فإن هذا عندي عيب في الكلام ونقص "[١].

ومن أمثلة المساواة قول زهير:

ومهما يكن عند امرئٍ من خليقةٍ ... ولو خالها تَخْفَي على الناسِ تُعلَمِ[٢]

وقوله:

إذا أنت لم تُقصِر عن الجهلِ والخَنَا ... أصَبتَ حليمًا أو أصابَكَ جاهلُ[٣]

أما التذييل فمثاله قول الشاعر[٤]:

فقــــدَمتِ الأديـــــمَ لراهِشــــيهِ ... وألفـــى قولَهَـــا كـــذِبًا ومَينَـــا[٥]

فالكذب والمين واحدٌ "[٦].

أما عن الإشارة فقال الخفاجي: " إنه لفظ موجز وهي دلالة اللفظ على المعنى وتصلح لمخاطبة الملوك والخلفاء ومن يقتضي حسن الأدب عنده التخفيف في خطابه، وتجنب الإطالة فيما يتكلف سماعه "[٧].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٠٩.

(٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، دار صادر بيروت، لبنان، ص٨٨.

(٣) ديوان زهير، ص٨٧.

(٤) الشاعر عدي بن زيد سبقت ترجمته، ص ١٥٨

(٥) ديوان عدي بن زيد الأنصاري، تحقيق محمد جبار، ص١١٢، ٩٨٣.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٢٨.

(٧) المصدر نفسه، ص٣٠٩.

أما قضية التلاؤم بين اللفظ والمعنى من القضايا النقدية التي تنبه إليها العلماء، حيث نجد أكثر نقاد القرن الخامس يميلون إلى التوفيق بين اللفظ والمعنى، ومن المعروف بداهة أن هناك ارتباطًا بين الألفاظ والمعاني، فرب لفظ في المدح لا يصلح وضعه في الهجاء وعكسه صحيح، أيضًا وكذلك ما كان في الجد والهزل، وفي الرثاء والتهاني وغير ذلك، ونجد الخفاجي قد نوّه بهذه القضية ونادى بالتلاؤم بين الألفاظ والمعاني وضرورة ترابطهما لبناء العمل الأدبي فقال: " إن الكلام غيرُ مقصود في نفسه، وإنما احتيج إليه ليعبر الناسُ عن أغراضهم ويُفهموا المعاني التي في نفوسهم، فإذا كانت الألفاظ غير دالة على المعاني، ولا موضحة لها فقد بُويِنَ الغرضُ في أصل الكلام، وكان ذلك بمنزلة من يضع سيفًا للقطع، ويجعل حدّه كليلاً، ويعمل وعاءً لماءٍ يريد أن يحرزه فيقصد أن يجعل فيه خروقًا تُذهب بما يحفظ فيه "(١).

ويقول في موضع آخر: " أن السجع محمودٌ إذا وقع سهلاً ميسرًا بغير كلفة ولا مشقة، وبحيث يظهر أنه لم يُقصد في نفسه، ولا أحضره إلا صدقُ معناه دون موافقة لفظه، ولا يكون الكلام الذي قبله إنما تُمُحل لأجله وورد ليصير وصله إليه "(٢).

وذهب ابن سنان إلى أن من مظاهر الملاءمة بين الألفاظ والمعاني: " ألا يُعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذم ولا في الذم بالألفاظ المعروفة للمدح، بل يستعمل في جميع الأغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض، في موضع الجد ألفاظه وفي موضع الهزل ألفاظه "(٣).

وضرب ابن سنان الأمثلة على ذلك من أقوال الشعراء فمن ذلك قول أبي تمّام:

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٣١.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٢٥٣.

مــا زال يهــذي بالمكــارِمِ دائبًــا ... حتـــى ظَنَنـــا أنـــه محمُـــومُ[(١)]

وقوله:

وتُثْفَــى الحــربُ منــهُ حــينَ تَغلــي ... مَرَاجِلُهـــا بشـــيطانٍ رجـــيمِ[(٢)]

وقوله:

وَلـيَّ، ولـم يَظلِم، وهل ظَلَم أمـرُؤٌ ... حــثَّ النجــاءَ وخَلْفَــهُ التِّنّــين[(٣)]

ويقول الحسين بن الضحّاك[(٤)]:

كـــذا مَـــنْ يشـــربُ الـــرَّاحَ ... مــع التِنِــينِ فـــي الصـــيفِ[(٥)]

وقول أبي نواس[(٦)]:

جـــادَ بـــالأموالِ حتـــى ... حَسِـــبُوهُ النـــاس حُمْقَـــا[(٧)]

وقول العنبري[(٨)]:

مـا كـان يُعطِـي مِثلَهَـا فـي مِثِلِـهِ ... إلا كــريمُ الخِــيمِ أو مجنُــونُ[(١)]

---

(١) ديوان أبي تمّام ٢٩١/٣.

(٢) المصدر نفسه ١٦٢/٣.

(٣) المصدر نفسه ٣١٨/٣.

(٤) الحسين بن الضحاك بن ياسر الباهلي، يكنى أبا علي، ويلقب بالخليع وبالأشقر ولد ونشأ في البصرة، وتوفي ببغداد، كان من خاصة الأمين حتى قتل ثم فر من البصرة خوفًا من المأمون عاد إلى بغداد في عصر المعتصم، ت ٢٥٠هـ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٥٤/٨، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٦٤٧/٧، معجم الأدباء، ياقوت الحموي ٥/١٠ سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ١٩١/١٢.

(٥) انظر البيت في الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني بغير نسبه ٢٦٢/٢، أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم، الصولي ٨/١.

(٦) أبو نواس سبقت ترجمته، ص ٩٨

(٧) ديوان أبي نواس، ص٤٩٢.

(٨) العنبري هو عبيد بن أيوب العنبري، قيل: أبو المطرز، وقيل: أبو المطراد، شاعر إسلامي، وكان لصًا، فطلبه السلطان وأباح دمه له أشعار كثيرة الحيوان، الجاحظ ٤٨٢/٤.

وقول أبي تمّام:

يـــا أبـــا جعفَـــرِ جُعِلـــتُ فـــدَاكَا　　　فاقَ حُسنَ الوُجُوهِ حُسنُ قَفَاكا[٢]

قــال الخفــاجي: " لأن " يهــذي "، و " المحمــوم "، و " الشــيطان الــرجيم " والتنــين " و" الحمق "، و " الجنون "، وذكر " القفا " من الألفاظ التي تستعمل في الذم وليست من ألفاظ المدح "[٣].

ونخلص من حديث الخفاجي عن التلاؤم بين اللفظ والمعنى إلى أنه لا يتأتى إلا بالعناية بالألفاظ والمعاني حيث إنه وضع في قائمة الفصاحة والبلاغة تلك الألفاظ التي توضع في مواضعها حتى تأتي اللفظة بجانب أختها منسجمة متلاحمة، الشيء الذي يزيد المعنى وضوحًا وكشفًا وحسنًا.

---

(١) جاء منسوبًا للعنبري في كتاب الوساطة، للجرجاني، ص٢٥٩، والصناعتين، العسكري ٣٦٧.

(٢) ديوان أبي تمّام ٤/٢٤٩.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣٨.

المبحث الثالث

الـوزن

يقول الدكتور بدوي طبانة: "أدرك نقاد العرب أن على الشاعر إذا أراد بناء قصيدة ان يفكر فيالمعنى الذي يريده وأن يعد له الوزن الذي يسلس له القول عليه، وينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمرارًا، ومع أي القوافي يكون أجمل اطرادًا فيركب مركبًا لا يخشى انقطاعه عليه "(١).

وقال ابن رشيق: " قرروا أن الوزن أعظم أركان حد الشعر "(٢). ويرى نقاد العرب أن الوزن يصبح مثاليًا إذا كان معنى البيت تامًا مستوفى، لم يضطر الشاعر بسبب الوزن إلى نقصه أو الزيادة فيه أو قلبه، فإذا لم يسع وزن البيت المعنى كاملاً، واضطر الشاعر إلى إكمال المعنى في بيت آخر كان ذلك تضمينًا معيبًا عند النقاد، وإذا اضطره الوزن إلى أن يحذف من اللفظ ما به يتم المعنى عده النقاد إخلالاً معيبًا، وذلك ما أشار إليه ابن سنان ومثل له بقول عبيد الله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود(٣).

---

(١) أسس النقد الأدبي عند العرب، دكتور بدوي طبانة مكتبة نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٠م، الطبعة الثانية ص٢٢٩.

(٢) العمدة، ابن رشيق القيرواني، ص١٢٠.

(٣) عبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي، يكنى أبا عبدالله، كان أحد وجوه الفقهاء السبعة من أهل المدينة، وكان ضريرًا، وقد روى عن جماعة من وجوه الصحابة، وكان عبدالله بن عباس رضي الله عنهما يقدمه ويؤثره كان عالمًا ناسكًا، فقيهًا ثقة، كثير الحديث واسع العلم بالشعر، ت٩٩ أو ١٠٢هـ. سير أعلام النبلاء، ابن قايماز الذهبي ٤٧٥/٤، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني، ١٣٩/٩، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن أبي بكر بن خلكان ١١٥/٣.

أعـــاذلَ عاجـــلُ مـــا أَشـــتهي أحـــبُ مـــن الأكثَـــرِ الرائِـــثِ(١)

لأنه أراد: عاجل ما اشتهى مع القلة أحب إلى من الأكثر البطيء فترك مع القلة وبه تمام المعنى "(٢).

وقول عروة بن الورد(٣):

عجبتُ لهم إذ يقتُلونَ نُفُوسَهُم ومَقتلُهُم عندَ الوغَى كانَ أعذرَا(٤)

قال الخفاجي: " كأنه أراد أن يقول عجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم في السلم، وقتلهم في الحرب أعذر فترك في السلم وبه يتم المعنى "(٥)، كما جعل الخفاجي من وضع الألفاظ موضعها ألا تقع الكلمة حشوًا وأصل الحشو أن يكون المقصد بها إصلاح الوزن أو تناسب القوافي وحرف الروي، إن كان الكلام منظومًا، وقصد السجع وتأليف الفصول إن كان الكلام منثورًا من غير معنى تفيده أكثر من ذلك "(٦).

ومثال كلمة التي تقع حشوًا وتفيد فائدة مختارقول أبي الطيب(٧):

وتحتقرُ الدُنيا احتقارَ مُجربٍ يرى كل ما فيها وحاشاكَ فانيا(٨)

---

(١) نُسب البيت إلى عبدالله بن عتبة بن مسعود في الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٣٩/٩، وجاء بنسبته في نقد الشعر، ابن قتيبة ص٢١٦.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٢٣.

(٣) عروة بن الورد سبقت ترجمته ص ٦٤

(٤) ديوان عروة بن الورد، دار الكتاب العربي، ص٥٨.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٢٣.

(٦) المصدر نفسه، ص٢١٢.

(٧) المتنبي سبقت ترجمته ص ٣٩

(٨) ديوان أبي الطيب المتنبي ٢٦/١.

لأن " حاشاك " هاهنا لفظة لم تدخل إلا لكمال الوزن لأنك إذا قلت احتقار مجرب يرى كل ما فيها فانيًا كان كلامًا صحيحًا مستقيمًا فقد أفادت مع إصلاح الوزن دعاء حسنًا للممدوح في موضعه "(١).

وكذلك قول أبي الطيب:

نَهبتَ من الأعمارِ ما لو حَويتَهُ … لَهُنِّئَتِ الدنيا بأَنكَ خالِدُ(٢)

لأن قوله " لهنئت الدنيا " بمنزلة الحشو، إذ كان المعنى يتم دونه، ولو استوى أن يقول: نهبتَ من الأعمار ما لم حويته لخلدت في الدنيا، لكان المعنى مستقيمًا، لكنه لما احتاج إلى ألفاظ يصح بها الوزن، جاء بقوله " لهنئت الدنيا " فأتى بزيادة من المدح وفضلةٍ من التقريظ والوصف لا خفاء بحسن موقعها، فهذا وما أشبهه هو الحشو المحمود المختار "(٣).

وذكر الخفاجي الحشو الذي يقع ولا تعرض في ذكره فائدة إلا ليصح الوزن وهو عيب فاحش في هذه الصناعة يقول: " وما أكثر أن تُستعمل أمسى، وأصبح، وأخواتها، في هذا الموضع من الحشو، ويجب أن يُعتبر ذلك بأن تُنظَر الفائدةُ فيه، فإن كان الأمرُ الذي ذُكر أنه " أصبح " فيه لم يكن " أمسى " عليه فالفائدة حاصلة، وإن كان الأمرُ بخلاف ذلك فهو حشو لا يُحتاج إليه، فاعتبار الفائدة فيه هو الأصل الذي يُرجع إليه، ويُعوَّل على النظر من جهته، ومثال ذلك أن يقال: " أصبحنا مغيرين على بني فلانٍ، فإن موقع أصبحنا في هذا الموضع موقعٌ صحيح، لأنهم لم يكونوا أغاروا عليهم في وقت المساء، ومثل ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ **فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ** ﴾(٤) لأن الأمر لم يطرقهم إلا ليلاً، فأما لو قال قائل: أصبح العسلُ حلوًا لكان قوله" أصبح" حشوًا لأنه قد أمسى كذلك "(٥).

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٣.

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي ١/٢٧٧.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢١٤.

(٤) سورة هود، الآية (٦٧، ٩٤).

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٢٢.

وعدّ نقّاد العرب ومنهم الخفاجي أن من قبيح الوزن، الإفراط في استعمال الزحاف وبناء ذلك على القصيدة كلها وذلك ما ذكره الخفاجي قائلاً:

" فإن زاحف بعض الأبيات أو جعل الشعر كله مزاحفًا حتى مال إلى الانكسار، وخرج من باب الشعر في الذوق كان قبيحًا ناقص الطلاوة كقول الأسود بن يعفر [١]:

إنــا ذَمَمنَــا علـــى مــا خَيَّلَــتْ　　　سَعدَ بْنَ زيدٍ وَعَمرًا من تَميمْ [٢]

وَضَــبةَ المُشــتَري العــارَ بنــا　　　وذاكَ عــمٌ بنـــا غيـــرُ رحـــيمْ

ونحــــنُ قـــومٌ لنــــا رمــــاحٌ　　　وثـــروةٌ مـــن مـــوالٍ وصـــميمْ

فإن هذا غير مستحسن، لأنه خارج عن أسلوب المنظوم والمنثور، وإن كان في العَروضِ مستقيمًا "[٣].

(١) هو الأسود بن يعفر بن عبد الأسود بن جندل بن نهشل ... يكنى أبا الجراح، أو أبا نهشل، وكان أعمى، وهو شاعر متقدم، فصيح من شعراء الجاهلية، وكان ينادم النعمان بن المنذر جعله ابن سلام من الطبقة الخامسة.
طبقات ابن سلام ١٤٣/١، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٥/١٣، خزانة الأدب، ابن حجة الحموي ٤٠٥/١.

(٢) نسبت الأبيات إلى ابن يعفر في سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٨٢، نقد الشعر، قدامة بن جعفر، ص٣٣ مفتاح العلوم. السكاكي، ص٢٢٨.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٨٣.

المبحث الرابع

القافيــة

القافيـة هـي شـريكة الـوزن فـي الاختصـاص بالشـعر، ولا يسـمى شـعرًا حتـى يكـون لـه وزن وقافيـة، وقد أولاهـا النقّاد اهتمامًا كبيرًا، وعقدوا لهـا الأبـواب لدراسـتها ومعرفـة جودتهـا وأسـباب ضعفها، وألوان عيوبها.

ونـرى أن الخفـاجي قد أولـى خصـائص الأسـلوب الشـعري اهتمامًـا كبيـرًا حيـث تحـدث عـن القافية ونوّه بضرورة كونها متمكنة في مكانها في البيت من غير قلق ولا اضطراب وقال: " فأما القوافي في الشعر فإنها تجري مجرى السجع وأن المختار منها ما كان متمكنًا يدل الكلام عليه، وإذا أنشد صدر البيت عرفت قافيته كما قال ابن نباتة[(١)] في وصف قصيدته:

خُذهَا إذا أُنشِدتْ للقومِ من طربٍ　　　صُدُورُها عُلمَتْ منها قوَافِيهَا[(٢)]

ونلاحظ من أبـرز مـا عنـي بـه الخفـاجي بالناحيـة الفنيـة فـي الأسـلوب الشـعري حديثـه عـن عيـوب القافيـة يقـول: " ومـن تناسـب القـوافي: تجنـب الإقـواء فيهـا وهـو اخـتلاف إعرابهـا فيكـون بعضـها مثلاً مرفوعًا وبعضـها مجرورًا، وهذا يوجد فـي أشعار العرب. وقد روى أن النابغة كان يقوي حتى دخل المدينة وسمع أهلها يغنون بقوله في قصيدته التي أولها:

أمِـنَ آلِ ميـةَ رائِـحٌ أو مُغتـدِي　　　عَجـلانَ ذا زادٍ وغيـرَ مُـزوَدِ

زعَـمَ البـوارحُ أن رحلتَنَـا غـدًا　　　وبـذاك خبرنَـا الغرابُ الأسـودُ[(٣)]

---

(١) نصر بن نباتة سبقت ترجمته، ص ١٦

(٢) ديوان نصر بن نباتة السعدي ٤٨١/١.

(٣) ديوان النابغة الذبياني، ص٨٩.

ففطن للإقواء وتركه "[١].

ومن عيوب القافية تحدث ابن سنان عن الإيطاء فقال: " الإيطاءُ في القوافي عيبٌ، وهو أن تتفق القافيتان في قصيدة واحدة وأمثال ذلك كثيرة، فأما إن كان معنى القافيتين مختلفًا، ولفظهما واحدًا فذلك ليس بعيب، مثل أن تأتي العينُ ويراد بها الجارحِةُ، والعينُ ويراد بها الذهب، وإذا بعد ما بين القافيتين المتكررتين في القصيدة كان أصلح، وإن كان الإيطاءُ عيبًا على كل حال "[٢].

وقال أيضًا " السنادُ أيضًا عيبٌ، وهو اختلافٌ في الحركات قبل حرف الروي، كما قال عدي بن زيد "[٣].

ففاجأهَا وقد لاقتْ جُمُوعًا　　على أبوابِ حصنٍ مُصلتِينَا[٤]

فقدَمتِ الأديم لراهِشَيهِ　　وألفَى قولَهَا كَذبًا وَمَينا

فالميم من مينا مفتوحة والتاء من مصلتينا مكسورة "[٥].

وتحدث أيضاً أنّ من عيوب القوافي التضمين " وهو ألا تستقلَّ الكلمة التي هي القافية بالمعنى حتى تكون موصولةً بما في أول البيت الثاني، وذلك مثل قول النابغة الذبياني "[٦].

وهُم ورَدُوا الجِفارَ على تميمٍ　　وهم أصحابُ يومِ عُكاظَ إني[٧]

شهدتُ لهم مواطنَ صادِقاتٍ　　أتيتُهُمُ بنُصحِ الوُدِّ مِني

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٢.

(٣) عدي بن زيد الأنصاري، سبقت ترجمته، ص ١٥٨

(٤) ديوان عدي بن زيد الأنصاري، تحقيق محمد جبار، ص١١٢، ١٨٣.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ٢٧٣.

(٦) النابغة سبقت ترجمته، ص ٨٩

(٧) ديوان النابغة الذبياني، ص١٢٧.

ومن عيوب القوافي في تركِ التناسب، أن يكون الرويُّ على حرفين متقاربين، كما قال بعض العرب:

بُنَـــيَّ إن البـــرَ شـــيٌ هـــينُ   المنطِـــقُ اللـــيِّنُ والطُعَـــيِّمُ[١]

وهذا من الشاذ النادر الذي لا يلتفت إليه "[٢].

وعني الخفاجي أيضًا بالجانب الدلالي في القافية، وذلك في قوله: " ومما يجب أن يُعتمد في القافية ألا تكون كلمةً إذا سُكتَ عليها كانت محتملةً لمعنى يقتضي خلافَ ما وُضع الشعرُ له، مثل أن يكون مديحًا فتقتضي بالسكوتُ عليها وقطعِ الكلام بها وجهًا من الذمِ أو معنىً يتَطيَّر منه الممدوحُ، أو ما يجري هذا المجرى، كما حُكى أن الصاحب بن عبّاد[٣] أنشد عضد الدولة[٤] قصيدةً مدحه فيها فقال فيها:

ضَـمَمتَ علـى أَبنـاءِ تغلِـبَ تَاءَهَـا   فَتَغلِـبُ مـاكَرَّ الجدِيـدَانِ تُغلَـبُ[٥]

فتطيَّر عضد الدولة من مواجهته إياه بتَ ُغلب، وقال: يكفي الله ذلك، ولو قال في وسط البيت " تُغلَب " و " تَغلب " لم يكن في ذلك من القبح ما يكون في القافية، لأنها موضعُ قطعٍ وسكوتٍ ووقوفٍ على ما مضى واستئنافٍ لما يأتي "[٦].

وبجهود الخفاجي بالنواحي الفنية في الشعر المقفى نجده قد عالج قضية القافية وأخضعها للدراسة النقدية بخصائص الشعر.

---

(١) جاء البيت دون نسبه لأحد.
(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٧٥.
(٣) سبقت ترجمته، ص ٢١٩
(٤) سبقت ترجمته، ص ٢١٩
(٥) ديوان الصاحب بن عبّاد، ص١٩١.
(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٦٧.

المبحث الأول

صحة الأوصاف في الأغراض

تحدّث ابن سنان عن جودة الشعر وأشار إلى الصحة في المعاني، ومنها صحة الأوصاف في الأغراض قائلاً: " ومن الصحة صحةُ الأوصاف في الأغراض، وهو أن يُمدح الإنسانُ بما يليق به، ولا ينفر عنه، فيُمدح الخليفةُ بتأييد الدين وتقوية أمره، ومحبة الناس وطاعتهم، والتقي والورع، والرحمة والرأفة، وإفاضته العدل، وشرف الحسب، وحُسن السياسة والتدبير والاضطلاع بالأمور، والحِلم والعفو، والعلم وحفظ الشرع، والجمال والبهاء، والهيبة والشجاعة، وكرم الأخلاق ولينها، وما يجري هذا المجرى...

ويُمدح الوزير والكاتب بالعقل والعلم والحلم، وسداد الرأي وحُسن التدبير، والبلاغة، وتثمير الأموال، والعدل والكرم، وما يلحق بهذا، ويُمدح الأمير وقائدُ الجيش بالشجاعة والمعرفة بالحرب، وحُسن النقيبة والظفر، والصبر وسداد التدبير، وما أشبه ذلك.

وعلى هذا السبيل يجري الأمر في النسيب، فيُذكر فيه صدقُ الهوى والمحبة، وشدةُ الوجد والصبابة، وكتمان الأسرار، ومخالفة العُزَّال، وما يتفرع عن ذلك ويلحقُ به، وكذلك في كل غرض من الأغراض الشعرية، من هجاءٍ وفخرٍ وعتابٍ ووصفٍ وغير ذلك، حتى يكون كلُ شيء موضوعًا في المكان الذي يليق به "(١).

لقد وضع ابن سنان بهذا التحليل الدقيق، والاستقرار التام لمواضع الخطاب ميزانًا نقديًا دقيقًا، لحمته وسداه هو مراعاة مكان الخطاب شعرًا كان أو نثرًا، ونبّه إلى أثر زمان الخطاب، إذ أن الخطاب يتغير ويتبدل بحسب زمان المخاطب، وهذا ما وضحه الخفاجي عند كلامه عن صحة الأغراض في باب النثر فقال:

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٨١.

"فأما النثر فيجري على هذا المنهاج، ويُحتاجُ فيه إلى معرفة المواضعات في الخطاب والاصطلاحات، فإن للكتب السلطانية من الطريقة ما لا يُستعمل في الإخوانية، وللتوقيعات من الأساليب ما لا يحسُن في التقاليد، وهذا الباب أعني المواضعة والاصطلاح في الخطاب يتغير بحسب تغيُّر الأزمنة والدول، فإن العادة القديمة قد هُجرت ورُفضت، واستجد الناسُ عادةً بعد عادةٍ، حتى إن الذي يُستعمل اليوم في الكتب غيرُ ما كان يُستعمل في أيام أبي إسحاق الصحابي مع قرب زمانه منا، وإذا كان الأمر على هذا جاريًا فليس يصح لنا أن نضع رُسومًا نوجبُ اقتفاءها، لأنا نحن في هذا الزمان قد غيَّرنا الرسم المتقدم لمن قبلنا، وكذلك ربما جرى الأمرُ فيما بعدنا، لكن أصول الأغراض في الأوصاف والمعاني مما لا يتبدل ولا يتغير، فليكن الاهتمامُ بها واقعًا، والاجتهادُ، في جريها على قانون السداد والصواب حاصلاً "[١].

وأورد ابن سنان أمثلة لم تراع فيها تلك المقاييس النقدية التي وضعها ومن ذلك قول أبي عبادة في مديحه للخليفة[٢] الذي عيب عليه:

لا العَـــذْلُ يردَعُـــهُ ولا التعنِيـــفُ ... عـــــن كـــــرمٍ يَصُـــــدُهْ[٣]

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٨٢.

(٢) الخليفة المعتز بالله أبو عبدالله محمد بن المتوكل على الله جعفر بن المعتصم محمد ابن الرشيد العباس، قيل اسمه الزبير، وكان طويلاً أبيض أسود الشعر كثيفه حسن الوجه والعينين والجسم ضيق الجبهة أحمر الوجنتين، ولد بسامراء وبقي منذ بويع أربعة سنين وذلك يوم الخميس لسبع خلون من المحرم سنة ٢٥هـ قتل في ثالث شعبان سنة خمس وخمسين ومأتين مدة خلافته سنتان وأحد عشر شهرًا وعمره اثنان وعشرون سنة.

سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، عبد الملك بن حسين بن عبدالملك الشافعي العاصمي المكي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م ٤/٣ تح.

تاريخ اليعقوبي، ابن واضح اليعقوبي ٥٠٠/٢، العبر في أخبار من غبر ابن عثمان الذهبي ١٥/٥ المنتظم، أبو الفرج ابن الجوزي ٤٣/١٢.

(٣) ديوان البحتري ٦١٤/١.

وقيل: من هو الذي يجسرُ على عذل الخليفة وتعنيفه، وليس هذا المدحُ مما يصلح للملوك والأمراء فضلاً عن الأئمة والخلفاء "[١].

وعيب أبو ذُؤَيب الهذلي في قوله يصف الفرس:

قَصَرَ الصبُوحَ[٢] لها فَشُرِّج لحمُهَا[٣]   بالنّيّ[٤] فهي تثوخُ[٥] فِيها الإصبَعُ[٦]

وقيل: وصف لحمها باللين وإنما يُحمدُ صلابةُ لحم الفرس[٧].

وعيب قول امرئ القيس:

لها ذَنَبٌ مثلُ ذيلِ العرُوسِ   تسُدُ به فَرجَها من دُبُرْ[٨]

وقيل: المحمود من ذنب الفرس أن يكون طويلاً، ولا ينال الأرض "[٩].

ومن ذلك قول كثير عزة:

أُريدُ لأنسي ذكرَهَا فكأنما   تَمَثَّلُ لي ليلى بِكُلِ سبيلِ[١٠]

وقيل: لِمَ أراد أن ينسى ذِكرها حتى تتمثل له "[١١].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٨٢.

(٢) قصره: حبسه.

(٣) فسرج لحمها: أي صار ضربين شحمًا ولحمًا والسريح كل شيء مختلط.

(٤) النِي: الشحم.

(٥) تشوخ وتسوخ بمعنى واحد ساخت رجله في الأرض شاخت، والمعنى: أن عليها من الشحم واللحم ما لو غمرت فيه إصبعك لم تبلغ العظم أي لم تجد حسه، انظر المعاني الكبير، ابن قتيبة الدينوري ٢٠/١.

(٦) شرح أشعار الهذليين ٣٣/١.

(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٨٣.

(٨) ديوان امرئ القيس، ص٢٣.

(٩) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٨٣.

(١٠) ديوان كثير عزة، ص١٠٨.

(١١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٨٦.

وقول ذي الرمة[١] في الناقة:

تُصغي إذا شدَّهَا بالكُورِ[٢] جانِحةً[٣] حتى إذا ما استوى في عَزرِهَا[٤] تثِبُ[٥]

وقيل: إذا كانت كما وصف رَمَتِ الراكب قبل أن يستوي على ظَهرها.

وعيب على أبي العتاهية[٦] قولُه:

إنــي أعــوذُ مِــنَ التــي شَــغَفت منــي الفُــؤادَ بآيــةِ الكرسِــي[٧]

وقيل: إنما يستعاذُ بآية الكرسي من الشياطين.

وقال ابن سنان بعد أن أورد أمثلةً كثيرةً في هذا الباب:

" وأمثال هذا أكثر من أن تحصى مما وقع فيه فسادُ الأغراض والصفات "[٨].

وفي معرض صحة الأغراض نجد أن ابن سنان ينكر ما ذهب إليه قدامة بن جعفر من أن المدح بالحسن والجمال، والذم بالقبح والدمامة ليس بمدح على الحقيقة ولا ذم على الصحة فيقول:

" وقد كان أبو الفرج قدامةُ بنُ جعفر الكاتب يذهب إلى أن المدح بالحسن والجمال، والذم بالقبح والدمامة ليس يمدح على الحقيقة، ولا ذم على الصحة، ويخطئُ كل من يمدح بهذا، ويذمُ بذاك.

---

(١) ذو الرمة سبقت ترجمته، ص ١٧٤

(٢) عُصفي: صفا الرجل مال على أحد شقيه أو انحنى. الكور: للرحل، المحكم والمحيط الأعظم، ١٣٥/٧.

(٣) جانحة: مائلة: المصدر السابق ٢٧٦/١.

(٤) عذرها: العزر: هو ركاب من جلد وهو ركاب الرجل، المصدر السابق ٤٤١/٥.

(٥) تثبُ: أي تنفز: لسان العرب، ابن منظور الأفريقي ٣٠٥/٥.

(٦) أبو العتاهية سبقت ترجمته، ص ١٢١

(٧) ديوان أبي العتاهية، ص٥٧٠.

(٨) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٩٦.

ويستدلُ بإنكار عبد الملك بن مروان[(١)] على عبيد الله بن قيس الرقيات[(٢)] قوله له:

يَـــأتَلِقُ التـــاجُ فـــوقَ مَفرِقِـــهِ　　　علـــى جبـــينٍ كأنـــهُ الـــذهبُ[(٣)]

وقوله له: تقول فيَّ هذا وتقول لمصعبٍ[(٤)].

إنمــا مُصــعبٌ شــهابٌ مــن اللــ　　　ـهِ تَجلَّت عَنْ وجهِهِ الظَّلمَاءُ[(٥)]

أوضح الخفاجي رأيه مبينًا قصور ما ذهب إليه قدامة ابن جعفر قائلاً: " فأما إنكارُ عبد الملك بن مروان على ابن قيس الرقيات مدحه له بالتاج، فإنما أنكره لأن التيجان كانت من ذي ملوك العجم، ولم يكن خلفاء العرب يعرفونها، فقال له تمدحني كما تُمدح ملوك الأعاجم، وتمدح مصعبًا كما تُمدح الخلفاء، والأمر على ما قال عبد الملك، لأن مدح الخليفة بأنه شهابٌ من الله أبلغُ من مدحه باعتدال التاج فوق مفرقه "[(٦)].

---

(١) سبقت ترجمته، ص ٥٠

(٢) هو عبدالله بن قيس بن شريح، أحد بني عمرو بن عامر بن لؤي، يكنى أبا هاشم وأبا هاشم، ويعرف بابن قيس الرقيات، وذلك لأنه تزوج، أو شبب بنسوة كل واحدة منهن تسمى رقية، منقطعًا إلى آل الزبير، فمدح مصعب بن الزبير وهجا عبد الملك بن مروان.
طبقات ابن سلام الجمحي ٦٤٧/٢، خزانة الأدب، ابن حجة الحموي ٢٧٨/٧، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٧٣/٥.

(٣) ديوان عبدالله بن قيس الرقيات، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت، ص٤.

(٤) مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزي بن قصي بن كلاب أبو عبدالله القرشي ويقال له أبو عيسى أيضًا الأسدي، وأمه كرمات بنت أنيف الكلبية، كان من أحسن الناس وجهًا وأشجعهم قلبًا وأسخاهم كلفًا، فكانت عطاياه للقوي والضعيف والوضيع والشريف. قتل في جمادي الآخرة سنة إحدى وسبعين وكان قد وليَّ العراق خمس سنين.
البداية والنهاية، ابن كثير القرشي ٣١٧/٨، الكامل في التاريخ، ابن مكرم الشيباني ٢٠٤/٤ المنتظم في تاريخ الملوك، والأمم، أبو الفرج عبدالله بن علي بن محمد الجوزي ١١٦/٦.

(٥) ديوان عبدالله بن قيس الرقيات، ص٩١.

(٦) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٩٨.

ومما يؤيد ما ذهب إليه ابن سنان ما قاله الآمدي في مناقشة قدامة بن جعفر في هذا المذهب حيث قال: " إنه خالف فيه مذاهب الأمم كلها عربيتها وأعجميّها، لأن الوجه الجميل يزيدُ في الهيبة، ويُتيمن به، ويدلُ على الخِصال المحمودة، وهذا الذي ذكره أبو القاسم صحيحٌ، ولو لم يكن في ذلك إلا ما قد جُبلت عليه النفوس من الميل إلى الوجوه الحسان لكَفَى وأغنى، فإن كان قدامة يعتقد أن ذاك ليس بفضيلة لما كان الإنسانُ قد خُلق عليه، فهذا حكم جميع الفضائل النفسانية، فإن الكريم قد خُلِقَ كريمًا، والشجاع شجاعًا، والعاقلَ عاقلاً، وكما لا يَقدرُ القبيحُ الوجه على أن يستبدل صورةً غير صورته، كذلك لا يقدر الجاهلُ على أن يستفيد عقلاً فوق عقله، ويلزم قدامة أن لا يُجيز المدح بشرف النفس والنسب وكدم الأصل، لأن ذلك أيضًا يجري مجرى الصورة، ولا صنيع للممدوح في شيءٍ منهما، والأمر في هذا ظاهرٌ "[١].

لقد أولى ابن سنان صحة الأوصاف عناية كبيرة ومثل لها بأكثر الأمثلة في كتابه وذكرها في موضع آخر حيث قال: " ومن وضع الألفاظ موضعها أن لا يُعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذم، ولا في الذم بالألفاظ المعروفة للمدح، بل يستعمل في جميع الأغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض، في موضع الجد ألفاظه، وفي موضع الهذل ألفاظه"[٢]

(١) المصدر نفسه، ص٣٩٧.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٣٥.

المبحث الثاني

اصطلاحات الفنون

لابن سنان رأي نقدي طريف، مفاده عدم استعمال الألفاظ والمصطلحات الخاصة لعلم أو صنعة في مجال التعبير الأدبي والشعري. يقول: " ومن وضع الألفاظ موضعها ألا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام المنثور، من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التي يختص بها بعض المهن والعلوم "(١) ونجده قد علل ذلك بقوله: " لأن الإنسان إذا خاض في علمٍ وتكلم في صناعة، وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم، وكلام أصحاب تلك الصناعة "(٢).

ونموذج ابن سنان الأعلى في ذلك الجاحظ فإنه كان إذا كاتب لم يعدل عن ألفاظ الكتّاب، وإذا صنف في الكلام لم يخرج عن عبارات المتكلمين، وقال الدكتور إحسان عبّاس: " ولعل ابن سنان يشير – كما فعل غيره من النقاد والبلاغيين – إلى استخدام أصحاب الصنائع لمصطلحات صنائعهم "(٣)،

ونجد أن الجاحظ قد سبق الخفاجي إلى هذا المذهب حيث قال: " وأرى أن ألفِظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضًا في صناعة الكلام مع خواصِ أهلِ الكلام فإن ذلك أفهمُ لهم عني وأخففُ لمؤنتهم عليّ "(٤).

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٤٥.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٤٥.
(٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دكتور إحسان عبّاس، ص٣٩٩.
(٤) الحيوان، الجاحظ، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الجيل – لبنان، بيروت ٣٦٨/٣.

ويقول أيضًا: " وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام والتجار أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته أو في حديثه إذا تحدث أو خبره إذا أخبر، وكذا فإنه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام، وهو في صناعة الكلام داخل ولكلِ مقام مقال ولكلِ صناعة شكل "(١).

وما أنكره ابن سنان من استعمال ألفاظ المتكلمين كقول أبي تمام(٢):

مـــودةٌ ذهـــبٌ أثمارُهَـــا شُـــبهٌ   وهِمَّـةٌ جـوهرٌ مَعرُوفُهَـا عَـرضُ(٣)

قال: لأن الجوهرَ والعرضَ من ألفاظ أهلِ الكلام الخاصة بهم(٤).

ومن ألفاظ النحويين قوله أيضًا:

خَرقَـاءُ(٥) يلعـبُ بـالعقُولِ حَبَابُهـا   كَتلعُـــبِ الأفعَـــالِ بالأســـماءِ(٦)

وقول أبي الطيب(٧):

إذا كـان مـا تنويـه فِعـلاً مضـارعًا   مضى قبل أن تُلقَى عليه الجَوَازِمُ(٨)

ويقول الخفاجي مستنكرًا بعض الأقوال منها قول المهلبي(٩):

---

(١) المصدر نفسه ٣/٣٦٩.

(٢) سبقت ترجمته، ص ١٧

(٣) ديوان أبي تمام ٤/٤٦٦.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٤٦.

(٥) الخرقاء: التي لا تحسن العمل من النساء، فاستعار هذه الكلمة للراح، ولعلها ما وصفت بالخُرق من قبل الطائي، ثم ذكر مع ذلك أنها تحسن اللعب بعقول الشَّرب كتعلب الأفعال بالأسماء، يريد أنها تغيرها من حال إلى حال، فترفعها تارة وتنصبها تارة أُخرى.

(٦) ديوان أبي تمام ١/١٠.

(٧) المتنبي سبقت ترجمته، ص٣٩

(٨) ديوان المتنبي، ص ٣/٣٨٣.

(٩) هو الحسن بن محمد بن عبدالله بن هارون الأزدي، من ولد المهلب بن أبي ضفرة، يكنى أبا محمد، كان سريًا جوادًا، ممدحًا، كامل السؤدد، مقربًا للعلماء، كما كان أديبًا مترسلاً، شاعرًا بليغًا، سائسًا، وله أخبار في الكرم والمروءة، كان وزيرًا لمعز الدولة، ثم وزر للمطيع، ولُقب بذي الوزارتين، ت٣٥٢هـ.

=

يــا مــــنْ لـــه رُتـــبٌ مُمكِنـــةُ   القَواعِـــــدِ مِـــــنْ فُـــــؤَادِي[(١)]

قالوا: هذا يصلح أن يكون شعرَ بناءٍ[(٢)].

وبعضُ النقاد يرى أن ابن سنان في مذهبه هذا متشدد ومنهم دكتور إحسان عبّاس حيث قال: فمذهب ابن سنان في الألفاظ مبني على التشدد، فمن تشدده نفى ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين وأرباب المهن من الشعر المنظوم والمنثور "[(٣)]، ولكن ليس ابن سنان وحده من علماء البلاغة من ينكر ذلك بل نجد منهم أمثال القاضي الجرجاني حيث أورد أبيات أبي تمام:

قَســمَتْ وقاســمتني بســلطانٍ   مـــن مقلتـــا عبـــدوسِ[(٤)]

فالقســيم القَســام عــن لحظــات   منهــا يختلســن حــب النفــوسِ

فالــذي قاســمت بلحــظٍ إذا الليــل   تمطــى مــن الكــرى المنفــوسِ

وقال: ولست أدري – يشهد الله – كيف تصور له أن يتغذل ، وأي حبيب يستعطف بالفلسفة، وكيف يتسع قلب عبدوس هذا وهو غلام غِرّ، وحدَث مُترف لاستخراج العويص وإظهار المعمّى[(٥)].

الفهرست، ابن النديم، ص١٤٩، معجم الأدباء، ياقوت الحموي ١١٨/٩. وفيات الأعيان، ابن خلكان ٢٧٢/١.

(١) يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تأليف: أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي، ت٤٣٠هـ تحقيق: دكتور: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ٢٧١/٢.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ٢٤٩

(٣) تاريخ النقد العربي، إحسان عبّاس، ص٣٩٩.

(٤) الوساطة بين المتنبي وخصومه، الجرجاني ص ٦٨

(٥) المصدر نفسه ص ٦٨.

المبحث الثالث

التكلـف والصنعـة

بنظرة استقرائية فاحصة للشعر وأساليبه وجد النقاد وعلماء البلاغة أنه لا يخرج عن ثلاثة أحوال، المطبوع، المصنوع، والمتكلف، يقول الدكتور بدوي طبانة: " أسلوب الشعر يأتي على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول المطبوع وهو ذلك الذي يقصد به أولاً وقبل كل شيء إبراز المعنى وبسطه، وإبلاغه إلى النفس في صورة قوية محكمة، لها حظها من فصاحة الكلام وجزالته، يقف الشاعر فيها أمام إنتاجه يقويه ويصفيه، يريد بالكلام أن يبلغ غايته من ناحية الوضوح والقوة والجمال، فإذا غير كلمة بكلمة أو قافية بأخرى أو عبارة بغيرها فذلك لأن ما اختاره أبلغ تأثيرًا في النفس وأشد وضوحًا وقوة..

والضرب الثاني المصنوع، وهو ذلك الذي يقف الشاعر عند إنتاجه، يغير فيه ويبدل، كي يظفر بمحسن بديعي، ولكن الشاعر لا يتلمس البعيد من ذلك، ولا يضني نفسه في إخضاع المعنى لهذا المحسن البديعي، بل يكون قريب المأخذ تكاد تكون الكلمة في موضعها، ولا يبدو أن فيها محسنًا بديعيًا إلا بالتفتيش والتنقيب، ولا يعيبون في المصنوع الاستكثار من ألوان المحسنات.

أما الضرب الثالث المتكلف، والشاعر فيه يكون همه الأول أن يملأ شعره بالصنعة والزخارف، يتلمسها طوعًا وكرهًا، ولا يبالي أن يكون المعنى غامضًا أو تافهًا، قريبًا أو بعيدًا شريفًا أو وضيعًا، ذا قيمة أو لا قيمة له "(١).

---

(١) أسس النقد الأدبي، الدكتور بدوي طبانة، ص٤٨٧.

والخفاجي من الذين عالجوا قضية التكلف والصنعة وأشاروا إلى ذلك حيث يقول: "وليس يُغفر للشاعر لأجل ما يُلزم به نفسه ذنبٌ، ولا يُغفل له عن خطٍأ، إذا كان حظر المباح وحرم الحلال، واعتمد تكلُف النصَب طوعًا واختبارًا، وهوىً وقصدًا، لكنه لعمري إذا أتانا بالسليم من الذلل، البعيد من التكلف والخطل، وكان كذلك في مأخذ صعب، ومسلك وعرٍ حمدناه الحمد الكامل، ووصفناه الوصف التام "[١].

ويزيد الخفاجي الأمر توضيحًا عندما تكلم عن كل من الاستعارة، والسجع، والترصيع وغيرها، فمثلاً نراه يصف الاستعارة في بيت أبي تمام[٢] من التكلف والصنعة وذلك في قوله:

وكم أحرَزَتْ منكُم على قُبحِ قَدِّها ... صـرُوفُ النـوَى مـن مُرهَـفٍ حَسـنِ

ويقول: " فإن استعارة " القد " لصروف النوى من أبعد ما يقع في هذا الباب وأقبحه، وإنما يقود أبا تمام إلى هذا وأمثاله رغبتُه في الصنعة، حتى كأنه يعتقد أن الحُسنَ في الشعر مقصورٌ عليها، فيورد منه لأجل التكلف ما لا غاية لقبحه، ويسعده الخاطر في بعض المواضع فيأتي بالعجائب الغرائب "[٤].

أما في السجع فيقول: " وكما يعرض التكلف في السجع عند طلب تماثل الحروف، كذلك يعرض في الفواصل عند طلب تقارب الحروف، وأظن أن الذي دعا أصحابنا إلى تسمية كلِ ما في القرآن فواصل، ولم يسموا ما تماثلت حروفُه سجعًا رغبة في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهنةُ وغيرهم "[٥].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص ٨٩.
(٢) أبو تمام سبقت ترجمته، ص ١٧
(٣) ديوان أبي تمام ٢/١١٠.
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٩٢.
(٥) المصدر نفسه، ص ٢٥٦

ونادى ابن سنان أيضًا أن لا تكون الرسالة كلها مسجوعة على حرف واحد قائلاً: "لأن ذلك يقع تعرضًا للتكرار وميلاً إلى التكلف، وقد استعُمل ذلك في الخطب وغيرها من المنثور، وهو يقع في المكاتبات خاصةً "[١].

كما أورد ذلك في الترصيع " وهو أن يعتمد تصيير مقاطع الأجزاء في البيت المنظوم أو الفصل من الكلام المنثور مسجوعة، وكأن ذلك شُبه بترصيع الجوهر في الحلي، وهذا ما قلناه إنه لا يحسن إذا تكرر وتوالى، لأنه يدل على التكلف وشدة التصنع وإنما يحسن إذا وقع قليلاً نافر "[٢]. وأورد ابن سنان على ذلك مثال في النثر قول أبي علي البصير[٣] في بعض كلامه: " حتى عاد تعريضُك تصريحًا وتمريضُك تصحيحًا "[٤].

ومن أمثلته في الشعر قول الخنساء[٥]:

حـامي الحقيقـةِ محمـودُ الخليقـةِ ... مهـديُ الطريقـةِ نفـاعٌ وضـرارُ[٦]

جـوابُ قاصـيةٍ جـزارُ ناصـيةٍ ... عقـادُ ألويـةٍ للخيـلِ جَـرارُ

وقول امرئ القيس[٧]:

فَتُـورُ القِيـامِ قَطِيـعُ الكـلامِ ... تَفترُّ عن ذي عُرُوبٍ خَصِرْ[٨]

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٦٢.
(٢) المصدر نفسه، ص٢٧٩.
(٣) أبو علي البصير سبقت ترجمته، ص ١٨١
(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٧٩.
(٥) الخنساء سبقت ترجمته، ص ١٧٦
(٦) ديوان الخنساء، دار صادر بيروت – لبنان، ص٤٩.
(٧) امرؤ القيس سبقت ترجمته، ص ٢١
(٨) ديوان امرؤ القيس، تحقيق: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ص٢٣٣.

وقول أبي العلاء المعري[١]:

ألفـتِ المــلاَ حتــى تَعلمــتِ بــالفلاَ   رُنُوَّ الطلَىَ أو صَنَعةَ الآلِ في الخَدعِ[٢]

فقال الخفاجي هذا وأمثاله إذا كان قدرًا يسيرًا حَسُنَ، فأما إذا توالى وكثر فإنه يقبح، لدلالته على التكلف[٣].

أما ما ذكره عن التكلف فقد عرض إلى التساوي في المقدار في النثر فقال: " فأما الكلامُ المنثور فالأحسنَ منه تساوي الفصول في مقاديرها، أو يكون الفصلُ الثاني أطولَ من الأول، وعلى هذا أجمع الكتاب وقالوا: لا يجوز أن يكون الفصلُ الثاني أقصرَ من الأول، والذوق يشهد بما قالوه، ويقضي بصحته، ولهذا السبب استقبحوا إطالةَ الفصول، لئلا يُؤتى بالجزء الأول طويلاً فيُحتاج إلى إطالة الثاني له، ليساويه،، أو يزيد عليه، فيظهر في الكلام التكلف ويقع ما لا حاجة للمعنى والغرض إليه "[٤].

---

(١) أبوا لعلاء المعري، سبقت ترجمته، ص ٤

(٢) سقط الزند، لأبي العلاء المعري، ص٣٣٦.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٨٠.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٨٣.

المبحث الرابع

القدمـاء والمحدثـون

تناول الخفاجي قضية القدماء والمحدثين في معرض حديثه عن الاستعارة، وكذلك أفرد لها بابًا في آخر كتابه " سر الفصاحة " فهو يذكر أن الناس في تفضيل القدماء على المحدثين ينقسمون إلى ثلاث طوائف:

١-طائفة ترى أن المتقدمين سبقوا إلى المعاني وبحكم الزمن أصبح المحدثون عالة عليهم في ذلك.

٢-طائفة رأت أن أشعار المتقدمين صدرت عن طبع، وصدرت الأشعار المحدثة عن تعمل وتكلف.

٣-طائفة رأت أن تقدم الزمن أو تأخره لا يؤثر في مستوى الشعر، ففي المحدثين من هو أشعر من جماعة من المتقدمين، والعكس أيضًا وارد، ومن أصحاب هذا الرأي الجاحظ، والمبرد، والبحتري وأبو العلاء المعري "[١].ومنهم أيضاً ابن قتيبة في قوله: "فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويصنَعه في مُتَخَيَّره، ويُرْذِل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله ولم يَقْصُر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خَصَّ به قوماً دون قوم،بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كلِّ دهر، وجعل كل قديم حديثاً في عصره.... "[٢]

ونجد أن القضية تقوم على اختلاف آراء نقّاد العرب على أيهما أفضل الشعر القديم، أم الشعر الحديث، وكان ممن تعصب للقدماء والشعر القديم أبو عمرو بن العلاء حيث يقول:

---

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دكتور إحسان عباس، ص٤٠٠.

(٢) الشعر والشعراء لإبن قتيبة .تحقيق: احمد محمد شاكر دار الحديث القاهرة ٦٢/١

" لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته يعني بذلك شعر جرير والفرزدق فجعله مولدًا بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين "(١).

ومنهم ابن الأعرابي:

" رووا عن ابن الأعرابي أنه أنشد أرجوزة أبي تمام(٢) التي أولها:

وعاذلٍ عذلتُهُ في عذلِهِ   فظنَ أني جاهلٌ من جهلِهِ(٣)

على أنها لبعض العرب، فاستحسنها، وأمر بعض أصحابه أن يكتبها له، فلما فعل قال: إنها لأبي تمام، فقال: خرِّق خرِّق فخرقها "(٤).

وعن الأصمعي(٥) أن إسحاق ابن إبراهيم الموصلي(٦) أنشده:

هل إلى نظرةٍ إليكِ سبيلُ   فيُروَى الصدَى ويُشفَى الغليلُ

إن ما قلَّ منكِ يكثُرُ عندي   وكثيرٌ مِمن يُحبُ القليلُ(٧)

فقال له الأصمعي: لمن تنشدني ؟ فقال: لبعض الأعراب، فقال: هذا والله هو الديباجُ الخُسرواني قال: فإنهما لليلتهما، قال: لا جرم والله إن آثارَ الصنعة والتكلف بيِّنٌ عليهما "(٨).

---

(١) العمدة، ابن رشيق القيرواني ١/٩٠.

(٢) أبو تمام سبقت ترجمته، ص ١٧

(٣) ديوان أبي تمام ٤/٥٣٠.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤١٧.

(٥) الأصمعي، سبقت ترجمته، ص ٤٢

(٦) إبراهيم الموصلي، سبقت ترجمته، ص ٧٦

(٧) البيتان وردا في الفهرست ابن النديم، ص٧٥، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي ٥/٢٨٣.

(٨) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤١٧.

ويقول الخفاجي عن هؤلاء " احتاج هؤلاء كلهم في نقد الشعر إلى معرفة قائله قبل أن يظهر لهم مذهبٌ فيه "[١].

ويقول أيضًا في موضع آخر: " وما أحسب أن أحدًا ممن ينسبُ إلى العلم، ويتميزُ بصحة الفهم، يحتاج في اختيار الاستعارة إلى معرفة صاحبها وزمانه حتى يكون حُكُمه على من تقدم مولدُه يخالف حُكمَه على من قَرُب عهدُه "[٢].

ونقل الخفاجي حجج من فضل المتقدمين على المتأخرين وهي: " أن المتقدمين سبقوا إلى المعاني وأكثر الألفاظ المؤلفة، وفتحوا طريق الشعر، وسلك الناسُ فيه بعدهم، وجرَوْا على آثارهم، فلهم فضيلُة السبق التي لا توازيها فضيلة، ولا توازنها مرتبة، وإذا كان غيرُهم قد استفاد منهم، وأخذ ألفاظهم وأكثر معانيهم فلن يكون في الرتبة لاحقًا بهم، وإذا كان مُقِّصرًا عنهم فشعرُه دون أشعارهم. وقالت طائفةٌ أخرى: إن العلة في تفضيل أشعار المتقدمين على أشعار المحدَثين أن هذه الأشعارَ المتقدمَة كانت تقع من قائلها بالطبع من غير تكلف ولا تصنع، والأشعار المحدَثة تقع بتكلف وتعمُلٍ وما وقع بالطبع أفضل مما صدر عن التكلف. قالوا: ولهذه العلة استُدل بأشعار المتقدمين دون أشعار المحدثين "[٣].

ثم طرح ابن سنان وجهة نظره مبطلاً بذلك حججهم يقول:

" ويقال له: خبّرنا عنك لو أنك في زمان امرئ القيس ووقفتَ على شعره أكان رأيُك فيه هو رأيُك اليوم ؟ فإن قال: نعم، قيل له: ولم ؟ وأنت إنما تختاره اليوم وتفضله بقِدمه، وإذا كان في ذلك الوقت مُحدثًا عندك فحكمُه حكم المحدَث اليوم. وإن قال: بل كنتُ أذهب فيه أي غير ما أذهب اليوم. قيل له: فهل تأليفُه على ما كان عليه أو تَغَّير عمَّا كان عليه ؟

(١) المصدر نفسه، ص٤١٧.
(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص١٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٤١٦.

فإن قال تغير، قيل: فهو إذًا غير ما ألفَهُ امرؤ القيس، وهذا ما لا يقوله أحدٌ، وإن قال: بل هو بحاله في الأكثر، قيل له:، فيجب أن يكونَ بحاله على صفةٍ ثم يصير وهو بحاله على صفة أخرى من غير أن يزيد شيئًا، ولا يُعقلُ فيه تغيُّرٌ ما يُوجب ذلك، وهذا خارج عن العقول ومعدودٌ في كلام أهل الوسواس "(١).

وبعد أن برهن الخفاجي بقدرته الجدلية فساد رأي من ذهب إلى تفضيل المتقدم بمجرد تقدم زمانه، انتقل إلى الطائفة الأخرى التي تفضل أشعار المتقدمين من حيث سبَقوا إلى المعاني فيقول: " وأما من ذهب إلى تفضيل أشعار المتقدمين من حيث سبقوا إلى المعاني والألفاظ ونزل الناسُ بعد على سكناتهم فإنه يقالُ له: هذا لوثبتَ لدل على فضل المتقدمين على المحدَثين، ولم يدل على فضل شعر هؤلاء على هؤلاء، لأنه ليس كلُّ من كان أفضل وجب أن يكونَ شعرُه أحسن، وهذا الخليلُ هو الغاية في الذكاء والفطنة بعلوم العرب، وشعرُه في أنذل طبقةٍ، وكذلك غيرُه من العلماء بهذه اللغة، والأمر في هذا واضحٌ لا يحتاج إلى دليل، ثم يقال له: ما تريد بالمعاني التي سبَقوا إليها ؟ أتريد جميع معاني أشعار المحدَثين أو بعضها، فإن قال جميعها، قيل هذا جحد العيان، لأن الأمر في تَفَرُّدِ المحدَثين بمعانٍ استنبطوها لم تخطر للعرب المتقدمين على بال أظهر من كل ظاهر، وإن قال: بعض المعاني، قيل: إن تلك المعاني التي سبق المتقدمون إليها، وأخذها منهم المحدَثونِ، لا يخلو الأمرُ فيها من أن يكونوا نظموها بحالها، أو زادوا عليها، أو نقصوا منها، فإن كانوا زادوا فلهم فضيلةُ الزيادة، كما كان لأولئك فضيلةُ السبق وإن كانوا نقصوا فالمتقدمون في تلك المعاني خاصة أفضلُ منهم، وإن كانوا نقلوها بحالها فتلك هي معاني المتقدمين لا يستحق عليها المحدَثون حمدًا ولا ذمًا أكثر مما يوجب في الأخذ والنقل "(٢).

---

(١) المصدر نفسه، ص٤١٩.
(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٢١.

ثم عرَّج ابن سنان على من احتج بحجة الطبع عند المتقدمين والتكلف عند المتأخرين فقال: " فإنه يقال له: ما الدليل على أن أشعارَ المتقدمين كانت تقع من غير تكلفٍ ؟ فإن قال: بهذا جاءت الرواياتُ عنهم، قيل: الأمر بخلاف ذلك، والمروي عن زهير بن أبي سُلمى أنه عمل سبع قصائد في سبع سنين، وكان يسميها الحوليَّات، ويقول: خير الشعر الحوليُّ المُحكك. والرواة كلهم مجمعون على هذا غير مختلفين فيه، وإذا فضلوا قول زهير قالوا: كان يختار الألفاظ، ويجتهد في إحكام الصنعة.

ثم يقال له: خبِّرنا عن هذا التكلف الذي ذكرته أهو بَيِّنٌ موجودٌ في الشعر أو غير بَيِّن موجودٍ فيه ؟ فإن قال: ليس بموجود فيه، قيل: فلا تُفضل أشعار المتقدمين على أشعار المحدَثين بشيء غير موجود فيها وإن قال: بل هو موجودٌ في أشعار المحدثين دون المتقدمين،قيل: أتذهب إلى أن التكلف موجود في جميع أشعارهم أو في بعضها ؟ فإن قال: في جميعها كابَرَ، لأن من يزعم أن جميع أشعار المحدثين مع السهولة في أكثرها والتيسر متكلَّفة، وجميع أشعار المتقدمين مع التوعر في أكثرها غير متكلفة فهو جاحدٌ للضرورة لا تحسن مناظرتُه، وإن قال: بعض أشعار المحدثين متكلفة وبعضها غير متكلف. قيل: وكذلك أشعار المتقدمين، فقد تساوَوا عندك في هذه القضية وبطل تفرُّد المحدثين بالتكلف الذي ذكرته"[١].

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٤٢٢.

المبحث الخامس

الوضوح والغموض

وهو من المقاييس المهمة عند نقّاد العرب .. فوضوح المعنى من مقاييس جودة الشعر، أما الغموض يحط من قيمته وعلماء العرب والنقاد يؤثرون الوضوح ومنهم الخفاجي الذي وضع وضوح المعنى من شروط الفصاحة والبلاغة فقال: " ومن شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام واضحًا ظاهرًا جليًّا، لا يحتاجُ إلى فكرٍ في استخراجه، وتأملٍ لفهمه، وسواءٌ كان ذلك الكلامُ الذي لا يحتاج إلى فكر منظومًا أو منثورًا "(١).

وأكد الخفاجي ذلك عندما أنكر ما ذهب إليه الصابي(٢) قائلاً: " لأن أبا إسحاق إبراهيم ابن هلال الصابي غلط في هذا الموضع، فزعم أن الحسنَ من الشعر ما أعطاك معناه بعد مطاولةٍ ومماطلةٍ، والحسن من النثر ما سبق معناه لفظه "(٣).

ورأى أن الصابي فرق بهذا بين النظم والنثر في هذا الحكم.

قال الخفاجي: " والدليل على صحة ما ذهبنا إليه أن الكلام غير مقصودٍ في نفسه، وإنما احتيج إليه ليعبر الناسُ عن أغراضهم، ويُفهموا المعاني التي في نفوسهم، فإذا كانت الألفاظُ غير دالةٍ على المعاني، ولا موضحةً لها، فقد رفض الغرض في أصل الكلام(٤).

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٣٠.

(٢) أبو إسحاق الصابي هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم الصابي، يكنى أبا إسحاق، كان متشددًا في دين الصابئة، وجهد عز الدولة البويهي أن يسلم فلم يفعل، وكان يصوم رمضان مع المسلمين، ويحفظ القرآن الكريم أحسن حفظ، ت سنة ٣٨٤هـ. الفهرست، ابن النديم، ص١٤٩، معجم الأدباء، ياقوت الحموي ٢/٢٠.

(٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٣٠.

(٤) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٣٠.

ويقول: " ثم لا يخلو أن يكون المعبِّر عن غرضه بالكلام يريد إفهام ذلك المعنى أو لا يريد إفهامه، فإن كان يريد إفهامه فيجب أن يجتهد في بلوغ هذا الغرض بإيضاح اللفظ ما أمكنه، وإن كان لا يريد إفهامه، فليدع العبارة عنه فهو أبلغ في غرضه "(١).

وقد وضَّح ابن سنان الأسباب التي لأجلها يغمض الكلام فقال: " الأسباب التي لأجلها يغمض الكلام على المسامع ستة اثنان منها في اللفظ بانفراده، واثنان في تأليف الألفاظ بعضها مع بعض واثنان في المعنى، فأما اللذان في اللفظ بانفراده فأحدهما أن تكون الكلمة غريبة "(٢).

ومثل ذلك قول عنترة(٣):

شَربتْ بماءِ الدُحرضَينِ(٤) فأصبَحَتْ　　زَوْرَاءَ(٥) تنفِرُ عَنْ حياضِ الدَّيلَمِ(٦)

فقال الخفاجي: " ولعل عنترة أراد ذكر الماء المشروب على الحقيقة وإلا لو أمكنه أن يذكر اسم مورد من الموارد يجري هذا المجرى كان حسناً وأليق وأما قول الكميت(٧):

وأدنَينَ البُرُودَ على خدودٍ　　يُزَيِّنَّ الفَداغِمَ بالأسِيلِ(٨)

فإن " الفداغم " كلمة رديئة كما ترى "(١).

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٣١.

(٣) عنترة بن شداد بن معاوية العبسي، وهو أحد أغربة العرب، ولم يلحقه أبوه بنسبه إلا بعد الكبر، وكان من أشد أهل زمانه، وأجودهم بما ملكت يداه، شهد حرب داحس والغبراء وأبلى فيها بلاءً حسنًا.
طبقات ابن سلام ١٥٢/١، الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ٢٣٧/٨، خزانة الأدب، ابن عمر البغدادي ١٢٨/١.

(٤) الدحرض: ماء بالقرب منه ماء يقال له "وسيع" فيجمع بينهما فيقال الدحرضان، انظر معجم الأدباء ياقوت الحموي ٤٤/٢، معجم ما استعجم، ابن عبد العزيز البكري ٥٤٢/١.

(٥) الزوراء: المائلة.

(٦) الديلم: الأعداء. انظر ديوان عنترة، ص٢٠١.

(٧) الكميت سبقت ترجمته، ص ٩١

(٨) ديوان الكميت ٦٥/٢.

والآخر أن تكون الكلمة من الأسماء المشتركة في تلك اللغة كالصَّدى الذي هو العطش، والطائر، والصوت الحادث في بعض الأجسام ... "[٢]. فأما استعمالُ الألفاظ المشتركة كالصَّدى فإنه يحسن في فصيح الكلام إذا كان في اللفظ دليلٌ على المقصود، مثل قول أبي الطيب[٣]:

ودعْ كلَ صوتٍ غيرَ صوتي فإنني — أنا الصائحُ المَحِكيُّ والآخرُ

فإن " الصَّدى " هاهنا لا يُشْكِل بالصدى الذي هو العطش، ولا يسبق ذلك إلى فهم أحدٍ من السامعين، فأما إن كان ذلك في موضعٍ يُشكل فليس ذلكَ بموافق للفصاحة "[٥].

أما اللذان في تأليف الألفاظ فأحدهما فرط الإيجاز. والآخر إغلاق اللفظ كأبيات المعاني من شعر أبي الطيب المتنبي وغيره.

ومثال فرط الإيجاز الذي يخل بالمعنى قول الحارث ابن حلزة:

والعيشُ خيرٌ في ظلالِ — النوكِ ممن عاشَ كدًّا[٦]

فأراد أن يقول والعيش الناعم في ظلال النوك، خير من العيش الشاق في ظلال العقل فأخل بأكثر المعنى "[٧].

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٨٣.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٤.
(٣) أبو الطيب، سبقت ترجمته، ص ٣٩
(٤) ديوان أبي الطيب المتنبي، ٢٩١/١.
(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٣٢.
(٦) نسب البيت للحارث بن حلزة في كتاب الأغاني، لأبي الفرج الأصبهاني ٥٠/١١.
(٧) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٢٤.

أما الآخر فقال ابن سنان: " فأما الذي يُسأل عن معناه،ويُفكر في فهمه،كالأبيات التي من شعر أبي الطيب المتنبي، وقد نعاها عليه الصاحب أبو القاسم بن عبّاد رحمه الله، وكان يسميها رُقَى العقارب، والناس إلى اليوم مختلفون في معاني بعضها ... كقوله[١]:

ذَمَّ الزمانُ إليهِ من أحبتِهِ ... ما ذَمَّ مِنْ بدرِهِ في حَمدِ أحمَدِهِ[٢]

قال أبو الفتح: البدر هو المعشوق جعله بدر الزمان مبالغة في حسنه، وأحمد هو المتنبي وجعل نفسه أحمد الزمان يريد ليس في الزمان أحمد مثله، والمعنى أن العاشق كان يذم بدر الزمان الذي هو كبدر الزمان حسنًا، يذم منه جفاءه وهجره، واجتمع معه الزمان على تلك الحال من معشوقه في حال حمد الزمان لأحمده المتنبي، فالزمان يذم هجر أحبته ويحمده هو لفضله ونجابته، قال الواحدي: قد تهوس أبو الفتح في هذا البيت وأتى بكلام كثير لا فائدة منه ومعنى البيت: أن الزمان ذم إلى المتنبي من أحبه المتنبي لأنهم بجفونه ما ذم الزمان بدره، يعني القمر في حمد أحمد يعني الممدوح. المعنى أن البدر مذموم بالإضافة إلى هذا الممدوح، يعني أن البدر على بهائه وحسنه دون أحمد هذا[٣].

وقوله:

عُيُونُ رَوَاحِلِي إنْ حِرْتُ عَينِي ... وكُلُ بُغَامِ رَازِحَةٍ بُغَامِي[٤]

قال الخطيب: عيون رواحلي تنوب عني، إذا ضللت اهتدي بها، وصوتها إذا احتجت إلى أن أصوت يسمع الحي يقوم مقام صوتي وإنما قال بغامي على الاستعارة

وأما اللذان في المعني فأحدهما: أن يكون في نفسه دقيقًا، ككثير من مسائل الكلام في اللطيف، والآخر أن يُحتاج في فهمه إلى مقدمات "[١].

---

(١) سبقت ترجمته، ص ٣٩

(٢) ديوان المتنبي ٨٠/٢.

(٣) انظر ديوان المتنبي، أبو البقاء العكبري، تحقيق: مصطفى السقا، وآخرون، دار المعرفة، بيروت ٨٠/٢، ١٤٣/٤.

(٤) المصدر نفسه ١٤٣/٤.

ونجد تلك هي أهم الأسباب التي تخفى بها المعاني وتؤدي إلى التعقيد، وتلافي هذه الأسباب يؤدي إلى الوضوح الذي ينشده المتلقون ويتطلبه كثير من النقّاد، وهذا التعقيد مذموم منذ أقدم العصور، ومن أقدم الكلمات في كراهته والتحذير منه ما كتبه بشر بن المعتمر في صحيفته المشهورة: " وإياك والتوعرَ في الكلام فإنه يُسلُمك إلى التعقيد، والتعقيدُ هو الذي يستهلك معانيك ويمنعك من مراميك "[٢].

وفي هذا المنحى ذكر ابن سنان الحكاية التي تُحكى عن أبي تمام لما قصد عبدالله بن طاهر[٣] بقصيدته التي أولها:

هُنَّ عَوادِي يُوسُفٍ وَصَوَاحِبُهْ　　　فَعزمًا فَقِدْمًا أَدرَكَ السُّؤلَ طالِبُهْ

وعرض هذه القصيدة على أبي العَميثَل[٤] صاحب عبدالله بن طاهر وشاعره فقال له أبو العميثل – عند إنشاده أول القصيدة – لم لا تقول يا أبا تمام من الشعر ما يُفهم فقال: وأنت يا أبا العميثل لم لا تفهم من الشعر ما يقال فانقطع أبو العميثل "[٥].

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٣٢.

(٢) البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، ص٨٦.

(٣) هو عبدالله بن ظاهر بن الحسين بن مصعب يكنى أبا العباس، كان أديبًا عالمًا فقيهًا، وكان أحد الأجداد الأسخياء، كان نبيلاً عالي الهمة شهمًا، وله في الأدب المحل الذي لا يُدفع وفي السماحة ما لا يقاربه فيه أحد، انظر الأغاني، أبو الفرج الأصبهاني ١٠١/١٢، وفيات الأعيان، ابن خلكان ٨٣/٣، سير أعلام النبلاء.

(٤) هو عبدالله بن خليد، أو ابن خالد، وقيل اسمه خويلد بن خالد، وهو مولى جعفر بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس، كان كاتب طاهر وولده عبدالله، وكان مكثرًا من نقل اللغة، عارفًا بها، شاعرًا مجيدًا، وكان يفخم الكلام ويغَرِّبُه توفى سنة ٢٤٠هـ.
الأمالي في لغة العرب، أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت– ١٣٦٨هـ–١٩٧٨، ٩٩/١، الفهرست، ابن النديم، ص٥٤، وفيات الأعيان، ابن خلكان ٨٩/٣.

(٥) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٣٣٩.

ولكن ابن سنان أبان عن وجهة نظر كل منهما بكلام نقدي بديع قائلاً: " إن الذي قاله أبو تمام وأبو العميثل صحيح، لأن أبا العميثل طلب من أبي تمام إذ كان حاذقًا في صناعة الشعر، وقد قصد مثل عبدالله ابن طاهر بالمديح أن يكون شعرُه مفهومًا واضحًا، يسبق معناه لفظه، فكان هذا من أبي العميثل كلامًا صحيحًا في موضعه وطلب أبو تمام من أبي العميثل إذ كان يدعى عِلمَ الشعر، ويتحقق بالأدب، ويخدم عبدالله ابن طاهر في اعتراض قصائد الشعراء، وترتيبهم على مقدار ما يستحقُه كل منهم بحظه من الصناعة أن يكون يفهم معاني الشعر، ويطلع على الغامض والظاهر منها، وكان هذا من أبي تمام أيضًا كلامًا صحيحًا، وكانا فيه بمنزلة من يقول لصاحبه: لم فعلتَ ذلك الفعل وهو قبيحٌ، فيقول: كما فعلتَ أنت ذلك الفعل الآخر وهو قبيح، فيكون كل واحد منهما قد أجاب عن طريق الجدل، وإن كان لم يدل على أنه أصاب وأخطأ صاحبُه "(١).

وبذلك نجد أن ابن سنان قد دعا إلى الوضوح والبيان غير أنه اعتبر الخفاء والستر وعدم الابتذال شرط من شروط البلاغة حيث قال: " ومن هذا الجنس حُسنُ الكناية عمّا يجب أن يكنى عنه في الموضع الذي لا يحسُن فيه التصريح، وذلك أصلٌ من أصول الفصاحة، وشرطٌ من شروط البلاغة "(٢).

ونرى أيضًا أنه ينادي بالترفع عن العبارات المبتذلة ومثال ذلك في شعر المتنبي:

خَلُوقيـــــــةٌ فـــــــي خَلُوقِيَّتهَـــــا ... سُـــوَيْدَاءَ مِـــن عِنَـــبِ الثَّعلَـــبِ(٣)

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٤٠.

(٢) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٢٤١.

(٣) ديوان المتنبي ١٤٧/١.

المعنى: خلوفية خبر ابتداء أي هذه المقلة خلوفية في لونها الخلوفي حبة سوداء من عنب الثعلب، يريد لون مقلتها وما فيها من السواد.

انظر: ديوان المتنبي ١٤٧/١.

عنب الثعلب هو تمر لونه أحمر لا يوكل ولكنه مَرعي، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده الأندلسي ٩٠/٥.

فقال: " فإن " عنب الثعلب " مما أقول: إن العامة لو نظمت شعرًا لترفعت عن ذكره "[١] ومن ذلك نرى أن الخفاجي ينادي بالوضوح والبيان كما قال دكتور محمد زغلول سلام: " بالرغم من حديثه عن كثير من فنون المعاني وأقسامها التقليدية اشترط فيها البيان والوضوح، ولم يمل في الاستعارة والتشبيه والتمثيل إلى الغموض، لأنه يرى أن الغرض من هذه الفنون التعبيرية زيادة الكلام وضوحًا وإبانة، فالتشبيه استدلال بالمحسوس على ما ليس محسوسًا، وأما الاستدلال بالتمثيل فلأن يزيد الكلام معنى يدل على صحته بذكر مثال له قول أبي تمام "[٢].

وإذا أرَادَ اللُّــــه نَشــــرَ فضــــيلةٍ ... طُوِيَتْ أتاحَ لَهَا لسانَ حسُودِ[٣]

لـولا اشـتعالُ النـارِ فيمَـا جـاوَرَتْ ... ما كانَ يُعرفُ طِيبُ عَرفِ العُودِ

ويرى دكتور زغلول: " أنه لا ينبغي أن يفرق الشعر عن النثر في وجوب الوضوح في كل، ولما كان النثر يحقق هذا الشرط في أتم صوره، والشعر بعضه يحنو نحو الغموض فالنثر من هذه الناحية أفضل من الشعر كأداة للتعبير والبيان على هذا المفهوم، فهو أداة تعبيرية أكثر اكتمالاً ونفعًا لحياة الناس "[٤].

ويقول: " وإن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة، والانتفاع بها في الأغراض ظاهر، والشعر فضل يستغني عنه، ولا تقود ضرورة إليه "[٥].

ويقول " وإن أكثر النظم إذا كشف وجد لا يعبر عن جد ولا يترجم عن حق، وإنما الحذق فيه الإفراط في الكذب، والغلو في المبالغة، وأكثر النثر شرح لأمور متيقنة، وأحوال مشاهدة، وما كثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثر فيه المحال والتقريب "[١] .

---

(١) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ص٩٢.

(٢) أبو تمام سبقت ترجمته، ص ١٧

(٣) ديوان أبي تمام ٢/٣٢٤.

(٤) تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس الهجري، دكتور. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، القاهرة، ص٢٦١

(٥) المصدر نفسه، ص٢٦١

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً، على أن يسر وأعان على إتمام هذا البحث،وفي هذه الخاتمة تورد الباحثة بعضاً من أهم النتائج وهي:

١/ اهتم ابن سنان بالألفاظ المفردة والألفاظ المركبة وجاءت جهوده ثمرة لجهود علماء أفذاذ في مقدمتهم الجاحظ.

٢/تناول ابن سنان قضية الفصاحة والبلاغة وتتابعت هذه القضية عند المتأخرين ونلاحظ أن مقدمة البلاغة في" الإيضاح" للخطيب القزويني هو تلخيص لما قرره ابن سنان في "سر الفصاحة".

٣/ جهود ابن سنان في شروط اللفظة المفردة أفاد منها ضياء الدين ابن الأثير في كتابه"الجامع الكبير".

٤/لم يُعرِّف ابن سنان" النظم " بمعناه الذي عرف عند معاصره عبد القاهر الجرجاني،فقد استعمل "النظم" بمعنى النسق وهو اللون الذي عرف عند المتأخرين "بحسن التخلص" في البديع،كما استعمله في مقابلة النثر، وأراد من النظم الشعر،واستعمله أيضاً في وضع الألفاظ موضعها.

٥/حدد مفاهيم كلٍ من: "الإيجاز، والمساواة، والإطناب" وجاء حديثه عن كلٍ منها في سياق ذكره شروط تحقيق الفصاحة،مما كان أساساً لعمل المتأخرين وفي مقدمتهم "الخطيب القزويني".

٦/ عرض للمحسنات اللفظية والمعنوية بغير ترتيب، كما قدم المطابقة والمقابلة كنوع من تناسب الألفاظ عن طريق المعنى،مما حدا بالمتأخرين أن ينتهجوا نهجه وفرقوا بين المحسِّن المعنوي واللفظي، كما حاز قصب السبق في اكتشاف هذا اللون الذي أطلق عليه "الاستدلال بالتعليل" وهو حسن التعليل.

٧/اهتم بمبحث "السجع" اهتماماً كبيراً، ودافع عن وجوده في القرآن الكريم،وسماه "الفواصل" تأدباً مع كتاب الله سبحانه وتعالى.

٨/ كانت لابن سنان جهودٌ نقدية، بين فيها موقفه من قضية "النظم" و"التلاؤم بين اللفظ والمعنى" و"الوزن والقافية"و"صحة الأوصاف في الأغراض" و"اصطلاحات الفنون" و"التكلف والصنعة" و " القدماء والمحدثون" و "والوضوح والغموض" .

هذا وأسأل الله العلي القدير أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبله بقبول حسن، ويجعله في ميزان الحسنات يوم لاينفع مال ولابنون، إلا من أتى الله بقلب سليم، وأساله سبحانه أن ينفع به، وأن يتجاوز عما فيه من خلل وتقصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أولاً: فهرس الآيات القرآنية

الآية	رقمها	السورة	رقم الفحة
الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ. مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ	٤،٣	الفاتحة	٢١٣
فَسَيَكْفِيكَهُمُ	١٣٧	البقرة	٦٨
وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ	١٧١	البقرة	١٣٩
وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ	١٧٩	البقرة	١٥١
يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ	٢٧٦	البقرة	٢٠٨
فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ	٢١	آل عمران	١٢٢
وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ	٥٤	آل عمران	١٢٤،١٢٢
كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ	٧٥	المائدة	١٠٨
ثُمَّ انصَرَفُواْ صَرَفَ اللّهُ قُلُوبَهُم	١٢٧	التوبة	٢٠٨
فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ	٦٧	هود	٢٣٥
وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا	٨٢	يوسف	١٥٣،١٢٤
وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ	٣	الرعد	١٥٢
الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ	١٨	ابراهيم	٨٩
فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ	٤٧	ابراهيم	١٤٠
وَيَجْعَلُونَ لِلّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا	٥٧	النحل	١٤٣
لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ	١٠٣	النحل	١٧٠
وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً	٤	مريم	٩٧،٩٦
طه. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى	١ – ٥	طه	٢١٢
لَوْكَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا	٢٢	الأنبياء	١٦٦،١٦٥ ١٦٤،

ثانياً: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

ثالثاً: فهرس الأعلام

رابعاً: فهرس الأشعار

خامساً: فهرس المصادر والمراجع

١. **آكام المرجان في أحكام الجان** بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله السبيلي الحنفي تحقيق: إبراهيم محمد الجمل، دار مكتبة القرآن مصر_القاهرة

٢. **إتمام الدراية لقراء النقاية**، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: الشيخ إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥هـ_١٩٨٥م، الطبعة الأولى

٣. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، يونس بن عبد الله بن محمد بن عبد البر تحقيق: على محمد البجاوي، دار الجيل بيروت-١٤١٢ه

٤. **أسرار البلاغة**، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي ت(٤٧٤) ه تحقيق:

٥. **أسس النقد الأدبي عند العرب**، دكتور أحمد بدوي طبانة، دار نهضة مصر

٦. الإشتقاق، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد ت(٣٢١) ه تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي -مصر

٧. **الإصابة في تمييز الصحابة**

٨. **الإصول في النحو**، لأبي بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي البغدادي، تحقيق: الدكتور عبد الحسين الفتيلي، دار مؤسسة الهلال بيروت١٤٠٨ه-١٩٨٨م الطبعة الثالثة

٩. **إعجاز القرآن**، لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف -مصر١٩٩٧م الطبعة الخامسة

١٠. **الأغاني**، لأبي الفرج الأصبهاني ت(٣٥٦)ه تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر -لبنان

١١. **الأمالي في لغة العرب**، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي ت(٣٥٦)ه دار الكتب العلمية ١٣٩٨-١٩٧٨م

١٢. **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين والكوفيين**، لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد الأنباري النحوي ت(٥٧٧)ه تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر دمشق .

١٣. **الأنساب**، لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني ت(٥٩٢)ه تحقيق: عبد الله عمر البارودي دار الفكر بيروت-١٩٨٨م الطبعة الأولى.

١٤. **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، جمال الدين بن هشام الأنصاري ت(٧٦٢)ه تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل بيروت-١٣٩٩-١٩٧٩م الطبعة الخامسة.

١٥. **الإيضاح في علوم البلاغة**، محمد بن عبد الرحمن ابن عمر أبو المعالي جلال الدين الخطيب القزويني (٧٣٩)ه تحقيق: عماد بسيوني زغلول، مؤسسة الكتب الثقافية الطبعة الثالثة ١٩٩٨م.

١٦. **البدء والتاريخ**، المطهر بن طاهر المقدسي، دار مكتبة الثقافة الدينية-بور سعيد

١٧. **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء ت(٧٤٤)ه مكتبة المعارف بيروت .

١٨. **البديع**، عبد الله بن المعتز ت(٢٩٦)ه نشر إغناطيوس كراتشقوفسكي مكتبة المتنبي بغداد ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م .

١٩. **البرهان في علوم القرآن**، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله ت(٧٦٤)ه تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت-١٣٩١هـ.

٢٠. **بغية الطلب في تاريخ حلب**، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرارة، تحقيق: دكتور زهير دكار، دار الفكر.

٢١. **البيان والتبيين**، لأبي عثمان الجاحظ

٢٢. **البلاغة تطور وتاريخ**، دكتور شوقي ضيف، دار المعارف الطبعة الحادية عشر، القاهرة.

٢٣. **بلاغة أرسطو بين العرب واليونان**، الدكتور إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية-١٣٧١هـ-١٩٥٢م.

٢٤. **بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي**، محمد عبد المنعم خفاجي، المطبعة الفاروقية الحديثة، ١٣٦٩هـ-١٩٥٠م.

٢٥. **تأويل مشكل القرآن**

٢٦. **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين،دار الهداية للنشر .

٢٧. **تاريخ النقد الأدبي من القرن الخامس الهجري**، دكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف مصر- القاهرة.٢٧- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: دكتور محمد عبد السلام ترمدي، دار الكتاب العربي، لبنان-بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م الطبعة الأولى.

٢٨. **تاريخ بغداد**، أحمد بن علي أبوبكر الخطيب البغدادي ت(٤٦٣)هـ دار الكتب العلمية بيروت.

٢٩. **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل**،لأبي القاسم علي بن الحسن بن عبد الله الشافعي، تحقيق: محي الدين أبي سعيد العمري، دار الفكر بيروت ١٩٩٥م.

٣٠. **تاريخ الطبري**، لأبي جعفر بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.٣٠- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، دارصادر-بيروت .

٣١. **تاريخ بن خلدون**، إبن خلدون الحضرمي، دار القلم بيروت، ١٩٤٨م الطبعة الجامعة.

٣٢. **تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثروبيان إعجاز القرآن**، إبن أبي الإصبع المصري، ت(٦٥٤)ه تقديم الدكتور حفني محمد شرف، طبعة القاهرة.
٣٣. **التصوير البياني**، دكتورحفني محمد شرف، مكتبة الشباب الطبعة الثانية.
٣٤. **التعريفات**، علي بن محمد بنعلي الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأنباري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ–الطبعة الأولى.
٣٥. **تهذيب اللغة**، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي_بيروت–٢٠٠١م الطبعة الأولى.
٣٦. **تهذيب الكمال**، يوسف بن الذكي عبد الرحمن أبو الحجاج المزي، تحقيق: دكتور بشار، دار مؤسسة الرسالة، بيروت–١٤٠٠–١٩٨٠م الطبعة الأولى.
٣٧. **الثقات**، محمد بن حبانبن أحمد أبوحاتم التميمي البستي، ت(٣٥٤)هـ، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر١٣٩٥–١٩٧٥م الطبعة الأولى.
٣٨. **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار المعارف–القاهرة.
٣٩. **ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، النكت في إعجاز القرآن، لأبي الحسن علي بن عيسى الرماني ت(٣٨٦)هـ، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول، الطبعة الثانية دار المعارف–مصر.
٤٠. **الجامع الصحيح المختصر**، محمد بم إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار بن كثير اليمامة –بيروت ١٤٠٧هـ–١٩٨٧م الطبعة الثالثة.
٤١. **الجامع الكبير**، ضياء الدين بن الأثير، تحقيق: الدكتور مصطفى جواد، والدكتور جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي الشرقي ١٩٥٦م.
٤٢. **الجمل في النحو**، الخليل بن أحمد الفراهيدي ت(١٧٥)ه تحقيق: محمد علي النجار، دارالعمري بيروت–لبنان.

٤٣. **جمهرة الأمثال،** لأبي هلال العسكري، دار الفكر بيروت -١٤٠٨هـ-١٩٨٨م

٤٤. **جمهرة اللغة،** لأبي بكرمحمد بن الحسن بن دريد اللغوي ت(٣٢١)هـ تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين-بيروت -١٩٨٧م الطبعة الأولى.

٤٥. **حماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء،** لأبي محمد عبد الله بن محمد العبدلكاني الزوزني ت(٤٣١)هـ تحقيق: محمد جبار المجيد، منشورات وزارة الإعلام، العراق.

٤٦. **الحماسة المغربية،** صدر الين علي بن الحسن البصري، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٤٧. **الحيوان،** لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ت(٢٥٥)هـ تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت ١٩٩٦م.

٤٨. **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب،** عبد القادر البغدادي ت(١٠٩٣)هـ تحقيق: محمد نبيل طريفي، أميل بديع يعقوب دار الكتب العلمية-١٩٩٨م الطبعة الأولى.

٤٩. **الخصائص،** لأبي الفتح عثمان بن جني ت(٣٩٢)هـ تحقيق: محمد علي النجار، دار العمري بيروت-لبنان.

٥٠. **دستور العلماء أو جامع العلوم في اصطلاحات الفنون،** القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد فكري، تحقيق: حسن هاني فحصا، دار الكتب العلمية، لبنان-بيروت ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م الطبعة الأولى.

٥١. **دلائل الإعجاز،** لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، ت(٤٧٤)هـ، تحقيق: دكتور التنجبي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٥٢. **ديوان بن سنان الخفاجي،** تحقيق: الدكتور عبد الرازق حسين، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى١٤٠٩هـ-١٩٨٨م.

٥٣. **ديوان أبي تمام الطائي،** فسر ألفاظه اللغوية، محي الدين الخياط، دار المعارف.

٥٤. **ديوان مهيار الديلمي**، شرح وضبط، أحمد سالم، مؤسسة الأعلمي بيروت–لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م.
٥٥. **ديوان إمرئ القيس**، دار صادر بيروت.
٥٦. **ديوان المتنبي**.
٥٧. **ديوان زهير بن أبي سلمى**، دار صادر بيروت.
٥٨. **ديوان الهذليين**، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة، ١٣٨٥هـ–١٩٦٥م.
٥٩. **ديوان أبي صخر الهزلي**، تأليف الدكتور عبد الجواد الطيب، منشورات جامعة الفاتح ١٩٨١م.
٦٠. **ديوان أبي عبادة البحتري**، دار صادر بيروت.
٦١. **ديوان الطرماح**، تحقيق: الدكتور عزة حسن، إحياء التراث القديم، دمشق ١٣٨٨هـ–١٩٦٨م.
٦٢. **ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**، تحقيق: دكتور وليد عرفات، دار صادر بيروت.
٦٣. **ديوان العباس بن مرداس**، تحقيق دكتور يحيى الجبوري مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ–١٩٩١م.
٦٤. **ديوان الأعشى**، شرح وتقديم دكتور يحيى شامي، دار الفكر العربي، بيروت–لبنان.
٦٥. **ديوان الحماسة** للتبريزي.
٦٦. **ديوان عروة بن الورد**، دار الكتاب العربي.
٦٧. **ديوان الشريف الرضي**، منشورات مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
٦٨. **ديوان نصر ابن أبي نباتة السعدي**، تحقيق الأمير مهدي حبيب الطائي وزارة الإعلام العراق.
٦٩. **ديوان أبي العلاء المعري**.
٧٠. **ديوان النابغة الزبياني**، تحقيق: كرم البتاني، دار صادر بيروت.

٧١. **ديوان الوأواء الدمشقي** تحقيق: سامي الدهان، دار صادر بيروت، الطبعة الثانية.
٧٢. **ديوان الكميت بن زيد الأسدي**، تقديم الدكتور داوود سلوم، مكتبة الأندلس، بغداد ١٩٩٦م.
٧٣. **ديوان علقمة بن عبدة.**
٧٤. **ديوان بن هرمة**، تحقيق: محمد جبار العبيد مطبعة الآداب النجف ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.
٧٥. **ديوان الفرزدق** تقديم الأستاذ علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م الطبعة الأولى.
٧٦. **ديوان أبي نواس**، شرح الأستاذ علي فاعور دار الكتب العلمية بيروت-لبنان ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م الطبعة الأولى.
٧٧. **ديوان عمربن أبي ربيعة**، تحقيق: فوزي عطوي، دار صعب بيروت ١٩٨٠م.
٧٨. **ديوان ذي الرمة.**
٧٩. **ديوان عمر بن قميئة**، تحقيق: خليل إبراهيم العطية.
٨٠. **ديوان الحطيئة**، تحقيق: دكتور نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧م الطبعة الأولى.
٨١. **ديوان خداش بن زهير العامري**، الدكتور يحيى الجبوري، دمشق ١٤٠٦هـ-١٩٨٦ م.
٨٢. **ديوان لبيد بن أبي ربيعة العامري**، دار صادر بيروت.
٨٣. **ديوان أوس بن حجر**، دار صادر بيروت.
٨٤. **ديوان الشماخ بن ضرار الزبياني**، تحقيق وشرح صلاح الدين الهادي، دار المعارف مصر.
٨٥. **ديوان بشر بن حازم الأسدي**، شرح دكتور صلاح الدين الهوادري، دار مكتبة الهلال، طبعت ١٩٩٧م.
٨٦. **ديوان طرفة بن العبد**، دار صادر بيروت.

٨٧. **ديوان زهير بن أبي سلمى** شرح الدكتور محمد حمود، دار الفكر اللبناني الطبعة الأولى.

٨٨. **ديوان عدي بن زيد الأنصاري**، تحقيق محمد جبار المعيبيد، منشورات وزارة الثقافة العراق بغداد.

٨٩. **ديوان ذي الرمة غيلان بن عقبة**، تحقيق: كارليل هنري هيس مارتين عالم الكتب.

٩٠. **ديوان عبد الله بن المعتز**، دار صادر بيروت.

٩١. **ديوان بن محمد التهامي**، تحقيق: الدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيغ، دار مكتبة المعارف الرياض ١٤٠٣هـ-١٩٨٢م الطبعة الأولى.

٩٢. **ديوان البحتري** دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٠هـ-١٩٨٧م.

٩٣. **ديوان الأعشى**، شرح دكتور يوسف شكري فرحان، دار الجيل، بيروت الطبعة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٥م.

٩٤. **ديوان الخنساء**، دار صادر بيروت.

٩٥. **ديوان عمرو بن معد يكرب**، دار صادر بيروت لبنان.

٩٦. **ديوان الصاحب بن عباد**، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، مكتبة النهضة بيروت لبنان، دار القلم بيروت ١٣٩٤هـ-١٩٧٢م الطبعة الثانية.

٩٧. **ديوان زياد الأعجم**، تحقيق: الدكتور يوسف حسين بكار، دار الثقافة والإرشاد القومي دمشق ١٩٨٣م.

٩٨. **ديوان جرير**، الأستاذ مجيد طراد، دار الفكر العربي، بيروت-لبنان.

٩٩. **ديوان المهلهل بن ربيعة.**

١٠٠. **ديوان النمر بن تولب.**

١٠١. **ديوان ابن هاني الأندلسي**، دار صادر بيروت ١٤١٢هـ-١٩٩٤م.

١٠٢. **ديوان عبد الله بن قيس الرقيات**، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر بيروت.

١٠٣. **الذخيرة**، شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي تحقيق: محمد حجي، دار الغرب، بيروت ١٩٩٤م.

١٠٤. **الزاهر في معاني كلمات الناس**، لأبي بكر بن القاسم الأنباري، تحقيق: دكتور حاتم صالح الضامن، دارمؤسسة الرسالةبيروت-١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

١٠٥. **زبدة الطلب من تاريخ حلب**، كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن العديم، تحقيق: سامي الدهان، دار سعد الدين، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٠م.

١٠٦. **سر صناعة الإعراب**، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: الدكتور حسن هنداوي، دار القلم -دمشق١٤٠٥هـ-١٩٨٥م الطبعة الأولى.

١٠٧. **سر الفصاحة**، محمد بن عبد الله بن سعيد بن سنان الخفاجي ت(٤٦٦)هـ تحقيق: عبد الواحد شعلان، دار قبا للطباعة والنشر ٢٠٠٠م.

١٠٨. **سقط الزند**، لأبي العلاء المعري

١٠٩. **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي المكي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية بيروت- ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١١٠. **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، محمد نعيم العرقسوسي، دارمؤسسة الرسالة- بيروت١٤١٣هـ-الطبعة التاسعة.

١١١. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، محمد الأرناؤوط، دار ابن كثير -دمشق١٤٠٦هـ الطبعة الأولى.

١١٢. **شرح ديوان المتنبي** الشيخ ناصف اليازجي، تقديم الدكتور ياسين الأيوبي، دار مكتبة الهلال.

١١٣. **شرح ديوان أبي صخر الهذلي**، لأبي زكريا يحي بن علي الخطيب التبريزي ت(٥٠٢)هـ تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي القاهرة.
١١٤. **شرح المعلقات السبع**، للإمام عبد الله الحسن بن أحمد الزوزني ت(٤٨٦)هـ تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، دار الكتب العصرية –صيدا–بيروت ١٤٢٤هـ–٢٠٠٤م.
١١٥. **شرح ديوان لبيد بن ربيعة**، تحقيق: الدكتور إحسان عباس، مطبعة حكومة الكويت ١٩٨٤م الطبعة الثانية.
١١٦. **شروح سقط الزند**
١١٧. **شعر الرماح بن ميادة**
١١٨. **شعر الإمام علي بن أبي طالب**، جمع وشرح، عبد العزيز سيد الأهل، دار صادر بيروت ١٤٠٠هـ–١٩٥٠م.
١١٩. **الشعر والشعراء**، محمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت(٢٧٦)هـ، دار إحياء علوم الدين، بيروت – لبنان الطبعة الثانية ١٩٨٦م.
١٢٠. **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ت(٨٢١)هـ تحقيق: عبد القادر زكار، دار الثقافة دمشق ١٩٨١م.
١٢١. **الصناعتين الكتابة والشعر**، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ت (٣٩٥)هـ تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المكتبة العصرية–بيروت ١٤٠٦هـ–١٩٨٦م.
١٢٢. **صور البديع**، علي الجندي، دار الفكر العربي.
١٢٣. **طبقات ابن سعد الكبرى**، محمد بن سعد بن منيع أبو عبد الله البصري الزهري ت(٢٣٠)هـ دار صادر بيروت .
١٢٤. **طبقات فحول الشعراء**، محمد بن سلام الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار مدني –جدة.

١٢٥. **الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**، للإمام يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، تحقيق: دكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية صيدا–بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م.

١٢٦. **العبر في أخبار من غبر**، شمس الدين محمد بن عثمان الذهبي، ت (٧٤٦)هـ تحقيق: الدكتور صلاح المنجد، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤م الطبعة الثانية.

١٢٧. **العرف الطيب في شرح ديوان المتنبي**، شرح ناصف اليازجي، تقديم ياسين الأيوبي، دار مكتبة الهلال بيروت، طبعة ٢٠٠٠م.

١٢٨. **العقد الفريد**، أحمد بن محمد بن عبده ربه، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الثالثة.

١٢٩. **علم البديع**، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت – لبنان.

١٣٠. **العمدة في نقد الشعر وتمحيصه**، للإمام أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، ت (٤٦٣)هـ تحقيق: الدكتور عفيف نايف حاطوم، دار صادر بيروت الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ–٢٠٠٣م.

١٣١. **عيار الشعر**، إبن الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي ت(٣٢٢)هـ تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة مطبعة المدني.

١٣٢. **عوف بن مسلم الخزاعي حياته وشعره**، رشدي حسن، (مؤته للبحوث والدراسات) مجلة علمية محكمة ومفهرسة، عمادة البحث العلمي والدراسات العليا، جامعة مؤته الأردن، ١٤١٤هـ–١٩٩٣م العدد الثاني.

١٣٣. **فصل المقال في شرح كتاب الأمثال**، لأبي عبيد الله بن عبد العزيز بن مصعب البكري الأندلسي، ت(٤٨٧)هـ

١٣٤. **الفصول والغايات**، لأبي العلاء المعري

١٣٥. **الفهرست**، محمد بن إسحق أبو الفرج النديم، دار المعرفة بيروت ١٩٧٨م

١٣٦. **فوات الوفيات**، محمد شاكر بن أحمد الكتبي ت(٧٦٤)هـ تحقيق: علي محمد بن يعوض الله، وعادل أحمد عبد المحمود، دار الكتب العلمية بيروت-٢٠٠٠م الطبعة الأولى.

١٣٧. **قدامة بن جعفر والنقد الأدبي**، الدكتور بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية.

١٣٨. **القزويني وشروح التلخيص**، دكتور أحمد مطلوب، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

١٣٩. **قضايا النقد الأدبي**، دكتور بدوي طبانة، مكتبة الأنجلو المصرية.

١٤٠. **قواعد الشعر**، لأبي العباس أحمد بن يحي ثعلب ت(٢٩١)هـ تحقيق: رمضان عبد التواب، دار مكتبة الخانجي القاهرة -١٩٩٥م.

١٤١. **الكامل في التاريخ**، لأبي الحسن علي بن الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت١٤١٥هـ الطبعة الثانية.

١٤٢. **الكتاب** سيبويه ت (١٨٠)هـ تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الثالثة مكتبة المدني ١٩٨٨م.

١٤٣. **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، دار بيروت ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.

١٤٤. **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، لأبي البقا بن موسى الحسيني الكوفي، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، دارمؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.

١٤٥. **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر بيروت الطبعة الأولى

١٤٦. **لسان الميزان**، إبن حجر العسقلاني الشافعي

١٤٧. **اللباب في تهذيب الأنساب**، لأبي الحسن علي بن أبي مكرم بن محمد الشيباني الجزري، دار صادر بيروت ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

١٤٨. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، لأبي الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير ت(٦٣٧)هـ تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت١٩٩٥م.

١٤٩. **المجالسة وجواهر العلم**، لأبي بكر أحمد بن مروان بن محمد الدينوري القاضي المالكي ت(٣٦٤)هـ دار إبن حزم بيروت- لبنان ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م الطبعة الأولى.

١٥٠. **المحكم والمحيط الأعظم**، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة المرسي، ت(٤٢٨)هـ تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٠هـ الطبعة الأولى.

١٥١. **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعر والبلغاء**، لأبي القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، تحقيق: عمر الطباع، دار العلم بيروت ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١٥٢. **مرآة الجنان وعبرة اليقظان**، لأبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

١٥٣. **المزهر في علوم اللغة والأدب**، جلال الدين السيوطي ت(٩١١)هـ تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت -١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

١٥٤. **المستدرك على الصحيحين**، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري ت(٤٠٥)هـ تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ١٤١١هـ -١٩٩٠م الطبعة الأولى.

١٥٥. **المستطرف في كل فن مستظرف**، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيمي ت(٨٨٥)هـ تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية-بيروت ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م الطبعة الثانية .

١٥٦. **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، أحمد بن محمد بن علي القري الفيومي الرافعي، دار المكتبة العلمية بيروت.

١٥٧. **معجم البلدان**، لأبي عبد الله أبو عبدالله ياقوت الحموي، دار الفكر بيروت.

١٥٨. **معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، لأبي عبدالله ياقوت بن عبدالله الرومي الحموي ت(٦٢٦)ه دار الكتب العلمية – بيروت ١٤١١هـ- ١٩٩١م الطبعة الأولى.

١٥٩. **معجز أحمد**، لأبي العلاء المعري، زخائر العرب، ١٩٨٤م.

١٦٠. **معجم مقاييس اللغة**، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، ت(٣٩٥)ه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت- لبنان ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م الطبعة الثانية.

١٦١. **معاهدة التنصيص على شواهد التلخيص**، عبد الرحيم بن أحمد العباس، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، عالم الكتب .

١٦٢. **المعارف**، لإبن قتيبةأبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري، تحقيق: دكتور ثروت عكاشة، دار المعارف.

١٦٣. **المعجم الوسيط**، محمد النجار، دار الدعوة، مجمع اللغة العربية.

١٦٤. **معجم ما استعجم**، إبن عبد العزيز البكري،

١٦٥. **معاني القرآن** لأبي زكريا يحي بن زياد الفراء، ت (٢٠٧)ه تحقيق: أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار، دار الكتب المصرية ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.

١٦٦. **معجم العين**، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق مهدي مخزومي، إبراهيم السامرائي، دار مكتبة الهلال.

١٦٧. **المغني في أبواب التوحيد والعدل**، القاضي أبي الحسن عبد الجبار ت(٤١٥)هإشراف الدكتور طه حسين وزارة الثقافة والإرشاد.

١٦٨. **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، جمال الدين إبن هشام الأنصاري تحقيق: ماذن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر دمشق ١٩٨٥م الطبعة السادسة.

١٦٩. **المفصل في صنعة الإعراب**، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ت(١٥٣٨)ﻫ تحقيق: الدكتور علي بو ملحم، دار مكتبة الهلال بيروت١٩٩٣م الطبعة الأولى.

١٧٠. **مفتاح العلوم**، لأبي يعقوب يوسف بن علي السكاكي ت(٦٢٦)ﻫ تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ١٤٢٠ﻫ-٢٠٠٠م الطبعة الأولى.

١٧١. **مفاتيح العلوم** ،لأبي عبد الله محمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي دار الكتب العلمية ن بيروت- لبنان

١٧٢. **المقتضب**، لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد ت(٢٨٦)ﻫ تحقيق: محمد فخر الدين قباوة، الطبعة الخامسة، ١٤١٦ﻫ-١٩٩٥م.

١٧٣. **ملامح يونانية في الأدب العربي**، الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٧م.

١٧٤. **المنصف للسارق والمسروق**، لأبي محمد الحسن بن الحسن بن علي بن وكيع ت(٣٩٣)ﻫ تحقيق: الدكتور محمد يوسف نجم، الجامعة الأمريكية-بيروت١٩٨٤م.

١٧٥. **منهاج البلغاء وساج الأدباء**، لأبي الحسن حازم بن محمد القرطاجني ت(٦٨٤)ﻫ تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي الطبعة الثالثة.

١٧٦. **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي أبو الفرج، دار صادر بيروت-١٣٠٨ﻫ الطبعة الأولى.

١٧٧. **الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري**، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي ت(٣٧٠)ﻫ تحقيق: الدكتور عبد الله حمد محارب، دار مكتبة الخانجي القاهرة الطبعة الأولى، ١٤١٠ﻫ-١٩٩٠م.

١٧٨. **مولد العلماء ووفياتهم**، هبة الله بن أحمد بن هبة الله بن الأكفاني ت(٦٤٩)ه تحقيق: الدكتور عبد الله بن أحمد بن سليمان، دار العاصمة الرياض ١٤٠٩هـ- الطبعة الأولى.

١٧٩. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ت(٨٧٤)ه دار الثقافة والإرشاد القومي مصر.

١٨٠. **نزهة الألباب في الألقاب**، لإبن حجر العسقلاني.

١٨١. **نصرة الثائر على المثل السائر**، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: محمد علي سلطاني، مجمع اللغة العربية .

١٨٢. **نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة**، تحقيق: عبد الفتاح الحلو١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.

١٨٣. **نقد الشعر**، لأبي الفرج قدامة بن جعفر بن زياد، ت (٣٣٧)ه

١٨٤. **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت(٤٣٠)ه تحقيق: الدكتور مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

سادساً: فهرس الموضوعات

الفصل الرابع: جهود ابن سنان الخفاجي في علم البيان.

الفصل الخامس: جهود ابن سنان الخفاجي في علم المعاني.

الباب الثاني
الجهود النقدية عند ابن سنان